

Tele: @Arab\_Books

وارد بدر السالم

# الحنوة

اواية

الطور

وارد بدر السالم

الحلوذ



رواية

وارد بدر السالم

الحلوة





## الحلوة

وارد بدر السالم

**The Beautifull**

Wared Bader Al - Salem

الطبعة الأولى: 2017

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد- شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 - 07700492576 - email: alame@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف عبد اللطيف الحرز، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجترأ أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.

First Published by Dar Sotour For Publishing and Distribution

Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jaded Hasan Basha Entry

Revised copyright © Dar Sotour And Wared Bader Al - Salem. The right of the Author of this work has

been asserted in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، أو محررها، أو الجهة الصادرة عنها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

**لماذا يئن الناي..؟**  
**جلال الدين الرومي**

## ريحانة

أني لأنظرُ الى انفي كلَّ يومٍ مرتين  
مخافةً أن يكون قد اسْوَدَّ وجهي

«السري السقطي»





## البداية

(1)

### صفيـر النـايـات . الصـفيـر الأـول

- 1 - يسمونني الحلوة.
- 2 - ويصفونني بـ ذات الرائحة الفريدة.
- 3 - ميزوني منذ كنت طالبة في معهد الموسيقى وحتى توظيفي على العقد المؤقت بدائرة لا علاقة لها بالموسيقى.
- 4 - وفي الزمـين كـنتُ موضـع إعـجاب النـساء والـرجال كـ حلوة بـرائحة أنثى لا تشبهها رائحة.. هكذا يقولون.
- 5 - فصدقتُ هذا كلعبة ظريفة أول الأمر ملأت فراغي اليتيم الذي أعاني منه على مدار الوقت.
- 6 - وأثارت بي غرور بنتٍ كانت تحتاج الى حفنة من الغرور بسبب حلم طفولي بحجم وردة كما هو شأن البنات الصغيرات.
- 7 - لكنها استشرتْ بطريقة أغرقت مراهقتي بالكراهية لنفسى بسبب أحداث ليس من السهولة ذكرها الآن،
- 8 - حتى أفيق من رعب جسدي وأنسى أسطورة الألم التي شرخت روحي وقلبي،

- 9- مثلما جرحت أنوثتي المتفتحة لتستوطنها كآبة قاتلة يُفترض أن لا تتحملها مراهقة صغيرة مثلي،
- 10- لكنني تحملتها وبالغثُ في تحملي كي أعود الى أنوثتي وطفولتي وبراءتي وأحمي نفسي من العار حتى آخر لحظة.
- 11- فأخذتُ أهرب الى ناياتي الكثيرة.
- 12- أتوسل فيها الرجاء والأمل.
- 13- ناياتي عزائي الوحيد.
- 14- حتى تنفجر بالبكاء معي فتختلط أنغامها وتختلج في صدري كحبات الرمل الجارحة،
- 15- ويتحسرج صوتها كأنه نواح وتصبح غرفتي مقبرة دموع.
- 16- لكنني استدركتُ فيما بعد إنني لستُ حلوة مثلما يصفونني،
- 17- كفاطمة بعينها العجريتتين اللتين خطفهما مدير عام سابق،
- 18- جنّ بها فترك وظيفته وسافر بها الى لندن.
- 19- ولستُ مثل جارتي شيرين بقوامها الفارع وشعرها الحريري النازل على كتفيها.
- 20- قبل أن تترك الدائرة لأسباب كثيرة.
- 21- أو جنان الأيزيدية بوجهها المشع على مدار اليوم
- 22- قبل أن تهاجر مضطرة مع أهلها
- 23- بعد تهديدات من ميليشيات هجينة،
- 24- تدعوها لاعتناق الإسلام أو حرقها البيضاء.

أنا الحلوة.. هكذا يسمونني.

متناسين ريحانة التي كنتها فتواري اسمي خلف هذه الصفة التي بدت كإنها واقع لا مفر منه لأمثل لها مع مرور الوقت بمرافقة رائحة سحرية يشمها الجميع ويدورون حول أطياها كما النحل حينما يُدوّبه رحيق الأزهار.

كنت أعتقد إن كل بنت (حلوة) لها جمال مختلف ولون مختلف وصوت مختلف وجسد مختلف؛ وأن لها عينين غجريتتين واسعتين ومكحلتين ووجهاً أبيض مثل الضباب وطولاً متميزاً كعارضات الأزياء ورشاقة ممثلات يسحرن الجمهور، ولها رقة فراشات في قصائد الشعراء، وضحكة ملائكة صغيرات؛ لكن كل هذا الاعتقاد ليس له رصيد الا في مخيلتي في واقع الحال، وعلى ما يبدو هناك أمور أكثر غموضاً تلبس الآخرين حينما يعشقون شيئاً ويطاردون خيالاتهم من أجله؛ فأنا بنت عادية لا يميزني عن غيري إلا بما تتميز عنه بنت عن غيرها بالشكل وخريطة الجسد.

لكن ربما عيناى فيهما بعض الجاذبية الغربية وهذا شيء عادي أفهمه وهو أمر اعتدت عليه، لكن أن تكون رائحتي هي الحلاوة الأخيرة لبنت بسيطة مثلي هي سرُّ جمالها الفذ فهذه قصة حيرتني كثيراً وأربكت حياتي بل وانتهكتها وحولتها الى قطعة رعب محنطة. وهذه قصة تحتاج الى تفصيل دقيق ربما لا يصدقها الآخرون. لكن هذا ما حدث فتحولت من بنت مراهقة الى أنثى استثنائية جاذبة برائحة مثيرة في شعرها وجسدها.

بهذه البساطة صرْتُ محط اهتمام الجميع منذ كنت طالبة بعمر ثمانية عشر عاماً لا أعرف ماذا يدور حولي ولا أعيه بالشكل الصحيح وما ينسجه القدر حولي حتى تعيني في دائرة خدمية قادتني المصادفة إليها، وأنا مرهقة بهذا الاهتمام الغريب من الجميع كنت لها رائحة غريبة يدور حولها الجميع مثل كلاب الزينة ويرددون: أنتِ الفتاة التي عطّرتها الملائكة.. أنتِ رائحةٌ من السماء.

(3)

الحلوة..

تسمية مخدّرة تبعث على الغرور لفتاة بمثل عمري كانت وحيدة أביها ومدلته؛ وتملأ رأسها الصغير بخيالات طفولية وردية لا حصر لها وصور ملونة شتى تتراكم كالأزهار الناعمة، غير أنّ الحياة طوّقتها فجأة من كل جانب مثل كلاليب القضايين وقشّرت روحها النامية كبرعم أخضر كما يُقشّر رأس البصل، وأنضجتها على نيران ملتهبة لم تهدأ ولا لحظة، بل وكادت تحرقها وتقضي عليها لولا اللحظة الأخيرة الثمينة التي وهبتها الحياة في إسطنبول يوم كان خالي يذبل بالتدرّج ويعترف بالخانات من حوله وسوء الحظ الذي رافقه حينما كان هارباً من الحرب، مثلما اعترف في لحظة صحو أخيرة أنّ كاثرين كرّست فيه كذبة النسب التي تتداولها بالفطرة الاجتماعية والدينية ومارست حياتها الوسخة أمامه بعيداً عن مسيحيتها، فطعنت روحه وسوّدتها وحولته الى كائن آخر بلا جذرٍ ولا تُربة وبقي معلقاً كطاحونة تدور في الهواء.

كان وقتها يبدو وكأنه يائس من الحياة أو يستخف بها على نحوٍ

صريح؛ فالحياة البغدادية تحولت الى فوضى وارتباكات كثيرة ومخاوف لا تقل إثارة عن كل شيء أفلت من زمامه؛ وأنا أقرأ له التهديدات التي يتلقاها على موبايله بقلبٍ ضعيفٍ وشرابين مسدودة وكآبة قوية لا يريد أن يُظهرها في الأحوال كلها، وكنتُ شاهدة على لامبالاته وسخريته الصامته وتحديه لجماعة الظل والأحزاب الذين يتربصون به؛ لكنه بقي القوي المكابر العنيد؛ مثلما هو الخال السافل الذي أسقطني بطريقة كارثية مستغلاً طفولتي ووحديتي ويتمي وغرور المراهقة بي ذات الرائحة السماوية أو العجرية التي كانت تستشري بي مثل الجمر الناعم.

لم ينجح كثيراً في احتوائي آخر المشوار بعدما وجد إن حياتي أصبحت على حافة الخطر وأن جماعة المنطقة الخضراء ليسوا سهلين كما كان يتصور، لكنه توصل الى الكثير من الحقائق ولكن بعد فوات الأوان حينما تكرر التهديد عليه بسبب حُلمة الصبية زهور التي قضمها في لحظة شبق خارقة على ما يبدو وفتح عليه باباً لم يُغلق بسهولة.

كان وقتها يتحول من رجل نزق وشبق ومن عاشق خمسيني لا يحفل بالنسب الى خالٍ طيب يريد أن يتدارك الفضيحة ولا يريد أن يموت برصاصة غادرة.

لكن هذا ما حدث.

(4)

نضجتُ بعد الخطأ الجسيم الذي ارتكبني في غفلة طفولية لم أكن قادرة على تفاديها يومذاك عندما كانت «الحلوة» تستشري في جسدي

قبل روحي كرزاذ ساخن، وتحفر فيه لذّة عجيبة فاجأتني وجعلتني أرى  
أنوثتي بكاملها جسداً ولذّة حميمة في ذلك الطيف اللبناني الساحر  
حينما حوّلي من بنت تجهل الكثير من لمسات الجسد وفورانه الى أنثى  
تامة بقدرة عجيبة زرعها بي مارك في خيالٍ لا مثيل له أخرجته من صخب  
الديسكو وفوران السميرنوف في دمي الى الفراش الناعم الذي غطسْتُ  
فيه كلي ولم أعد أتففس إلا رائحتي عندما حملني بين ذراعيه القويتين  
كدمية تلفظ أنفاسها الأخيرة باركاً فوقها كثور صلب وعنيف وبكل ثقل  
شهوته الجارحة.

يومها ماتت معي ناياتي الصغيرة وأصبحت خرساء لا تقوى على  
التغريد وبقيتُ قصباً مجوفة تصفر فيها أنفاسي المتعبة وروحي  
المتشقة، وما زلت أعالجها منذ أربع سنوات لتعود معي الى الحياة  
ولا تتركني مسكينةً وبيّمة ووحيدة، فناياتي التي تكاثرت بعد نكبتني  
هي عزائي الوحيد في كل الظلام الذي أحاط ويحيط بي، وهي صوتي  
الوحيد الذي يفهمني على نحو كبير ويبدّد كآبتي المستمرة.

حدث هذا قبل وجود روني بيننا، يوم كان أبي يحيطني بالحب الكبير  
وروحه عامرة بدلا لي ليزرع بي روح الحياة التي يراها ببصيرته قبل أن  
أراها بعيني، مكابداً الحالة التي نحن فيها من فوضى وسيليشيات وخوف  
وحرب وانفلاتات كبيرة ضربت روح المجتمع وحوّله الى مجموعات  
طائفية صفراء.

حاولتُ أن أنضح يوم تركتُ «الحلوة» التي كانت تتخاطر بين  
صديقاتها بطفولة وبراءة، لكن هذا كلّفني راحتني وصحتي وزاد بي  
الكآبة والعزلة، مع إني استعدتُ ريحانة بصعوبة وتجاسرتُ على تاريخ

قروي كامل حينما أغرقتُ شمشاري التاريخي بين قارتين في ممر  
الثيران العظيم، وقضيتُ على رائحتي الفريدة بين موجه الأزرق بلا  
أسف كتاريخ شخصي تحملت ثقله الكبير الذي كاد ينهي حياتي معه،  
لولا جسر النجاة الذي عبرته في آخر لحظة، وكان آخر احتمال لي منحه  
القدر بمرض خالي وحصاره الروحي العنيف، فعبرته ونجوتُ.. وإن  
كان ذلك بطريقة مغشوشة.

### (5)

حينما تفاقم الوضع الصحي لخالي مارك بانسداد شرايين قلبه  
وتدهورت نفسيته بشكل لم أكن مؤهلة لأن أحتويه، كنت أصارع الوقت  
والفرصة الأخيرة لأستعيد ريحانة بمعجزة تركية في اللحظة الحرجة  
مع امرأة ستينية ذات عينين زرقاوين كماء البسفور، تتمايل مع موسيقى  
مقدمة المسلسل التركي العشق الممنوع الذي يصدر عن جهاز تلفزيون  
صغير في زاوية من الغرفة البيضاء وهي تفحص جسدي وترمم خرابه  
السري بخبرة وشطارة.

ثيرني العجوز التركية كثيراً من دون أن تدري وهي تدندن بإحساسٍ  
مرهف وتبدد الوقت الحرج لتصرف ذاكرتي عن أشياء خطيرة تلبستني  
وتخفف من وطأة الكارثة التي تشل حتى قدرة التفكير عندي، مثلما  
كانت تبعث الطمأنينة بي وهي تعالج موضع النكبة بين فخذي بخبرة  
أكيدة وتكلم بين الحين والآخر من دون أن أفهم شيئاً؛ لكن ربما كانت  
تقول لي: لا تقلقي فإنّ مثل هذا يحدث كثيراً مع البنات؛ مع إنّي لستُ  
فخورة بما حصل وما زلت اشعر بالعار أمام نفسي وأبصق على طفولتي

المغدورة، فأنا أخرج من أبي الغائب وصورته لا تفارقني كما ذكره  
تؤلمني، لكن ما حدث قد حدث ولستُ بقادرة على تغيير قدر أو محو  
خطيئة أو شطب نزوة أو تدارك غفلة؛ ويبدو - بالمال - يمكن تسوية  
القدر وغشه والتحايل عليه في بعض الأحيان.

وهذا ما فعله مارك العائد من أمريكا مترجماً وبهلواناً ولصاً ومتصائباً  
مع قوات المارينز التي احتلت بغداد. بل وقال انه أصبح مسيحياً كاثوليكياً  
متخلياً عن الإسلام منذ أن وطأت قدماه الأرض الأمريكية، بين اشتمزاز  
أمي العنيدة بتدينها ومعتقدتها وقرفي الفطري من هذا التحول الذي لا  
أستوعبه ولا أفهمه جيداً؛ متناسياً القرية وأهلها وتاريخها، ليكتب له  
تاريخاً مزوراً ظل يعيش فيه بشرايين مسدودة وقلب ضعيف وأنفاس غير  
منتظمة وتهديدات مختلفة من شخصيات سياسية وحزبية ودينية معروفة  
وهامشية غير معروفة. لكنه بقي في عنادٍ قروي قديم مع نفسه بالرغم من  
خساراته الأخلاقية والروحية والنفسية، ذلك العناد الذي أعادته له أمي  
عبر ليالٍ كثيرة من الذكريات مثل شهرزاد وهي تمتص القسوة المفرطة  
من روح شهريارها الذباح.

(6)

- 1 - خالي الذي كان مهاجراً منذ ثلاثين سنة اسمه طارق مثلما كانت أمي  
تخبرني عنه فرسمت له صورة الخال الغائب الذي لا يعود... الخال  
مثل الأب.. كانت أمي تقول هذا لي دائماً.
- 2 - هاجر من القرية هارباً من الحرب بطريقة لا أعرفها ولا يمكن لعقلي  
الصغير أن يتخيلها.



- 3- في وقتٍ كانت فيه أُمِّي لم تتزوج بعد وأنا لم أُولد بعد؛ لذلك كان الخيال خارج قدرتي في رسم صورته الهاربة.
- 4- لكنه عاد مسيحياً مع قوات الاحتلال الأمريكي باسم مارك؛
- 5- تختلط في لغته مفردات انكليزية وبعض اللهجات العربية التي كسبها من أسفاره الكثيرة ومخالطته لجاليات عربية متعددة ومتنوعة على ما يبدو.
- 6- وما زلت أتذكر - قبل أربع سنوات - حين طرق بابنا في ظهيرة حارة وفي جو كله غبار.
- 7- ويده ورقة مفروشة كأنها خريطة وبدا وقتها كأنه محصّل أجور مياه أو كهرباء.
- 8- تريض وراه سيارة دفع رباعية سوداء يجلس خلف مقودها سائق أشقر لم ينزل بعد.
- 9- كان رجلاً طويلاً ذا عضلات واضحة كما رأيته لأول مرة وأنا أتخفي وراء أُمِّي خلف الباب.
- 10- ولم يستطع أن يخفي اسمراره القديم بالرغم من وجهه المحفوف.
- 11- ملابسه مارينزية من تلك التي شاعت وقتها أثناء وجود قوات المارينز في بغداد.
- 12- يسبقه عطر باريسِي حين دخل الصالة وعانقني من دون أن يعرف إنني ابنة بديعة،
- 13- فغمزني ذلك العطر القوي وهذه أول مرة أشم فيها عطر رجل بهذه الطريقة المباشرة.
- 14- مستد شعري الطويل وقرص خدّي،

15 - ونظر لي بإعجاب بعينين تتفحصان جسدي الناشئ.

16 - عيناه تختفيان خلف نظارة سوداء عريضة العدستين تحتل نصف وجهه،

17 - ولا أنسى ضحكته العريضة وصوته المنتصر في ذلك اليوم المغبر وهو يرى أمي بعد أن فتحت الباب:

18 - Hi Sister ههههههههه.. وأخيراً يا بديعة Oh my dear . . Oh my god.

أزاح نظارته السوداء التي كانت توشي لحظتها بأنه ممثل هوليوودي مشهور فانفرش وجهه العريض أمامنا وتبدلت سحته الغامضة الى رجل ظلت أمي صافنة بوجهه الغريب للحظاتٍ سريعة جداً وبعينين مشدوهتين لكنها صاحت غير مصدقة:

- طارق...! مستحيل!

نسيت نفسها في الباب الخارجي حينما هجمت عليه وعانقه بحميمية وبأسته من كل مكان وهي تجهش بفرح لم أره في وجهها منذ اختفاء أبي، مصدومة للمفاجأة الغربية وخالي يوسع من ابتسامته وتمتماته وهو يطوي الورقة العريضة في جيبه الجانبي، وكلبنا الضخم روني يتربقب المشهد الطارئ بعينه الرماديتين ولم يكف عن نباحه. لكن أمي ظلت تهشُّ عليه بكلتا يديها وتوسع المجال لخالي وهو يدخل بيتنا، ثم يضمها بحنان وهي لا تخفي لهاثها من هول اللقاء الذي لم يخطر على بالها حتى في الخيال.

1 - أمي أصغر منه وستبلغ الخامسة والأربعين في الصيف المقبل.

2 - لم يكن لها حظ في الإنجاب سواي فقد أسقطتُ أكثر من حمل ولم

يقسم الله لها غيري لأكون الوحيدة عندها.

3- بينما خالي يكبرها بخمس عشرة سنة فهو على أعتاب الستين وإن لا يبدو عليه ذلك بسبب رشاقة جسده الأمريكي المفتول على طول قامته.

4- أمي الأرملة المجروحة معلمة تقاعدت بعد فقدان والدي.

5- لم تتحمل غيابه ونهايته الغامضة،

6- وخالي مارك أو طارق بقي في المنطقة الخضراء موظفاً في السفارة الأمريكية بعد انسحاب جنود المارينز من بغداد، فوطد علاقاته مع سكنة المنطقة الخضراء من السياسيين الذين لا نعرفهم؛ اسلاميين وأشباه اسلاميين وعلمانيين مدنيين ووسطيين ومسؤولين وعناوين متعددة وأشكال وأرناق.

7- أكثر من مرة زارنا وهو لا يكف النظر عني أو قرص خدي وضمي وشمي بمنخرين عريضين،

8- لكنه كان يتطير من روني الذي لا يكف عن النباح عليه من وراء النافذة.

9- كنت أعتقد أن روني يغار منه هههههه

(7)

في بيتنا كلب أسميناه روني ولا أعرف كيف خطرت تسميته على بالنا ولا أتذكر. ربما لأنه بوليسي وأجنبي من نوع وولف دوك الذي يشبه الذئب بشكله وحجمه. فأحياناً تفلت من دواخلنا أسماء غير متوقعة لا ندرك كيف خرجت وماذا تعني، لكن كلبنا الجميل صار روني منذ أول لحظة وما يزال.

- 1- لم يكن الأمر غريباً لبيتٍ فيه كلب،
  - 2- ففي بغداد شاعت تربية الكلاب البوليسية بعد الحرب حينما انتشرت السرقات والاختطافات والتجاوزات الأخلاقية وصار حفنة من المجتمع لصوصاً وحواسم وقتلة ونهابين وساقطين.
  - 3- لكن الغريب إنه ليس كلبنا بالرغم من وجوده بيننا منذ أربع سنوات.
  - 4- عثر عليه والدي في بابنا ذات نهار.
  - 5- كان صغيراً وجائعاً وعطشاً،
  - 6- ويبدو إنه كان مرتعباً من عصف القنابل وانفجاراتها المروّعة التي كانت تُلقى على بغداد ومناطقها المختلفة.
  - 7- واضح إنه هرب مثلما هرب الناس في ذلك الوقت جماعاتٍ باحثين عن ساعات من الأمن والسلام في القرى والضواحي المحيطة بالعاصمة،
  - 8- واختار بيتنا بطريقة غريبة وربط أمام الدار حتى عطف عليه والدي وأدخله الى البيت.
  - 9- وجده متكوراً على نفسه وراء الباب الخارجي بشكل ذليل ويموء كالقطة من الجزع والخوف والعطش.
- كان صغيراً ويبدو عليه الذل ومنظره يستحق الشفقة والعطف، بالرغم من أنّ أمي اعترضت على وجوده واعتبرته نجساً كعادتها تقي نفسها من الحيوانات المختلفة لأنها تصلي، لكنني اعتنيت به فوراً ومع مرور الأيام طبقتُ عليه كل الشروط الصحية من نظافة وطعام وغسيل وتلقيح، وبنيت له وكراً صفيحياً صغيراً في الحديقة الخلفية فصار صاحبي وأنيسي وصديق وحدتي والساھر على دموعي الكثيرة.

كبر معي ومع نياتي بشكل سريع وصار كلباً ضخماً ورائعاً يستهويه عزفي المتواضع ليلاً حينما أخطب روعي الهاربة وجسدي المثلوم، وصار ينصت بشكل جيد الى الأغاني التي تملأ غرفتي تلك التي أستخرجها من اليوتيوب وأصفن معها وقتاً طويلاً من الليل.

أحياناً أبكي فأعيدها مرة ومرتين وثلاثاً روني لا يتعب من سماع الأغاني معي.

أربع سنوات تكفي لنضج روني فيصبح كلباً جميلاً وذكياً وصديقاً لا أستغني عنه. يشاطرنني الرقص حينما أرقص كيفما اتفق مع شاكير المجنونة التي لا أستطيع أن أفلد التواءات جسدها، ويبيكي معي حينما أبكي مع أبوذيات الأهوار المتدرجة بين القصب وموجات الأنهار، ومع زهور حسين التي تخاطبني بروح معذبة ويبقى يدور حولي يواسيني وهو يهزُّ حزينا؛ حتى أمي في النهاية أصبحت تحبه وتوليه عنايتها بطريقة غير مباشرة فهو ثالثنا في البيت وحارسنا الأمين واعتادت أن يدخل الصلاة وغرفتي لكن في أحيان كثيرة كانت تتشطف بسببه.

خالتي ينفر منه وروني ينفر من خالتي في حالة متعاكسة غريبة جداً. ولم يعتد أحدهما على الآخر بالرغم من زيارات خالتي المتكررة لبيتنا. لكن عواءه المستمر بوجود الخال يدل على شيء لم أفهمه في بداية الأمر مع إنني أعرف بشكل جيد كلبي الذي كبر ونضج معي.. فهل يمتلك هذا النوع من الكلاب حدساً لا نعرفه؟

خالتي الذي يكرر استيائه من روني ملمحاً الى عدوانيته وذئبيته الكامنة فيه والأمراض التي تسببها الكلاب حتى ولو كانت ملقحة، لم

يلقى استجابة مني - بل حسب هذا نوعاً من الوصاية على البيت، لا أتقبله  
بل زدت نفوراً منه فهو ليس أبي على كل حال.

خالتي يبقى ساعة أو ساعتين معنا.

يتحدث عن كل شيء في غربته وحياته الأمريكية بطريقة ليست  
مفهومة بالنسبة لي لأنني ربما لم أسافر وأهاجر وأعيش غريبة عن بيتنا،  
بينما تحاول أُمي أن تذكره بالقرية والأهل والعشيرة والإخوان والأخوات  
الذين يسألون عنه فلا يبالي أو يتبته أو يسأل عن أحد.

روني ينبح في كثير من الأوقات التي يتواجد فيها الخال في بيتنا. لا  
يهدأ ولا يكف عن النباح حتى يخرج ليعود بعدها كلباً هادئاً يدور حول  
البيت ليلاً وينبح إذا كان هناك طارئ حتى لو كانت قطة متسللة.

في المرات التي يزورنا فيها خالتي كان يستلطفني ويضمني ويشمني  
ويجلب بعض الهدايا من الفساتين والمحابس والإكسسوارات، ومرة  
جلب لي موبايلاً حديثاً شغلني كثيراً بتقنيته التي تعرفت عليها بصعوبة.

هاتفه لا ينقطع عن الرنين حينما يكون في بيتنا وأسمعه يردد دائماً:  
أهلاً بالسيد.. شوف الأخ البرلماني ابو صابرين.. الوزير عنده علم...  
الجماعة دايعين.. كلهم حرامية لا تخاف.. نلتقي خارج السفارة... أبو  
الحارث طائفي مخادع.. ههههه أهل العمائم هلافيت وحرامية أكثر من  
الأفندية.. صاحبكم غدار.. البضاعة بالمطار.. go to دبي. come back  
from قبرص.. رايح لديترويت.. راجع من عمان.. Im سني.. Im أنا  
شيعي.. Im مسيحي.. Im كردي.. هههههه

كان يزورنا في الشهر مرة أو مرتين في ظروف مختلفة ثم قلص

الوقت فصارت زيارته اسبوعية (بسببي) جالباً في كل مرة هدايا خفيفة وثمانية من الساعات والأقراط الذهبية وبعض الفساتين الأنيقة وفي كل مرة يأتي أمي أكياساً صغيرة غير قليلة معبأة برزم الدولارات.

يمنح أمي الكثير منها (حتى لا تحتاجي لأحد) كما يمنحني أقل من ذلك (هذه حصتك) ويترك الرزم الأخرى بأكياسها البلاستيكية كأمانة لدينا فهو لا يملك حساباً مصرفياً في بغداد ولا يوجد له مستقر عدا السفارة في المنطقة الخضراء.

ينتظرنني امام دائرتي في فترات وظروف مختلفة ويوصلني الى البيت في أيام المطر الغزير أو يدعونني الى وجبة غداء في مطعم أحد الفنادق الرئيسية في بغداد، فثمة طابق أخير في عزلة دائماً لا يتردد عليه كثيرون كما رأيت أكثر من مرة.

يحكي لي عن أمريكا الواسعة والظروف (التي لا تتكرر) التي جاءت به مع قوات المارينز كمترجم مرافق لوحدة قتالية سيطرت على مطار بغداد بالإنزال الجوي؛ براتب ضخيم (لم أحلم به) ويحدثني كيف صار مسيحياً لأنه أراد أن يتخلص من عقدة الماضي المكبلة له (إسلامكم صحراوي لا يستقيم مع الحضارة الجديدة) كما يقول، ولماذا بقي يعمل في السفارة الأمريكية بوساطة من أحد الجنرالات كونه كان عراقياً مسلماً وأصبح أمريكياً مسيحياً في آن واحد (وهذه فرصة لا تحدث في العمر الا مرة واحدة).

## صفيير النيات . الصفيير الثاني

- 1- أدهشه إن عندي نياتٍ جميلة وعوداً وكماناً وقانوناً.
- 2- لكنه فاجأني ذات يوم إنه ارتجل عزفاً على القانون وكانت أخطاؤه قليلة،
- 3- فنظرياً لدي حاسة استقبال جيدة للموسيقى ويمكن أن أفهم النشازات النغمية بسهولة.
- 4- قال إنه تعلم شيئاً من العزف على بعض الآلات في الديسكوات يوم كان متشرداً في ديترويت.. ولم أستوعب هذا.
- 5- مرة جرب العزف على القانون فبدأ لي مثل غراب كبير يفرش جناحيه على الآلة وينقر أوتارها بأصابع غليظة،
- 6- أشعرتني فيها أنها لا تتحمل كل هذا الثقل البشري الرابض فوقها.
- 7- كنت أشعر بالارتباك من المشهد،
- 8- وُحُيِل لي بأن القانون سينفجر بين أصابعه الغليظة.
- 9- وكان جسدي يختض تلقائياً كما لو إن ثيابي ستطير من على جسدي؛ كأنني القانون.
- 10- لكنه استمر عازفاً ولاهثاً وملامحه تتغير ثم يتعرق بالرغم من الجو البارد.
- 11- ووجدته قد صرف كثيراً من الجهد حتى تصورته يعاند الآلة.
- 12- سافر أكثر من مرة وجلب لي أنواعاً من النيات القصيرة والطويلة،
- 13- لكن الناي الأفريقي بقصبته الغليظة المزخرقة وطوله المسترسل هو الأجمَل بينها،



- 14 - ذلك الذي كنت أراه وأسمعه في موسيقى الشوارع،  
 15 - يعزفه بوهيميون أفارقة ومتسولون وهنود حمر وصعاليك  
 16 - يذكرون بالغابات والحروب القبلية وخلوات السحرة والطقوس  
 الدينية الغريبة،  
 17 - لاسيما رجل الموهيكانز الذي يقيم على الأرصفة ويستدعي صدى  
 الغابات الغائبة ومأساة قبيلته المُباداة.  
 18 - بطريقة يُشعر بها الآخرين بأنهم ضائعون في الحياة  
 19 - ما لم يحملوا قراهم في جيوبهم وفي ثقوب نياتهم.

(9)

### صفيـر النـيـات . الصـفيـر الـثـالث

- 1 - ما تزال آلة القانون مركونة في غرفتي وقد غطى جلدها الغبار.  
 2 - إنها آخر ذكرى من أبي وأكاد أرى بصماته عليها.  
 3 - وما يزال العود الأحذب بكيس النايلون الأسود وهو ذكرى أمي التي  
 أصرت على أن أكمل دراستي:  
 4 - قتل الطائفون أباك ولكي ترتاح روحه تعلمي الموسيقى  
 5 - فإنها فن الأرواح الغائبة.  
 6 - وتقول لي في مناسبة أخرى:  
 7 - هؤلاء خنازير.. تعلمي الموسيقى واقتليهم بها.  
 8 - إنأري لأبيك بالناي والأغنية والفرح والنجاح فما زلتِ صغيرة ولا  
 تجعليهم يهزمونك بالخوف والحزن فما عاشت بلادَ عمائمها أكبر  
 منها.

- 9- لكنني أردد: أنا خائفة انهم يقتلون كل شيء.
- 10 - فترد وعيناها مجللتان بالحزن:
- 11 - ما بقي شيء يستحق الحياة بعد فقدان والدك
- 12 - سوى الثأر منهم بكل الطرق.
- 13 - تميل عليّ وتضميني بعمق: أنتِ وريثة أبيك.
- 14 - لا عليك بهم إمضي في الحياة الى النهاية.
- 15 - هذه من سقطات الوطن الفظيعة.
- 16 - كان أبوك قروياً بسيطاً يعيش في بيته ودائرتة ووطنه
- 17 - وينتظر أن تكبري ويرى أولادك ويفرح بك.
- 18 - القرويون أهل الشجن والألم والشجاعة والحب
- 19 - وأبوك قروي طيب وشجاع
- 20 - لكنهم غدروه.

(10)

### صغير النايات. الصغير الرابع

- 1 - تبكي أمي كثيراً وأبكي معها وروني يهرهر في الحديقة كما لو إنه يبكي معنا.
- 2 - امرأتان تبكيان في بيت صغير حتى تجف دموعهما.
- 3 - تنصرف أمي الى شؤون البيت وهي تنشج وأذهب الى ناياتي في غرفتي الصغيرة تعتريني كأبة سوداء. وروني يراقبني من خلف النافذة بعينه الرماديتين الداكنتين.
- 4 - في غرفتي نايات كثيرة من قصب الخيزران والغاب وناي واحد من عظام.

- 5- إقتنتها من هنا وهناك وخالي جلب بعضها من أسفاره الكثيرة حتى  
تجمعت كالشموع الغليظة.
- 6- لكنّ واحداً منها مصنوع من العظام وجدته أُمي مع النيات ولا نعرف  
كيف جلبناه.
- 7- ما زلنا نختلف أنا وهي بشأنه.
- 8- تقول إنه قديم ولم ننتبه له وأنا أقول إنني ورثته من حلم متكرر.
- 9- لم تفهم وأنا لم أفهم ماذا أقول.
- 10- لكنني حلمت لأكثر من مرة بأنّ أبي أهداني نايّاً من عظام بشرية،
- 11- وقال لي أشياء لا أتذكرها.
- 12- أُمي تقلق من أحلام كهذه وتخشى عليّ من هذه الوسواس.
- 13- فتختلق قصصاً لتقنعني بأن الناي موجود لدينا،
- 14- لكننا لم ننتبه له بسبب كثرة بكائنا. فالبكاء يحجب الرؤية والرؤيا  
أيضاً.
- 15- كان الغبار يتراكم على بياضه حتى كاد أن يحول لونه،
- 16- غير إنه الآن مصفوف مع نياتي الكثيرة بلونه الأبيض المميز كـ  
طويل.
- 17- الناي الأفريقي الذي جلبه خالي مارك مميز بطوله وغلظته وسعة  
ثقبه وصلابة قصبته.
- 18- لكنّ ناي الخيزران ممشوق وناعم وأنيق وأنظر إليه بحب دائماً.
- 19- أما نياتي السبع غير المثقبات حتى الآن
- 20- فهنّ قصبات القرية وأحبهنّ بشكل خاص.
- 21- فهنّ رائحة أهلي وأقاربي ورائحة قرية أبي المفقود.

### صفير النيات . الصفير الخامس

- 1- في رأسي نيات أكثر وأنغام محنطة في ثقبها لا تخرج بسهولة.
- 2- ويبدو إن أرواحنا تتعاقب بالخروج كلما وجدت منافذها المفتوحة
- 3- كالصفير يخرج كلما نفخنا في قصبه الناي.
- 4- في ليلة مطر استدرجتُ القانون وفرشته على سريري
- 5- حتى ملأ عيني بأزراره الكثيرة ومفاتيحه المعقودة وأوتاره المتماسكة  
كشبكة صيد صغيرة.
- 6- حاولت أن أعزف
- 7- غير إن الأوتار جرحت أصابعي،
- 8- ولطخت فراشي بقطرات دم ما يزال أثرها الخفيف باقياً حتى اليوم.
- 9- في حاسبتي نيات حية لا حصر لها.
- 10- تبتّ الحزنَ الى روعي الجريحة كل الليل،
- 11- حتى بتُّ لا أنام الا على أصوات الغابات
- 12- والقرى والأنهار والطبول البعيدة.
- 13- صافرة النيات وحدها تلهمني الطمأنينة والسلام
- 14- فأغفو على رائحة القصب.
- 15- للقصب رائحة القرية التي زرتها قبل سفري الى إسطنبول.
- 16- نيات القرية رائعات بشكلهنّ المصفوف.
- 17- سبع قصبات مجوّفات غير متساويات الأطوال.
- 18- قصّتها كلثومة بمنجل وسوّتها ونعمت حوافها وأزالت عُقدها،

- 19 - عَقَدْتَهَا بِخِيُوطِ مَسْفُوفَةٍ مِنَ النَّايِلُونِ بِقُوَّةٍ،  
 20 - وَجَعَلْتَ فُوهَاتِهَا مَتَسَاوِيَةً بَيْنَمَا أَطْوَالُهَا تَخْتَلِفُ وَهَذَا مَا كُنْتُ أُرِيدُهُ.  
 21 - كُنَّا نَبْتَعِدُ كَثِيرًا فِي نَهْرِ الْقَرْيَةِ حَتَّى نَلَامِسَ حَافَاتِ الْأَهْوَارِ الْمَفْتُوحَةِ.  
 22 - فَهَنَّاكَ قَصَبٌ وَفِيرٌ وَبِقَامَاتٍ عَالِيَةٍ.

(12)

### صَفِيرُ النَّيَاتِ . الصَّفِيرُ السَّادِسُ

- 1 - فِي الْيُوتُوبِ مُوسِيقَى كَثِيرَةٌ تَطْرَبُنِي وَتَرْقِصُنِي فَرُوحِي تَحْتَاجُ إِلَى الرِّقْصِ وَجَسَدِي يَحْتَاجُ إِلَى التَّطَهْرِ كُلِّ الْوَقْتِ.  
 2 - مَا يَكُلُ جَاكْسُونٌ يَذْهَلُنِي بِرَشَاقَةِ رَقْصِهِ وَأَشْعُرُ بِالْخَجَلِ مِنْ تَقْلِيدِهِ فَهُوَ خَلِيطٌ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَهَذَا انْطِبَاعِي عَنْهُ لَكِنَّهُ مَثِيرٌ جَدًّا، وَمَعَ شَاكِرًا أَطِيرُ وَيَتَفَكَّكُ جَسَدِي حَتَّى أَتَعْرَقُ وَأَتَعَبُ، فَالْجَأُ إِلَى الرِّقْصِ الشَّرْقِيِّ فِي لَيَالٍ كَثِيرَةٍ بِأَنْغَامِ أُمِّ كَلْثُومٍ وَعَبْدِ الْحَلِيمِ حَافِظٍ مَقْلَدَةِ سَهِيرِ زَكِيِّ مَرَّةً وَنَجْوَى فُوَادٍ أَوْ سَامِيَةِ جَمَالٍ وَصَافِينَازٍ وَفِيهِ عِبْدَةٌ مَرَاتٍ كَثِيرَةٌ حَتَّى يَسْتَوْلِي عَلَيَّ الْإِجْهَادُ.  
 3 - أَغْنِيَاتٌ أَكْثَرَ أَدْمَدَمَ مَعَهَا كَلِمًا وَجَدْتَ الْكَلِمَاتِ صَافِيَةً تَجْرِي عَلَيَّ لِسَانِي.  
 4 - وَأَحْزَانٌ مَسْبُوكَةٌ فِي النَّيَاتِ وَالْكَمَانَاتِ وَالْأَعْوَادِ فِي الْغِنَاءِ الرَّيْفِيِّ الْقَدِيمِ الَّذِي لَا أَتَحْمَلُ شَجْنَهُ فَيَزِيدُنِي بَكَاءً وَأَلْمًا.  
 5 - فَيَأْخُذُنِي دَاخِلَ حَسَنِ إِلَى الْفَنَاءِ الْأَكِيدِ لِتَفِيضِ دَمُوعِي، وَيَدْمُرُ دِفَاعَاتِي الْهَشَّةَ حَضِيرِي أَبُو عَزِيزٍ فَأَكْرَهُمَا وَأَهْرَبُ إِلَى السَّرِيرِ.  
 6 - جَمَالٌ كَثِيرٌ فِي السَّمْفُونِيَّاتِ الضَّخْمَةِ وَالْمَعْرُوفَاتِ الرَّائِعَةِ الَّتِي بَدَأْتُ

استوعب كميات الإبداع فيها مع الوقت وأهيم في روحها الشفافة  
كلما احتجت الى الهدوء،

7 - تبكييني معزوفة كارمينا بورا لاسيما الكورال الهائل بصوته الفخم  
العظيم وهو يتلو «المصيرُ موحشٌ يا عجلة القدر الدوّارة» ويريحني  
كثيراً أندريه ريو وفتياته الجميلات عازفات الكمان اللواتي يملأن  
المسرح جمالاً وبهجةً فأراهنّ أناثاً من نوع ملائكي لا علاقة لهنّ  
بالأرض الوسخة- بينما بحيرة البجع تمنحني الكثير من الهدوء.

8- بالمصادفة أذهلني القبائلي إيدير وتلك الأغنية الشجية بابا إينوفا التي  
تجعلني أبكي حينما أجد ابنته «غريبا» تخشى وحش الغابة وأشعر  
بالكآبة وأتذكر أبي فأعيد الأغنية مرتين وثلاثاً:

- أرجوك يا أبي افتح لي الباب

- آه ابنتي غريبا دعني أساورك ترخّ

- أخشى من وحش الغابة يا أبي إينوفا

9- تسحرني موسيقى الشوارع الهائمة مع ذاتها فأنا أحب العفوية في كل  
شيء.

10 - أموت حباً في نايات البوهيميين والمتسولين وصعاليك الغناء  
الجوالين على الأرصفة والشوارع كالغجر.

11 - أحب المتمردين على الحياة الذين حولوا أساطير الشعوب الى  
ألحان وأنغام ورقص سعيد.

12 - إنهم الحياة بكل معانيها تلك الحياة التي لا نقدر على أن نعيشها  
يوماً حتى في فوضاها الجميلة.

13 - آخر رجال الموهيكانز يعيد أسطورة إبادة قبيلته بنايٍ واحد فقط

وهو يرتدي اكسسوارات الهنود الحمر الشعبية فيبدو كلوحة زيتية  
تتحرك بشجنٍ أسر.

14 - وأنا أصفر معه وأتحول الى ناي ساحر بدموع غزيرة.

15 - تتقاطر الأحزان من أسطورة القرن السابع عشر عن قرية قُتلت  
بأكملها إلا من ناج وحيد يكافح الإبادة العرقية في حرب الشمال  
الأمريكي المجنونة.

16 - ليكي الناي قبل لحنه ويرتعث النغم قبل شفتي العازف فتصيب  
السياح غمامة حزن لهذا الاستدعاء الناجح في ناي هندي بليغ.

17 - يخالطها إعجاب بهذه القدرة الفطرية على جذب الماضي من قرية  
طوتها القرون والحروب والنسيان.

18 - هذا العازف الموهيكانزي يحوّل المكان الى غابة صاحبة بنايه  
الوحيد وجسده المزخرف بالتعاويد والخِرَق والأصباغ الفوضوية.

19 - لكنه يستقدم روح الموهيكانز المُبادين في الحروب بين الأدغال  
والأنهار والجبال.

20 - أتأمل هذا الهندي الأحمر الذائب مع روح الناي،

21 - فأرتعث كما لو إنه آخر رجل موهيكانزي محترم يحافظ على سلالته  
النقية ويحاول إحياءها قبل الانقراض الأخير، فأعيد موسيقاه  
المرتجلة مرة ومرتين وثلاثاً.

22 - وحينما يختفي تظل أصداء نايه تثير بي الكثير من الوجد فأنشج  
بصمت.

23 - في الوطن موهيكانزيون كثيرون لن يتركوا الحياة سائبة بأيدي  
هؤلاء الرعاع.

### صفير النايات . الصفير السابع

- 1- لم أتعلم العزف كثيراً كما يجب لكن الناي ينبض في دمي
- 2- روحي منقبضة ومزاجي ليس على ما يرام على مدار يومي .
- 3- فمي صغير والحزن أكبر من فمي .
- 4- مرة جربتُ أن أنفخ في ناي قصير
- 5- فتقاطرتُ دموعي وذابت القصبة .
- 6- مرة أخرى جربتُ الصفير .
- 7- فضاع فمي الصغير في ثقب الناي
- 8- واختنقتُ وقتاً حتى أدركتني أمي
- 9- وأخرجت فمي من الناي .
- 10- كان الناي يئن وكانت روحي تنن،
- 11- ومولانا جلال الدين الرومي يسألني في ليلة كثيفة: لماذا يئن الناي هكذا؟
- 12- فأجيبه: لأن أبي غائب يا مولاي .
- 13- فبقيت بلا جذر يشدني الى هذه الحياة
- 14- سوى القرية البعيدة التي لا أراها الا في الخيال،
- 15- لدي خال مسيحي غريب عاد مع المارينز
- 16- واغتصب روحي وجسدي،
- 17- يقول لا حلال ولا حرام في الأنوثة،
- 18- والنسب حكاية قديمة صدقناها على مر الوقت .



19 - أمسكُ الناي في ليلي الوحيد وأصفر به

20 - وتنقل أصابعي على ثقبه

21 - وكأنها تنقل على روعي المثقوبة.

22 - فيصرخ الناي وترتعش أصابعي،

23 - وأخاف من هذا الصراخ الفظيع

24 - فتقطع أصابعي يا مولاي الرومي.

(14)

كنتُ مغرورةً لوصف الحلوة التي تُرافق رائحتي كل الوقت.

أصعد على غيمة وأنزل من غيمة فأمطرُ رائحةً عذبةً من مفرق شعري الى أصابع قدمي؛ حتى وقع المصاب المؤلم لأبقي وحيدة مع رائحتي وأنوثتي الصغيرة التي كنت يوماً سعيدة بها؛ حينما خطفت الميليشيات الطائفية أبي منذ أربع سنوات، فأيقنتُ إن الحلاوة صفة مجردة لا علاقة لها بي، لا لأنني لست حلوة تماماً مثل شيرين أو فاطمة أو جنان.. لكن الحلاوة لها شرفٌ آخر وموضعٌ آخر بدأتُ أفهمه بالتدرج مع الوقت ومع الرائحة السحرية التي دمرت حياتي القصيرة وحولتني الى كائنٍ متهكٍ وخائف على مدار يومي.

أفقتُ من هذه الحلوة في وقتٍ كنتُ أمّتي نفسي به أن لا يكون هو الوقت الضائع من حياتي فما زلت صغيرة بالرغم من بلوغي الرابعة والعشرين وأنهيت دراستي بصعوبة بسبب غياب أبي الذي لم يعد له أثر حتى اليوم، وبقيت بلهاء أنظر للحياة من ثقب أسود لولا ضابط مكافحة الإرهاب م.أول عادل الذي كان إشراقاً صغيرة وجميلة؛ لكنها جاءت

مع الوقت الخطأ والمكان الخطأ والظرف الخطأ والنهاية المؤلمة التي  
أكلت الحرب نصفه وجعلتني أفيق من نوباتي المتوالية المؤلمة.

(15)

1 - لستُ حلوة مثلما يصفونني سوى إنني برائحة غريبة مجهولة حتى  
بالنسبة لي.

3- اختلفت النساء بوصفها وتوصيفها مثلما اختلف الرجال حولها.

4 - فأنا فتاة تنبثق من شعرها وجسمها رائحةٌ مثيرة وربما مغرية كما  
أستشفُّ من الذين يلاحقونني ويتوددون لي بكل شكلٍ وطريقة.

5- بل حتى بعض الموظفين اللواتي يلصقن أنوفهن بصدري ورقبتي  
وثيابي بطريقة تخجلني كما تفعل الموظفة القديمة العزباء الست  
سراب التي تمد سبابتها في مضيق صدري بطريقة المزاح وتلامس  
حافات نهدتي وحينما تخرجها تمصّها ضاحكة.

6- هنا سر الحلاوة يا بنت ههههه..

7- تضحك بوجه اصطناعي على الأكثر فالست سراب ذات وجه ممكيج  
بطريقة فوضوية ولها أنف طويل ومقوس خارج عن مساحة وجهها.

8- وقحة الى حد كبير وسمعتها سيئة بين الموظفين والموظفين.

9- تتحاشاها النساء أكثر من الرجال في الدائرة،

10 - لكنني أنجذب لها في بعض الأحيان بشعور غامض لا أستطيع  
تفسيره حتى اليوم، غير إنني أحاول أن أتملص من لقاءها بأي عذرٍ  
يتاح لي.

11 - أحياناً أنجح وأحياناً يعتريني الفضول لأبقى معها.

- 12- بصراحة أعطف عليها وأرى فيها امرأة مخدولة ومسكينة وأشعر إن وراء تعقيداتنا الشخصية أسراراً كبيرة من الصعب اكتشافها.
- 13- أقترّب منها بفضول وأبتعد بسرعة.
- 14- لا أقوى على البقاء معها غير إنها تستطيع أن تستميلي بطريقتها كما لو أنها اكتشفت سري.
- 15- فأهرع إليها يراودني شعور لم أكتشفه إلا في وقتٍ متأخر بعدما اختلط عليّ جسدي ونفّر من الخدر القديم الذي كان فيه.
- 16- كانت مثيرة وشيطانة بالرغم من عمرها الأربعيني وشكلها المعجّد.
- 17- الست سراب كادت تورطني في لحظة ضعف كان فيها جسدي متملاً وثملاً في السميرنوف القديم
- 18- كنتُ لا أفهم ما يدور حولي.
- 19- وربما كانت - بخبرتها الشيطانية - تعرف ذلك الخدر السري الذي لم أستطع التحرر منه كثيراً فهو لذتي الأولى التي فقدتُ فيها كل شيء مرة واحدة وبقية بلهاء لا أقوى حتى على الصراخ.
- 20- فاجأتني في نهار ميلادها بقنينة السميرنوف ذات السدّادة الحمراء فاختلجتُ وعصرتني لحظات من الخوف.
- 21- قلت لها وقلبي يرف أنا لا أحتسي الشراب.
- 22- لكنها ضحكت ضحكة فاجرة: إنه شراب الصبايا السحري وسيجعلك أميرة تطيرين كالفراشة.
- 23- أرجوك ست سراب جئت أهنئك بميلادك ثم امضي ولا أحتسي أي مشروب.
- 24- شيطانة وملعونة حينما تركت أمامي قنينة السميرنوف ذات السدّادة

الحمراء بمائها الضبابي لتعيد بي ليلة فظيعة مارستها في جونية  
بطريقة عجيبة كنتُ فيها فراشةً فعلاً.

25 - أظير وأحط على صدر خالي وبين ذراعيه بلهفة مجنونة ورأسي  
متبخر كأنه طار من عنقي.

26 - كنت صبية بلا رأس وأنتى صغيرة وسعيدة تحولت الى كائن لا يشبه  
البشر.

27 - كرهت الست سراب منذ يوم ميلادها الماضي،

28 - وقتها أرادتنى أن أكون مخدرة بنشوة غريبة.

29 - بسميرنوف عمره أربع سنوات كان خالي يسميه إله النساء،

30 - كانت تهمس لي وتلهث بطريقة غريبة: ممشتكِ ريانة.

31 - لحظتها كان رأسي يتلاشى كما في جونية

32 - وتحولتُ غرفتها الى ضباب ودخان كثيف.

33 - وامتلاتُ برائحة المشروب السحري الذي عصف بكل شيء.

34 - كنت يقظة ولن تتكرر عليّ اللذة القديمة التي خدعتني.

35 - وضعت جداراً لتلك الممشة السرية التي أخاف حتى أنا من  
لمسها.

36 - وتحولتُ الى ريحانة التي أريدها

37 - بينما تصاغرت الست سراب مثل دمية مشوهة وهي تفتح جسدها

وسميرنوفها ذي السدادة الحمراء،

38 - رثيت لها وهي مخدرة، مرتعشة،

39 - تقول أشياء أرعبتني وأربكتني،

40 - لكنني تشبثت بمشمشتي المتهكة لكي أحميها من جديد.

41 - ويوم حَلَّقْتُ مع الخال الأمريكي في ليلة جونية كانت مشمشتي  
تحتي،

42 - غائرة في طفولتها وسريتها ووحدها.

43 - غير إن الخال الشيطان انتزعها بمهارة خبير،

44 - ولم أكن قادرة على منعه تحت تأثير الخدر الرهيب الذي أوصلني

اليه وأنا مسحورة بسر عظيم لا يمكن لي أن أعرفه بسهولة وكان

خالني مأخوذاً بسحر الرائحة التي ينفثها جسدي.

45 - وقتها لا أعرف ماذا حصل وكيف

46 - سوى إنني فقدتُ ريحانة التي كانت.

(16)

يقولون أنا الحلوة..

1 - ببساطة أنا فتاة سمراء أو حنظلية.

2 - لي ملامح قروية على الأكثر ورثتها من أمي وأبي معاً.

3 - شعري اسود ناعم وطويل يسترسل حتى ما بعد خصري.

4 - عيناوي واسعتان لكن لا لون لهما.

5 - حالة غريبة فيهما،

6 - يتلونان مع الساعات.

7 - لامعتان مثل خرزتين

8 - تنعكس فيهما الأضواء

9 - مثلما تنعكس فيهما الشمس

10 - ومثلما يضيء عليهما الظل لونا غارقاً في العتمة.

- 11- بلون زيتوني على الأكثر  
 12- ينبعث فيهما الأزرق الغامق أحياناً  
 13- الأسود الداكن الجميل له حصة فيهما.  
 14- في الحالات كلها لون عينيّ المتبدل يعمّق من بشرتي السمراء؛ هذا ما أسمعه من نساء الدائرة.  
 15- قامتي بطول 168 سنتيمتراً.  
 16- فمي صغير كأنه حبة توت ريانة،  
 17- (وهذا وصف أسمعه من بعض الموظفين)  
 18- صغير ورقيق بشفتين ورديتين،  
 19- أراهما كل يوم في المرأة ناعمتين يجري الدم فيهما بسلاسة،  
 20- تحتفظان بخدر قديم مقزز  
 21- لا يفارقني منذ إن وقعتُ في شباك جونية.  
 22- ربما هو من أثر قبلة عنيفة أو أكثر من هذا.  
 23- فقد اكتشفتُ مصادفةً،  
 24- إن القبلة مثل الصفة تترك أثراً ليس من السهولة محوه.

(17)

أنا من برج الميزان وسنتي هذه معقدة وأقل حظاً بسبب وجود زُحل في هذا البرج وزحل هو كوكب الثواب والعقاب لكنني لا أنتظر ثواباً لأنني ربما لا أستحقه، فقد أنتظرُ العقاب أكثر مما أنا فيه الآن.

- 1- في برجتي بلبله وحيرة وغموض.  
 2- يطالبني أن أحرص على صحتي النفسية المتدهورة.

3- يطالبني الميزان بعدم المجازفة بوظيفتي،

4- فالوظيفة جزء من الحل لأخرج من عزلة البيت والغرفة التي غرقت بدموعي.

5- يقول إنه قد تمر بي أزمات جديدة أتمنى أن أخرج منها أكثر نضجاً وقوة.

6- وأن لا أضعف أكثر مما ضعفت في الوقت الماضي وأحمي جسدي بطريقة جديدة.

هكذا يوصيني الميزان لكنه يشدد على أن المهم هو تخفيف الخسائر قدر المستطاع والانتباه الى حياتي المقبلة فزُحِل سيرحل خلال هذه الفترة الى.. لا أعرف أين.. ويتركني وحيدة أواجه الكارثة، لكنه يوصيني أن اكون شجاعة الى آخر لحظة ولا تهزني المفاجآت لأعود الى ريحانتي التي فقدتها في غفلة طفولية كانت أمينة بين يدي مارك في ذلك الوقت.

برجي ذكي الى حد جيد كما لو يعرف ما حلّ بي حين أطلعه دائماً وأتخيله كرجل عاقل بلحية وشوارب بيضاء نازلة، يسدي لي النصائح الجاهزة ويحثني على الحياة حتى لو كنتُ بتناً ينقصها شيء ما مهما كانت أهميته بالنسبة لي.

فيتكرر حكمته: يجب أن نعيش الحياة مهما كانت أخطاؤنا فادحةً فيها..!

(18)

### صفيير النيات . الصفيير الثامن

1- دخلت معهد الموسيقى بعد نجاحي في البكلوريا بمعدل متواضع.

2- كانت الظروف قاسية في بغداد والدراسة مستحيلة،

- 3- وأتعبتُ أبي - قبل خطفه - بإيصالي الى المعهد وإرجاعي منه كل يوم
- 4 - فهو لا يطمئن على سلامتي في فوضى العاصمة وشيوع حالات الخطف فيها
- 5 - وانتشار الميليشيات والعصابات المحلية التي خرجت من القاع الوسخ الى واجهة العاصمة.
- 6- أتعبته سنة كاملة بكامل فصولها حتى غاب الى الأبد بطريقة لم نفهمها حتى اليوم،
- 7- فتجشمت أُمي عناء بقية السنوات معاندة القدر ومصرة على أن أكمل دراستي
- 8- بالرغم مما هي فيه من أسى وحزن وخوف.
- 9- بالموسيقى نثار لأبيك.. هكذا كانت تقول.
- 10 - لكنني لم أفهم.
- 11 - لم أكن راغبة بهذه الدراسة غير إنني أحببتها فيما بعد.
- 12 - لم أعرف شيئاً عن الموسيقى من قبل وكنتُ خائفة.
- 13 - لكنني أخذت أتعرف على هذه العوالم المثيرة والتي كانت مخفية عني،
- 14 - فتابعتها بتوتر أول الأمر ثم بحب مع الوقت وانفتاح هذا العالم أمامي بطريقة جميلة.
- 15- كان والدي يجلب لي الكثير من التسجيلات القديمة التي تخص دراستي
- 16 - فتعرفت على الكثير من الغناء العراقي والعربي الطربي الأصيل.
- 17 - حتى إنه اشترى لي آلة قانون كنت أحملها بصعوبة الى المعهد بسبب حجمها.



18 - يومها فرشتها أمامي كسجادة صغيرة وتأمّلتُ أوتارها وأزرارها ومفاتيحها

19 - وأنا في منتهى السعادة،

20 - كانت أكبر حجماً مني وكانت أكثر تعقيداً مما ظننتُ.

(19)

### صفير النايات. الصفير التاسع

1 - لستُ موهوبة تماماً.

2 - انها دراسة نظرية وحسب لكن دروسها العملية المتكررة أوجبت أن أخوضها مجبرة وأتعرّف على مفاتيحه السرية.

3 - وكدتُ أترك الدراسة حينما حُطف أبي لكن أمي أصرت على أن أواصل وأتعلّم الموسيقى وأحبها.

4 - (بالموسيقى ننتصر عليهم).. تردد هذا دائماً مع إنني لم أفهم هذا المعنى كثيراً.

5 - استبدلتُ درس آلة القانون في السنة الثانية بدرس آلة العود التي وجدتها آلةً عجيبة،

6 - لكنها كانت أكبر من جسدي أيضاً وكنت أعاني في التنقل بسببها ولم أنجح بأن أتلاءم معها،

7 - فاخترت الكمان في السنة الثالثة كآلة رشيقة تُسمعي موسيقاها بأذني مباشرة.

8 - لكنني تعثرت في استيعاب هذه الآلة وأتعبني اصطدام أوتارها وحركة الذراع المستمرة معها، فاستقر المقام بي على الناي في السنة الدراسية الأخيرة.

9- وكان ذلك بسبب مصادفة عارضة واجهتني ذات يوم عندما جذبني صوت ناي في شارع المتنبى يطغى على لغط السوق وصياح الباعة وثرثرات المتسوقين.

10- اقتربتُ من مصدر الصوت مأخوذة بنبض الصوت وحشرجاته التي لامستني كثيراً.

11- فرأيتُ رجلاً يضع نايًا بين شفتيه ويعزف ألحاناً ريفية معروفة تستقدم حزناً غريباً لا أعتقد إنني سأنساه يوماً.

12- لم يكن الرجل كبيراً في السن ولا رث الثياب.

13- كان خفيف اللحية بوجهٍ طويل ويمسك بيديه أربع نايات ويضع الناي الخامس في فمه ويتماهى مع الصفير القطري ويدوب معه بطريقة عجيبة.

14- أيقظ بي كوامن كثيرة وأنغاماً محبوسة في روحي وقلبي.

15- ناي الرجل الطاريء نبهني إليّ.

16- كنت في شارع المتنبى أبحث عن مصادر موسيقية مع إحدى صديقاتي فداهمني اللحن العفوي من فم ذلك الرجل الذي لا يبدو رثاً.

17- وأيقظ بي شعوراً حزيناً أدمع عيني لحظتها وشرد رأسي الى كل مكان وظل الحزن يتابعني أمام الصفير النقي الذي داهمني،

18- فأدركتُ على نحوٍ ما إن الرثاثة فينا،

19- وهذا العازف الجوال هو أرقى وأجمل وأنظف من كثيرين مروا بحياتي.

20- حلمت ليلتها إنني أجوب غابةً وأتبع راعياً يقود قطيعه وهو يعزف بنايٍ طويل ويكي وأنا أبكي معه.

- 21- وحينها أخبرت أمي بأني سأتابع أصوات النايات أينما كانت.
- 22- كان ذلك بعد حلم آخر كنت فيه أبحث عن قصبة ناي في أشجار القرية كلها.
- 23- كنت أعزف بشفتي بلا قصبة وأضفرُ روعي المريضة قبل أن أنهض من كابوسي الشخصي لأجد نفسي متعرفة ولاهثة وأمي تقرأ الصلوات وتضمنني الى صدرها المريح.
- 24- من الناي أدركتُ إن الحزن قصبة.

(20)

### صفير الرائحة . الصفير الأول

- 1- اسموني الحلوة بسبب رائحتي الغريبة.
- 2- من دون أن أشعر إنني حلوة فعلاً سوى هذه الصفة الغريبة التي أمتلكها.
- 3- لستُ مهتمة للأمر كثيراً بعدما صارت هذه الصفة قيداً وجرحاً ونكبة شخصية
- 4- ما زلتُ أحملها موجهةً الى أقصى حد.
- 5- لا أحد يعرف أنّ رائحتي التي ترافقني سببها شمشار صغير من خشب أبيض اللون بحجم كفي،
- 6- أسنانه ناعمة قليلاً وفي جانبيه المحدبين رسومات متداخلة كأنها عروق يد لا يمكن الاستدلال على شكلها بوضوح.
- 7- فمرة أرى على كل وجه شكلين متداخلين لم يتشابها ولا يوماً واحداً..!

- 8- وحينما أقلب الشمشار تتغير الصور وتنساب خطوطها بطريقة تزيدها غموضاً.
- 9- بصراحة لم أفطن لها كثيراً،
- 10 - إلا حينما زرت قريتنا وبقيتُ وقتاً سمح لي أن أعيد النظر بهذا الكائن الصغير،
- 11 - انتهت؛ بعد القرية؛ الى إن هذه العروق منسوجة معه وداخلة في تركيبته وإنها ليست مرسومة كما ظننت،
- 12 - وحينما حاولت حَكِّها بإظفري تأكدت من نسجها المحكم مع لحمه المتماسك
- 13 - لكن في القرية التي هربتُ إليها وقتاً قصيراً ازداد فضولي كثيراً كما ازداد توترتي حينما سمعت حكايات مثيرة وكثيرة تكاد لا تصدق
- 14 - عن جدّات قديمات كنّ حوريات ونبّيات وعجريات في أزمانٍ مختلفة.

(21)

### صفيير الرائحة . الصفيير الثاني

الشمشار هو مشط الخشب الأبيض كما يسمونه في القرية. ولا أحد يعرف معنى الاسم سوى إنه اسم موروث من قديم الزمان ويكاد ينساه الناس حتى في القرية سوى امرأة واحدة تذكرته ونطقت به، يومها كنتُ هاربة من بغداد بضعة أيام بعدما أصبحتُ كابوساً يُثقله الخال الأمريكي بأحواله المرعبة التي ألمتني كثيراً وشرخت طفولتي ومراهقتي.

شمشاري الموروث هو سر رائحتي الطيبة المغربية.

مشطي السحري ورثته بعدما تخلت أُمي عنه بسبب خطف والدي منذ أربع سنوات وانزوت عن الحياة كأية أرملة مفجوعة زهدت بالحياة. شمشاري الوراثي هو مشط الرائحة الغربية الفاتنة. لكنه مشط اللعنة ومشط الخطيئة الكبرى التي أحملها في جسدي، ويوم ألقيته في ممر الثيران بين قارّتين؛ بعد عملية زرع الغشاء المخجلة؛ وفتحُ ذراعِي أمثل الانتصار على نفسي كالممثلة كيت وينسليت لم أكن آسفة على تاريخ بعيد لعشرات ومئات السنوات توزع بين السماء والأرض والغجر والعشق الإلهي العجيب في حكايات القرية التي لا تنتهي عنه.

(22)

### صفيّر النيات. الصفيّر العاشر

- 1- حاولتُ أن أستغني عن الشمشار العجيب بالنيات الكثيرة.
- 2- استبدلتُ رائحته التي أورثتني
- 3- الحزن
- 4- والخوف
- 5- والقلق
- 6- بصفيّر النيات الكثيرة التي أجدها في أية لحظة أريدها.
- 7- وبقيت أهيّم مع نواح النيات وصفائها الحزين النادر،
- 8- فروائح قصبها مثيرة وأشجانها تبعثني الى عالم آخر.
- 9- النيات حزينة دائماً،
- 10- تبكيّني وتطربني وترمم روحي كثيراً؛

- 11 - رعاة القرى والغابات والجبال يملأون الحقول شجناً بالنايات  
الحزينة
- 12 - يملأون الفضاء بالنواح الصافر
- 13 - بمزامير وسرنايات الغاب الفارسية
- 14 - ونايات اللوتس الفرعونية النادرة التي استخرجوها من المقابر  
الملكية.
- 15 - تشغلني نايات السومريين من قصب الأهوار الغليظ التي سأجدها  
لاحقاً مع كلثومة الجميلة.
- 16 - تعلقتُ بالناي ربما لأنني قصبة.
- 17 - الناي أسطورة وقصبة التاريخ الموجودة في كل زمان.
- 18 - الآشوريون رعاة الناي في أروقة الجبال والرومان صفّارو الأرواح  
الغائبة
- 19 - لكنّ الأيزيديين يعزفون على قبور الموتى بالناي
- 20 - وطاووس ملك حين نزل اول مرة الى معبد لالش عزف بالناي  
فالناي صفير الأرواح التي لا تموت،
- 21 - أحلق مع رابعة العدوية التي قتلت وحدثها وعزلتها بالنايات،
- 22 - مبتكرة منها العشق الإلهي الفريد من نوعه.
- 23 - أتماهى مع مولانا جلال الدين الرومي وهو يثن مع الناي بكلمات  
حية باقية الى اليوم.
- 24 - مولانا الرومي كله ناي يغني.

### صفيير الرائحة . الصفيير الثالث

- 1- ربما أنا الآن خفيفة كريشة.
- 2- لستُ أسفة على إغراق شمشار قديم انتهك سري وأباح جسدي.
- 3- لم أنتحر كما يجب أن يحدث لفتاة وحيدة مثلي تحمل عارها الفظيع، وتحاول أن تخرج من ظلام روحها وترتق فضيحة جسدها،
- 4- فالحياة أذكى من خالٍ طارئ وغريب مهاجر وأميركي باع تاريخه الشخصي وتنصّل منه.
- 5- لكنني حاولتُ أن أستعيد ريحانة بجرأة وجنون فحياتي ممكنة بالرغم من كل هذا الخراب.
- 6- ولا أعرف إن بقيتُ الحلوة أم لا
- 7- لكن هذا لا يهمني كثيراً
- 8- فقد أصبح من الماضي بعدما توارى الآخرون بطرق مختلفة من حياتي
- 9- وبقيت أمي وروني معي.
- 10- سراب التي اختفت من شقتها من دون أن يعرف أحدا ما هو مصيرها حتى الآن.
- 11- وخالي مارك الذي أغتيل في مطار بغداد في وضح النهار.
- 12- بعد عودتنا - أنا وهو - من إسطنبول.
- 13- رصاصة مجهولة من كاتم صوت انطلقت من مكانٍ قريب واستقرت في رأسه ونحن عائدان الى بيتنا.

- 14- إذ لم تمض سوى دقائق قليلة بعد إن سحبتنا الحقائق خارج مطار بغداد حتى سقط خالي أمامي،
- 15- من دون أن يصدر منه صوت سوى أنين ضعيف وأصابع لم تقوَ على أن تستنجد بي فانكمشت على الرصيف كأصابع البامياء الذابلة.

(24)

### صفيير النايات. الصفيير الحادي عشر

- 1- ناياتي كبرت معي
- 2- وأنغامها تغيرت.



## النهاية

بنفسٍ مكتومٍ وعينين محتقتين يملأهما بياض المكان وجسد يحاول أن لا يتعثر، كانت تخطو مغمورةً بصمتٍ وروائح ضمادات وديتول وشظايا وجروح ودماء جافةً وربما غبار وحرب وبارود ودخان.

تماسكتُ وهي تخطو الى الردهة بفستانها الأسود الطويل وحجابها الضاغط على رأسها، فشعرت كما لو إن أمها تسحبها سحباً الى المكان بعد زلزال الاغتيال المدبّر والمفاجئ للخال برصاصة واحدة من كاتم صوت وما تركه من عذاب في روحها الصغيرة. غير إنها استكانت فيما بعد كمن تخلصت من عبء كان يثقل أيامها وساعاتها ولحظاتها وبقيت تحافظ على السر المغشوش في طوق النجاة الإسطنبولي لمواجهة خراب الحياة الذي تعيشه كلما انتهت الى نفسها في أية لحظة تشعرها بأنها كائن ينقصه شيء ما.

كثير من الأسئلة تتقاطر في روحها منذ الصباح الباكر وحتى هذه الخطوات المتعثرة على بلاط الردهة الطويلة.

أهكذا تكون النهايات غير متوقعة دائماً؟

أهو النحس وقلة الحظ أم هو اختبار الحياة المضنية؟

يسمونكِ الحلوة وينفخون في روحك الصغيرة حلاوة الرائحة النادرة حتى يمتلئ جسديك بها ويسترسل شغركِ كإنه الحرير الناعم حتى ما بعد خصرك فيختصر شمشاركِ الخشبي الأبيض النادر قصتكِ من دون أن يعرف أحدٌ سر تلك الإشراقات الفريدة والموج الناعم والعطر المخفي الذي يزيد من أنوثتك وحلاوتك.

انتِ الحلوة الماشية بقدميها في هذا البياض الجريح واليه، فهو ما تبقى من خلطة الحياة في عارها السري.

خذي معكِ نايًا وغنيّ له أغنية الغياب المومع، فهو كأني غياب متوقع ومحتمل في فوضى الحظ الذي يطارد طفولتك ووجدتك.

وطّدي صلتك بالصفير الجريح واستعيري ناي الرومي العظيم.

1- يا عمي الرومي

2- أنا بنت مجروحة من أسفل الى أعلى

3- ومن الجهات كلها وفي الفصول كلها.

4- أعطني نايك القديم

5- لأبكي قليلاً أو كثيراً

6- فبالدموع أريد أن أغتسل

7- وبها أتطهر قليلاً أو كثيراً.

كانت تسمع خطواتها المبعثرة على البلاط الناعم كدمدمة مدافع غير منتظمة، يخالطها نَفْسٌ يضيق وينفج قليلاً كما لو أنّ أنفاسها اختلطت بخطواتها المتعثرة، وحينما دخلت الردهة ارتبكت متوجسة من بياض الغرفة ورائحتها الغريبة المحيطة بضابط مكافحة الإرهاب الملازم أول

عادل، الغاطس بضماداته الثقيلة والمحاط بالأوردة البلاستيكية المغذية والمغروزة في أمكنة متفرقة على النصف الأعلى من جسده.

عادل: هل عدت بساقيك أم تركتهما في الجبهة؟

هل ستمشي بعكازتين أم على موجات رائحتي التي أغرقتها في البسفور؟

هل بقيت روحك حية أم تلاشت في غبار الحرب؟

وكانه في حلم طويل يتسرب من عينيه المخدّرتين وينتشر في كل مكان بدأ يفتح عينيه ويغمضهما ببطء كما لو أنّ ياسمينه صباحية فُرِكت أمام أنفه، فدغدغت المخفي المضطرب من روحه الغائبة وأيقظت في أعماقه المخدّرة صورة ما لرائحة غريبة شمّها ذات يوم في الغرفة المكدسة بالأضابير والفايلات فانتزعت منه شيئاً ما ظل يتبعه شوطاً طويلاً ورافقه حتى في الساتر الأمامي من الجبهة.

الغرفة البيضاء والفراش الأبيض والصمت الأبيض الذي يُغرقها في لحظة الزيارة فرّغ رأسها من كل طنين وأشعرها بأنها خفيفة مع مرور الوقت وإن رائحة شعرها بيضاء هي أيضاً، وحتى فستانها الأسود الذي ترتديه لمناسبة اغتيال الخال تحول الى بياض رقيق طاف في غرفة المستشفى الخاص بالضباط الجرحى وتحول الى ضماد يحيط بجروح الملازم أول عادل ويوقف دماءها، كأنها في معبد بوذي مفتوح مثل زهرة اللوتس وهو الشعور الذي خامرها منذ أنّ دخلت الردهة، بعدما استوعبت بياض المكان ورائحته؛ ورأته طافياً يحلم بعينيه المخدّرتين؛ يراها ولا يراها في لحظات البياض الصامت الذي وجدت نفسها مأسورة فيه.

قالت أم عادل منكمشة وأثر الحزن رهيب على وجهها: الحمد لله على كل حال.

وأسئها أم ريحانة: الحمد لله من قبل ومن بعد.

نشجت المرأة تهمهم وينفث صدرها حشرات طويلة:

- قبل يومين كان في البيت.. قال اشتقت لكم.. لم يبق سوى ساعة واحدة وعاد الى الجبهة.

- يكتب الله ما يشاء إنه الحكيم والرحمن الرحيم.

نشجت المرأة بصوت عالٍ أدمع عيني ريحانة المتماسكة:

- لا أتخيل عادل هكذا.. بلا ساقين.. يا رب إنها محنة وأطلب منك الصبر على هذا البلاء.. أطلب رضاك يا إلهي.

وكما لو حسمت أمراً ما بداخلها وهي تنظر الى الضابط وتراه تحت البطانية بطوله الذي تعرفه حينما كان يزورها في الدائرة تمتمت ريحانة بصوت متهدج تخاطب الأم المفجوعة:

- ما يزال عادل كما هو وكما رأيت.. لم يتغير فيه شيء!

نظرت المرأة اليها من خلال فيض من الدموع الوفيرة فرأتها بفستانها الأسود الذي كشف حزنها وانخفاطات وجهها. ما تزال طفلة لا تكبر وهي تتشح بالسواد. ورأتها ريحانة امرأة منكسرة وذليلة تتوسل بعينيها كأنما شاخت فجأة وانكسرت روحها الى الأبد.

تيقنت أن رائحة تسرب في الغرفة الصامتة بالبياض وتسلل اليه.

ربما هي رائحة قديمة بقيت عالقة فيه حتى هذا الوقت، فلأول مرة

تخلو حقيبتها من مشطها الأثري الأبيض بعدما أغرقته في ممر الثيران ورأته يترنح في موجه الأزرق حتى غطس وضاع الى الأبد بين قارّتين وزمنين.

من جديد جربت صوتها في سكون البياض أو الضباب متسائلة:

- هل الشظايا الباقية كثيرة؟

كانت دموع المرأة تنسكب بلا رحمة وصوتها يختلج وحسرات ضخمة تحرق الصمت المشوب بالخوف والرهبة، فوجدت الفتاة جو الغرفة وقد تحول الى دخان ساخن فتقدمت الى المرأة باضطراب:

- لا تبكي يا خالتي.. عادل كما هو.. سيفيق.. سأكون معه..

فتح عينيه المخدرتين كما لو أنّ الصوت جلب اليه ذكرى عطر أو رائحة أو ما شابه ذلك ولم يغمضهما، مثلما بدا إنه يحاول الآن كمن يتخلص من كابوس عاصف أثقل عينيه، فظهرت بعدها ابتسامة ضعيفة ارتسمت على وجهه وهو يرى طيف ريحانة أمامه كشجرة عطر صغيرة تظلل حلمه المخدر بعينيهما اللتين ظلت ألوانهما تتغير بلمعان جديد.

ابتسمت له بصعوبة وانفتح وجهها الأسمر الصغير عن فرح حاولت أن يظهر قليلاً، مغمورة بدهشة غامضة أن يتسم لها الجريح في وضعه الحالم أو المخدر، غير إنها تأكدت إنه يتسم لها ولم يعاود إغماض عينيه وقتاً سمح لها أن تقرأ امتنانه، فتوسعت ابتسامتها وانفتح وجهها أكثر وهي تنفصل عن لحظة الغرفة المخدرة وتطوف فيها كضئاد جريح يمتد من عينها الى عينيه.

اقتربت من حافة السرير وهي تحاول أن تسيطر على نبض جسدها:

- سلامتك عادل.

وكانت البطانية تخفي جرحه العميق الذي تركه في المعركة، وبقي وجهه مكشوفاً بعينين تنغلقان وتفتحان بصعوبة فتأكدت إن المرأتين سمعتا نبضها الخافق بشدة وهي تدنو منه، في حين توسعت ابتسامته الضعيفة وانفتحت عيناه بطريقة لافتة وبدا كأنه بدأ يتحرك على سريره فتحرك معه الأوردة البلاستيكية المنصوبة بجوار سريره على حمالة معدنية.

اجتاحت المرأتين لحظة مشتركة وهما تنظران الى الفتاة التي اقتربت كثيراً منه ووضعت يدها على يده الممدودة تحت البطانية وعيناها ثابتتان على وجهه الغائب الذي فقد الكثير من ملامحه، وكانت ابتسامة خجولة تشع بوجهها، وهي الابتسامة التي انتقلت الى وجهه الذي أشرق في لحظة الدموع الصغيرة كمن استفاق من حلم طويل ومن كابوس الحرب الذي قصّ ساقيه وأثقل جسده بالشظايا، ويسمع رفيف ناي صغير بين شفتيها الناعمتين وهي تجوب المكان بأنغام حب تصله بين السماء والأرض في لحظة عجيبة متقنة وجدها في وجه ريحانة الجميل الذي تغير كثيراً وصار أحلى وأجمل وأكثر إشعاعاً.

همست له وهي تحني قامتها الطويلة حريصة أن لا تسمعها المرأتان:

- أنا معك.

## الوحيدة

أخِرُ قطرات المطر تدلّت من غصنٍ يُشرف على نافذتها المفتوحة  
وهي تستنشق هواء الحديقة الصغيرة المرابطة خلف غرفتها بشجيراتها  
القصيرة وورودها الناعمة.

يوقظها الفجر ورائحة المطر فتنهض مثقلة بأعباء تراكم وتثقل روحها  
الملبدة بالكآبة وتزيح غشاوة عينيها بالتدرّج بقلب خافق مضطرب  
النبض كما في كل يوم.

رائحة الفجر تتقاطر معفّرة بروائح لا تعرفها وشعرها المسترسل  
وراءها يربكها بفوضاه المتناثرة في يقظة الفجر المطرية التي تطرق  
نافذتها بالبحاح.

### صفيير الرائحة . الصفيير الرابع

- 1- تشمّ الرائحة المناسبة وراء ظهرها،
- 2- بعدما لَوّت شعرها مطوّقة وجهها بحريه الناعم،
- 3- لتأكد من فتنة الرائحة الغريبة التي تلاحقها
- 4- فتمتلئ روحها بها،
- 5- وتنغمر برائحة قرنفل قروية لم تشمّها من قبل،

- 6- أو رائحة نهر طافح بالزنايق وأزهار الماء،
- 7- أو عطر غابة تنتظمها أشجار وأزهار متقاربة وأوراق متراصفة.
- 8- غابة فيها غزلان ونمور وأرانب وطيور وأزهار وورود ومطر وندى وضباب وأعشاب مبللة وأعنان ناضجة وكروم ما تزال تتفتح.
- تعيد ترتيب شعرها الطويل وتقف على النافذة وتشمه من جديد.
- 9- رائحة متعاضدة من مسك وزعفران وجوري وياسمين وأوركيد وسوسن وزنبق وقرنفل ومانوليا وعود أبيض.
- 10- وربما اختلط فيها العطر الباريسي للخال طارق،
- 11- فتخطف تلك الرائحة لتتعب ذاكرتها وتقلق فجرها الجديد.
- 12- ترتبك لحظة الفجر في قلبها وتعود تراقب قطرات المطر المعلقة على حديد النافذة،
- 13- كما لو هي عصارة الأغصان المورقة التي تراها في كل فجر،
- 14- تطل عليها حينما تفتح عينيها وتنهض متحسسة جسدها بحذر
- 15- وتزيل الستارة الداكنة.. روني نائم لكنه يحرسني.
- 16- تطالعها الحديقة الصغيرة التي تتفتح قليلاً تحت البياض الأول،
- 17- وتستنشق الهواء البارد في ربيع يريد أن يأتي بصعوبة
- 18- فيهمس داخلها بحزن.. لست سعيدة.. لم أكن أعرف جسدي من قبل.
- 19- تردد لريحانة الأخرى التي تستيقظ معها في الإشراقات الأولى
- 20- لكنها تخفي السر فوراً وتطردها
- 21- فتهرب الرائحة المزدوجة وتترك النافذة واخضرار الحديقة والأغصان التي تنظر إليها عبر النافذة،



- 22 - ويحوم العطر المفترس للخلال حولها ليستولي على بقية الروائح التي تنبع من شعر الحرير والجسد الناعم.
- 23 - تلقي نظرة مريبة على المشط الأبيض الرابض أمام مرآتها،
- 24 - وتتأمل عروقه الخضراء التي بدت تتحرك كأنساع سرية في داخله.
- 25 - تقترب منه حاسرة يديها بين إبطيها مترددة بمسكه،
- 26 - فتتضيب في عينيها صور غامضة
- 27 - ليس لها لون محدد ولا شكل محدد.
- 28 - تتغير خطوط الرسومات الخضراء فيه
- 29 - وتتخذ أشكالاً غامضة كثيراً لا تود أن ترى أكثر من ذلك.
- 30 - تسدل يديها من تحت إبطيها وتمسكه بحذر،
- 31 - وتقلّب من الجهتين
- 32 - لكن عتمة الغرفة تبدد الصور المرسومة فيه
- 33 - مستدركة من إنها ليست على ما يرام ككل صباح،
- 34 - فأخفت ريحانة الأخرى عن المشط الراكذ بمكانه
- 35 - وقمعت فضولها وهي تحرر يديها وتدنو منه.
- 36 - تمسّد سطحه الأحذب قليلاً بحذر
- 37 - كمن تخشى إيقاظ أشباح الرسومات المتغيرة على حديتيه الصغيرتين.
- 38 - تفتح ضوء الغرفة فتتحرك الرسومات المتداخلة وتغيّر من أوضاعها
- 39 - أنت السبب.. أضعفتني كثيراً.. تعاتبه كطفلة
- 40 - ترفعه الى أنفها الصغير وتشمّه طويلاً.
- 41 - تستنشق عطر حديقة شاسعة في روحها
- 42 - وتذوب في عطرها الطالع من روح بعيدة أو أرواح لا تدرکها

43- ولم تسعفها أسئلتها الكثيرة لأمها المفجوعة بالغياب المؤلم.

44- من أين تأتي الرائحة..؟

45- تشيح النظر عن مشطها القديم.

46- تعود الى الفراش وتدثر نفسها من جديد فما يزال الوقت مبكراً،

47- وديب الحركة البطيئة في الشارع العام لسيارات وأصوات صباح معتادة.

48- يارب.. لا أريد أن أموت بهذا العار.. انتظرُ عودة أبي.. لستُ سعيدة.

تشعر بالانقباض لكنها لا تفسر ذلك كما في كل مرة فتعجز عن معرفة السعادة ونقيضها، غير إنها تغادر السؤال الذي يتعبها دائماً بشعور مختلط من إنها ليست وحيدة مع أمها المثقلة بمرض السكري وانخفاض الضغط، وخالها البهلوان المتصابي والمترجم والوسيط اللعوب بين السياسيين اللصوص الذي ترى فيه عارها الشخصي.

### نآيات الجسد . الناي الأول

1- مرة قال لها ويده تقبض على يدها الناعمة: كل انثى ولها قدر.. الأنوثة لا عنوان لها.. اكبري على هذا.

2- مرة قال لها وهو يقرص خدها: الحرام من صنعنا نحن البشر.

3- لكنها بفطرتها وعفويتها لم تستسغ منه: حتى الدين خرافة صنعها لنا التاريخ المزيف فامثلنا له بغباء.

4- هل أنت ملحد يا خالي؟

5- أنا انسان عائم في الحياة مثل القصبه المجوفة لا يربطني دين ولا شعائر ولا غيبات ولا كنائس.

6- قلت إنك أصبحت مسيحياً.. يعني أنت مؤمن.

7- هذا برستيغ قديم فعلته لأتخلص من عُقدكم الكثيرة وأعيش حياة الآخر بحرية مفتوحة فالمسيحية منفتحة الى آخر مدى عكس الإسلام الصحراوي المخيف المنقبض على روحه بسيف صدي قديم.

لم تفهم ماذا يعني القدر سوى إنه غامض كغموض قدر والدها المخطوف أو المقتول قبل أربع سنوات وبالكاد استوعبت غيابه، فعلقت الكثير من صورته في غرفتها وبدأت تناغي غيابه الطويل بالبكاء والرسائل المؤثرة التي تنشرها على صفحتها الفيسبوكية؛ لكن الخال قال لها أكثر من مرة: هذا لا يصح فأنت صغيرة وهذه الصور تزيد من عذابك في هذه البلاد التعيسة.. انا مكانه.. انت ريحانة الحلوة.. سأخذك الى أميركا.

أزالت الصور مضطربة وعلقتها في غرفة الاستقبال وتركت صورة واحدة كانت فيها طفلة صغيرة بثياب قصيرة يحملها والدها على كتفه في مكان لا تعرف أين.

تحصر جسدها ببيجامتها الزهري وتلف البطانية التي يعتليها نمر مرقط مكشّر الأنياب وتبقى تتأمل العتمة الخفيفة في الغرفة التي تشغلها بوسترات عشوائية لتقاوم سنوية متروكة وصور أسرية وشخصية في مناسبات مختلفة صغيرة الحجم؛ مضغوطة بإطارات خشبية رقيقة لم تُزل الغبار عنها منذ أيام غير قليلة وصورة والدها الوحيدة التي تظهر فيها طفلة بثياب قصيرة.

سحبت الموبايل من تحت مخدتها وضغطت على زر التشغيل فتوهج وجهها بنور صغير كشف شعرها ووجها الناعس، فحررتة من وضع «الصامت» وتابعت المكالمات الليلية الفائتة والرسائل المرسلة إليها.

أم عادل مديرة الإدارة التي تلاحقها لخطوبة ابنها الضابط في مكافحة الإرهاب تكتب لها إنها الريحانة الصغيرة الذكية اعتادت أن تراها كل يوم في الدائرة ووعدها بفطور من القيمر والصمون الحار.

رسائل شركة آسيا بإعلانات وخدمات ومسابقات مختلفة.

رسائل من مواقع قرآنية تحث على الصلاة وتذكر بنار جهنم وغضب الله لتارك الصلاة.

رسالة أخيرة من الخال طارق لم تُرد إكمالها فأغلقت الهاتف، لكنها بغريزة لا تعرف تفسيرها تعود لتفتح الهاتف فتطالعها صورته بنظارتها السوداء العريضة التي تضفي غموضاً آخر على وجهه وتعيد قراءة الرسالة من جديد: سأمر عليك نهاية الدوام تومورو ونتغدى في المكان نفسه وبعدين أوصلك للبيت.

تختلج أكثر من رؤيا في داخلها فتعصرها كتمرة وتقلص احتمالات الفرح فيها وتفتت جسدها المحاصر في بيجامتها الزهري، حينما تخفق روحها الصغيرة كالعصفور الحائر على شجرة بلا أوراق يراه الجميع عارياً.

تشعر إن نمر البطانية مكشر الأنياب يبرك عليها بثقله الكبير، فتحضر لعنة الفندق القديمة في آخر الليلة الحمراء لتوازي لحظة الرائحة المنبثقة من مشطها الأثري أو من مكان ما لا تعرفه.. جونية الخطأ الفادح!

في مكان شامق من فندق في العاصمة المطل على دجلة لم تحلم كما بدا لها غير أنها حلمت في لحظة غريبة وهي تتذوق طعم شفيتها

لأول مرة ولساناً غريباً يدخل فمها ويبتخر لحظتها الغامضة ويزيدها ارتعاشاً وخدراً.

## نابات الجسد . الناي الثاني

- 1 - انتِ أميرة..تعالى أشم انثاك baby لا حرام Between رجل وانثى هذه غريزة الخلق.المعممون وضعوا الحرام والحلال حسب مصالحهم..هيك.
- 2- انتِ أكبر مني وتعرف.
- 3- ألم تعتادي عليّ بعد؟
- 4- تقول أمي أنت خالي.
- 5- سأخذك الى أميركا.
- 6- وماذا في أميركا؟
- 7- الفريدم والشباب والحياة والأنوثة والهواء الطلق.
- 8- ياه..
- 9- أم تريدي بيروت؟ فهي روضة تشبهك ولها طعمك.
- 10- أسمع عن بيروت ولم أرها.
- 11- اختاري.. بين أميركا وبيروت.
- 12- أكره أميركا.. لأنها خطفت أبي.

أعادت قراءة رسالة الخال مرة ثانية فمطت شفيتها وتنهدت واجتاحتها رجفة سريعة مثلما خنقتها عبّرة صغيرة بعثت فيها كآبة الصباح وحيرته، كما يحدث عادة حينما لا تنتظم أنفاسها وهي تجري خلف ذكرى وحيدة ومميّة أعقبت ذكرى مؤلمة باختطاف والدها ومصيره المجهول.

سحبت البطانية على رأسها كما لو تريد إبعاد شبح الخال لكن شبح اليقظة التي هي فيها يزاحمها مع الفجر البارد وتأتي صورة الخال مثل كل مرة بطوله الرياضي الفارع وشعره المصفوف ونظاراته السوداء التي يتقن وضعها على وجهه وبدلته الأنيقة التي تخفي عمر ما بعد الخمسين.

وفي محاولة أخيرة منها لإستحضار صورة ضابط مكافحة الإرهاب الذي رآته مرتين في الدائرة لإنزاع صورة الخال القسرية، دفنت رأسها لتعيد للقاءين السريعين المرتبكين، لكن شخصية الخال البهلوان لا تبارح رأسها فتغمرها رائحة بيروت المفاجئة وتقضي على فتنة الصباح فيها.

بيروت فضيحتي.

تنشج تحت البطانية بصمت، ثم تنهض مستفزة من جديد وتغلق النافذة وهي تسمع خطوات أمها في الحمام والمطبخ في الصباح الذي أخذ ينتشر في حركة الشارع القريب كما تسمع خطوات روني في ممر الحديدية الخلفية.

نهضت متناقلة واشعلت مصباح غرفتها فانعكس النور في مرآتها العريضة، كما انعكست صورة مشطها الأثري الأبيض الخشبي الصغير الذي يزيد على حجم كفها بقليل.

مرة حلمت إنه ينبع من روحها الصغيرة مثل الضوء؛ كما حلمت إنه ينساب من ثيابها كالهواء الأخضر؛ ومرة أخرى يتحرر من أصابعها ويصير موجات فضية برحيق غريب؛ ثم ينبع من كل مكان في جسدها

ما إن تضعه على شعرها، لكنه ينبع في الحالات كلها؛ ضوءاً وهواءً  
وموجات فضة فيزيدها أنوثة ووهجاً وعطراً لتكون الحلوة الأثيرة بين  
صديقاتها برائحة نادرة.

## الضحك

أعارني مستر Jeem الموظف الثالث في السفارة الأميركية كتاب يوميات بول بريمر «My one year» باللغة الإنكليزية ونصحني أن أقرأه: -  
- أقرأ عن هذا البلد المريض.

ثم وهو لا يخفي ابتسامةً ماكرةً على وجهه حينما قال:  
- أريدك أن تضحك مستر مارك.. لترى فداحة الأمر وعليك أن تستنتج كيف خرجت كل هذه السموم.  
كنت أقلب بعض صفحات الكتاب السميك ومستر Jeem يواصل تهكمه:

- إنه كتاب للضحك ويوميات للفرجة.. قد يفتح بعض شرايين قلبك المسدودة ههههه.

وبالرغم من قلة قراءاتي وعزوفي عنها إلا إن مستر Jeem بتهكمه البليد شجعني على قراءته، وربما كانت بي حاجة لأعرف ما لم أعرفه عن أوضاع السياسيين من رأس السفير بريمر مباشرة وما أحاطت به من مفارقات معهم، أولئك الذين أعرفهم كلهم تقريباً، حتى جماعة الظل من الأفندية والمعممين الذين يسرون بجوار الحيطان ويسترون القامات البارزة في المشهد السياسي الطائفي كما يبدو.



كنت أعتقد أن لا شيء سيفاجئني لأنني من أوائل الذين دخلوا بغداد عبر المطار في عملية الإنزال المعروفة كترجم حتى بقائي النهائي في السفارة الكبيرة. ذلك الإنزال الذي لم يعرف كثير من العراقيين إن الطائرات الأميركية فكّت الحصار عن المارينز بالقنابل الحارقة التي جعلت من دبابات الحرس الجمهوري قطع بلاستيك مصهورة حول المطار ولدي صور كثيرة ما زلت أحتفظ بها في كاميرتي الديقيتيل.

يومها كان الجنرال آلن قلقاً من أن قوات الحرس الجمهوري قد تسحق قوات الإنزال في المطار وتُفشل خطة الاحتلال التي وصلت الى آخر مرحلة.

كنتُ قريباً منه أراقب قلقة واعترف إنني كنت قلقاً مثله وخائفاً الى حد كبير لكنّ الأمور انتهت خلال نهار واحد وذابت دبابات الحرس الجمهوري كعرائس المانيكان وهي تحترق حول المطار وتحول جنودها الى قطع فحم داخلها.

استهوتني يوميات السفير بريمر وأضحكتني وفاجأتني وأنا أطوي صفحاته الكثيرة في ليلة طويلة كاملة احتسيت فيها أكثر من نصف قنينة ويسكي شيفاز سبيل، أغلقت فيها هاتفني الذي تكررت فيه اتصالات الأربعيني المعمم الذي يجعل من نفسه وسيطاً بيننا وبين مجلس الوزراء برموزه المعروفة، ومن ثم أبو الحارث رجل الظل الناعم كما أسميه والذي لا يتعب من عدّ شدّات الدولارات ويزعجه أن يتسلم حصته المالية بالدينار العراقي، لأن البرلمان أبو صابرين لا يُقيي مالا له في بغداد كما أخبرني أكثر من مرة.

أطفأت حاسبتي وسهرت مع نماذج السفير بريمر البشرية التي كما يبدو لي وقد جاء بها من الشوارع الخلفية للسياسة والحنانات الإيدولوجية السطحية ومستشفيات الأعصاب الطائفية المحقونة بالكحول المحلية كما يبدو.

الملعون بريمر دسّ الكثير من الموجّهات المهمة لمن يريد أن يتعامل مع هذه الشلل العصابية الطائفية ووضعها في مواجهة الأحداث المحلية في قتال منظور وغير منظور وزرع فيها بذرة العداة بشكل ذكي، واصفاً إياها بطريقة كوميدية كنت أتخيلها بسهولة، لأنني عرفتها بطريقة مباشرة وتعاملت مع معظمها حتى إن الكثيرين منهم كانوا يعتقدونني ذا شأن مهم في الإدارة الأميركية والبتاغون وينادوني بألقاب مثيرة لم ينادني بها أحد من قبل لأنني ببساطة مترجم مع القادة الميدانيين، لكنّ الحظ ساعدني كثيراً والجنرال آلن هو الحظ.

أسماء وشخصيات كثيرة وردت في كتاب السفير بريمر ما زلت أراها وأعرفها غير أن طريقة عرض السفير بريمر لها كانت من داخلها وهذا ما يزيدنا إثارةً وصدقاً وشفقة، كالأجوف ذي الفم العريض العائد بعمامته من قُم والذي يأمل أن يتحول البلد الى حسينية كبيرة ومسلخ لطم ونواح ورايات سود؛ والكردي ذي الرأس المصفح بغترته المعقودة والحالم بجمهورية منفصلة من السراويل العريضة والمعتاد على المكائد والمناورات والذي يصرّح علناً بأنه يكره بغداد والدستور الذي كتبه العمائم السوداء.

هناك الخيار المستهلك المؤجّر من قبل دولة خليجية والذي يتنفس

بصعوبة؛ والطبيب اللعوب المعروف الذي جاب كل مخابرات العالم ليصل الى القصر الجمهوري بطموح رئاسي لا غيره.

أضحكني بريمر حينما وصفه بأنه أقرب الى ظهير معتزل في لعبة كرة القدم منه الى طبيب أعصاب؛ مثله مثل الاقتصادي الطموح الذي خدع الرئيس بوش والبتاغون بوجود أسلحة دمار شامل في العراق، وأفندية البدلات اللماعة الحالمةين بإقليم صحراوي يسهر مع القمر والنجوم والرمال والبق والجرايع.

طويت الكتاب فجراً وأنا أضحك فعلاً لانتباهات السفير ونقده اللاذع لهذه الشلل التي رأت فيه طموحها الأخير بوصفه حاكم احتلال، فعلقت برأسي أشياء ظريفة كثيرة ليس أقلها إن هؤلاء السياسيين كانوا يركضون وراء السفير يطالبون بتثبيت مقادير روايتهم وبغداد تحترق بالهاونات والاغتيالات والتفجيرات وجيش المهدي يواصل إزعاجاته الميدانية في كل لحظة تمر على قوات المارينز.

كان مستر Jeem صائباً في إعارتي لهذه الفكاهة السياسية في العراق؛ فالكتاب تفصيل كوميدي وتراجيدي في آن واحد يصور سابقة أكبر من الكوميديا ومن الخيال السياسي أيضاً؛ فقد ارتسمت صورة كاملة امامي كما لو كنت في فيلم واقعي محض لمخرج شيطان يتعاطى الخيال في أقصى درجاته ليشكل منه الواقع بأكثر صورته إضحاكاً وتمويهاً كما رأته في الكتاب وكما أقرانه مع الواقع الذي أعيشه لحظة بلحظة، ولي فيه مشاهد وصورات كثيرة لم يدونها بريمر بوصفه يتعاطى الحالة من رؤوسها الكبيرة التي تتزاحم في مكتبه على مدار الساعة.

بريمر شيطان من طراز خاص.

واقعي لدرجة إنه يصور لك هؤلاء كأنهم قرود علقوا على نخلة بقيت فيها سعفة واحدة وكلهم يمسك بتلك السعفة المترنحة يميناً ويساراً، فمالوا يميناً ومالوا يساراً حسب هبوب الرياح.

تعبت مع الفجر وأثملتني الصفحات مع الشيفاز اللاذع، وبدأ قلبي يخفق وتضطرب نبضاته كما هي العادة عندي حين أكون مرهقاً.

فتحت في مرات سابقة شرايينه المسدودة لكنها تنغلق بين فترة وأخرى فيحتبس نبضي كثيراً وأتففس بصعوبة ويضيق الهواء في صدري.

قلبي مجهد كثيراً وأحاول أن أقلل ساعات عملي في السفارة بقراءة التقارير وترجمتها وقضاء بعض الوقت في بيت أختي بديعة حيث أجد ريحانة كأنها وردة تتفتح كل يوم فتزيد من كمية عطرها العجيب وأزيد كمية ولهي بذلك العطر الطفولي الحميم الذي أفتقده في أميركا وأي مكان في العالم.

لكن روني في كثير من الأحيان يقلقني بنبأحه.

لا أرتاح لهذا الكلب.

أشعر به ينظر لي بعينين ناريتين وشكله الذئبي يربكني كثيراً.

## السيدة

عاد المطر من جديد وهي تقطع الشارع من دون مظلتها السوداء، مغمورة بشعور الجرح المرّكب العميق الذي يتسع في قلبها كل صباح حينما ترى الحياة واسعة وجميلة لا تريد أن تفقدها بسهولة، فتردد إنها ليست سعيدة، غير إنها كعادة كل يوم تمسح ما علق بها من ملل وترديد السأم ولازمات القهر والفجيرة، بالموسيقى المعلّقة بأذنها في سماعه بحجم حبة الحمص: ياني الموسيقى الجميل الذي يجعلها راقصة في شوارع المطر فتقتحمها رغبة أن تهز شعرها الطويل كالغجريات لكنّ الحجاب العنابي يمنعها ويقتل فيها روح الصباح وأندريه ريو العالق مع كمانه وعازفاته الجميلات على مسرح مكتظ بالتصفيق والجمال الذي لا آخر له.

تتنقل بين الأغنيات بسرعة وحبّة الحمص تنقل لها أصواتاً وأنغاماً مختارة بعناية فتهازها أغنية كاتوشا الروسية بعد إن حفظت ترجمتها لتزيد من مناعتها لسبب لا تدريه كثيراً.

ربما يشرها زي الضابطة التي تُغنى بها الأغنية الكاتوشية حينما تراها وتسمعها في اليوتيوب محتقنة بالفرح وتحفظ ترجمتها بشكل استثنائي:

أيتها الأغنية الساطعة عن الصبية العذراء

طيري الى حدود الشمس مثل طائر

الى الجندي البعيد عند الحدود  
من كاتوشا أو صلي السلام  
لعله يفكر بالعدراء القروية  
لعله يسمع أغنية كاتوشا

دمعت عيناها بعد إن أعادت خلجات الصبية كاتوشا مرتين راقصة  
مع موسيقى لم تهدأ على مدار الأشواق ولا تعرف هل إن رسائلها  
وصلت الى حبيبها الجندي الذي يقاتل على الحدود.

أعادت بيتاع الخواتم الفيروزية مرتين.. فيروز تسحرني لكنها سرعان  
ما تنتهي ويبقى صداها خفيفاً ثم يتلاشى.. الأشياء الجميلة تتبخر  
كالسعادة المارة وتذوي كالضوء المنطفيء.

تفتح الموسيقى المختلطة في أذنها صباحاً جديداً على أرصفة  
قصيرة متفادية الكثيرين الذين يحقونها بأكتافهم، وتسير بإحساس لا  
يتخلى عنها بأن شيئاً ما ينقصها فلم تستطع تجاوز ونسيان عادة تلمس  
جسدها بلا شعور منها، وفي سرها تحسد فتيات الدائرة اللواتي ليس  
لهنّ مثل عاداتها الإيجابية التي عادت بها من جونية مع الخال. لكنها  
تمضي مغمورة بصباها فلا تملك غيره في زحمة الشارع وأبعد من ذلك  
في الحياة التي تلاحقها بطريقة عشوائية.

تؤجل قصائد رابعة العدوية وناياتها السحرية.

معلمي في المعهد ينبهني: كانت رابعة العدوية يتيمة لكنها انتصرت  
على عيوب الحياة بالنأي والغناء والقصيدة.

تمضي مع موسيقى شبابية طافحة بالحب، ثم تعود الى صفير النايات

التي تحتشد في موبيلها قصائد صوفية مغناة، لكن الوجوه المتعاقبة عليها تتبعها وتبدد فيها جمال المطر فتغير مجرى الإيقاعات في حقيبتها المرابطة على كتفها.. إنه أنا وسأبقى ولن أتغلى عني.

### صفيير النيات . الصفيير الثاني عشر

1 - تعيد دس حبة الحمص في أذنها موصولة بالموبایل المختفي في حقيبتها

2- وتنتشي لروح الناي الطائر في روح مولانا جلال الدين الرومي

3- للناي صباحاته الرومية الهادئة وكلماته الربانية العجيبة.

4- السم والترياق ايها الباحث عن الأصل أشدو للسعداء وأنوح للبائسين

5- أنين نار لا هواء - لا تجزع من جرحك

6- مولانا الرومي يشكو من أنين الناي ويبحث عن جذوره المقطوعة.

7- الناي كان غصناً فصار قصبه مثقوبة لهذا يبكي على شجرته المفقودة،

8- وأنت تُبكي السلاطين وترقصهم متى ما تشاء سيدي الفارابي.

9- الناي روح مفتوحة بين السماء والأرض.

10- وأنا.. من سرق نايب العظيم؟

11 - تسمع هذا دائماً صادحاً من ثقبٍ صغير متموجاً كسحابة خضراء

تطوف حولها

12 - فتأخذها لحظة الصباح نحو حزن معرّش فيها ليفتح أبوابه بقوة

لكنها تماسك

13 - فالصباح أكثر رقة والوقت يتهادى بمطره في روحها الماشية الى

كل مكان.

14 - تحلّق في الهواء البارد وتتخاطف الوجوه أمامها بلا ملامح ثابتة،  
15 - كثيرة هي الوجوه المتخاطفة التي تتوقف حين تمر على الرصيف  
اليومي.

16 - تلتفت اليها كما لو تنصت للصفير الحي المنبعث من حقيبتها  
17 - ومولانا الرومي في أذنها يطير ما بعد الغيوم بجناح واحد والسلطين  
يرقصون حول الفارابي في نيات الوجد المتصوّف.  
18 - فتخطو طائرة كعصفورة بين حشود الصباح البلهاء.  
19 - لكنها تدرك ان مولانا الرومي ليست له رائحة سوى رائحة الناي ولا  
يخبى خمرة في لحيته البيضاء.

20 - إنها رائحتي

21 - فتلوذ بين الأرصفة هاربة من الآخرين.

وكل صباح تصل متأخرة بعض الوقت.

توقف النيات الصافرة والموسيقى والأصوات فيصمت الكون  
السحري المختلط في أذنها ويعود ضجيج الحياة الناشز من جديد.

تعانقها سيدة الإدارة وتحتفي بها كما لو تراها لأول مرة وهي لا تكف  
عن النظر الى وجهها الصغير المدفون نصفه في حجاب رمادي لتبدو  
أكثر نعومة بالرغم من مسحة الكآبة التي تظهر عليها.

تتنفسها السيدة بصمت كأنها قنينة عطر مفتوحة:

- رائحتك أجمل هذا الصباح.

تتهي السيدة وضع كوبين من الشاي الساخن المهيلّ وتفتح طبق  
القيمر الغاطس بالحليب وتوزع الصمون الحار على منضدة صغيرة



بينهما متملية وجه فئاتها الطفولي وهي ترتشف شايتها المهيتل بشفتين  
ناعمتين تحمران إثر كل رشفة.

- لا يليق بك الحزن. أنتِ صغيرة والحياة مشوارها طويل يا بنتي.  
تمضي الفتاة بهدونها بعينين زيتونيتين تتلامعان في وجه المرأة التي  
تساءلت:

- كيف صحة الوالدة؟

- الحمد لله أفضل.

بدا للفتاة ان المرأة ستعيد عليها ما في بالها كلما وجدت الفرصة  
مؤاتية على مائدة الإفطار السريعة، وكانت مهياة كما في كل مرة؛ غير  
أن دخولاً فوضوياً من امرأة ذات ماكياج صارخ أربك الصمت القصير  
بينهما.

اعتذرت المرأة عن تأخرها بسبب ازدحامات الشوارع وصاحت  
بصوت منقر:

- الشوارع مقطوعة.. ميليشيات مستهتره وسيطرات عسكرية وفوضى  
وقرف.. وطن بلا أخلاق.

لم تقل مديرة الإدارة شيئاً فتجنبتها بأن هزت رأسها لكن امرأة  
الماكياج وجّهت الكلام للفتاة بصوت منخفض:

- صباح الريحان..!

اغلقت الباب وانسحبت فتركت وراءها صمماً أربك السيدة التي  
قالت للفتاة بشيء من القصدية:

- سراب لا تستحي كثيراً.. مريضة نفسياً.

ثم قالت للفتاة الصامته لتبعد شبح المرأة الطارئة:

- رأكِ مرتين فأعجب بك.

ضغطت على أصابعها وهي منكمشة بينما واصلت المرأة:

- فكري بمستقبلك.. عادل شاب يرضيك بأخلاقه وسمعته ووظيفته.

وجدت الكلام محشوراً في صدرها لا تعرف كيف تخرجه حتى اللقمة توقفت في فمها الصغير.

- أظن خالك لا يمانع.

- ها..!

- خالك يريد مصلحتك أكيد.. وعادل ضابط له مستقبل إن شاء الله.

وواصلت:

- ماذا قلت!

تشبك أصابعها وتعض شفتها السفلى وتصمت غير أن السيدة تتحدث بما يشبه الحكمة:

- الزواج ستر للبنت وانتِ تعرفين هذا الظرف الوسخ الذي نمر به.

- صحيح.

دخلت امرأة الماكياج من جديد وهي تقدم ملفاً معيناً.

وضعتته على منضدة المرأة التي تتكلس عليها ملفات وفايلات كثيرة

متراكمة، وقبل أن تخرج شزرت الفتاة بنظرة سريعة وابتسامة مصنوعة على وجهها.

عادت السيدة لتقول:

- مو طبيعية.. عانس وحاقدة.

وكما لو وجدت فرصة لإيصال بعض ما في قلبها:

- فاتتها فرص كثيرة للزواج.

تنفست الفتاة بصعوبة وهي تصغي لسيدة الإدارة:

- كل فتاة قدرها الزواج يا بنتي.

ردت المرأة على تلفون داخلي وهي تهمهم لكنها عادت تقول للفتاة:

- الفرص الجيدة لا تتوفر دائما.. فكري براحتك.

شعرت الفتاة بثقل الجملة الأخيرة فنهضت مخنوقة الى حد ما

وشكرت سيدتها الإدارية وتركت ابتسامة ضعيفة على وجهها وخرجت.

## الصدّامات

- 1- أشياء كثيرة لم تكن في الحسبان فكانت أكبر من ذكائي الذي تدرّبت عليه في سنوات هجرتي وضياعي.
- 2- ولم يكن السفير بريمر حاذقاً بما يكفي ليعرف النوع البشري الذي أغرق به البلد المتحول من خنثى الى ذكر أو بالعكس فاكتفى بعرض العمائم الملفوفة والسراويل العريضة والكوفيات المرقطة والبדلات الأجنبية من دون أن يخترق القاع أو يعرف مديات رجال الظل الذين يمشون كعصي الأدلاء في زواريب السلطة.
- 3- صدمني الأربعيني العنيد الذي كنت أتصوره فقط رجلَ مال وانتهازي ظرف وهلفوتاً معمماً ولم أدرك إنه ماهر بصنع الفخاخ المُحكّمة التي أخرجتني وزادت من انقباض قلبي وروحي وأغلقت منافذ التنفس في شراييني.
- 4- كما صدمتني زهور التي منحتني خلوة جبارة فقطفت زهرة ناعمة من صدرها البض، ثم أدخلتني في متاهات لا قبيل لي على تحملها فقلبي لا يتحمل الإجهاد أكثر من اللازم وتنفسي الثقيل يشلُّ صدري أحياناً.
- 5- أوقعتني في لعبة خطيرة أظنها مبتكرة وفريدة وقاتلة أيضاً، رسمها

المعجم، فلذتُ في بيت بديعة أوقاتاً طويلة منسجماً مع دفء البيت وحكايات أختي التي لا تكف عن تذكيري بالقرية وأهلها وطبيعتها وتراثها وشعبيتها وجمالها.

6- بديعة صدمتني بوزنها الثقيل ووفائها لذاتها وأصلها وفصلها والتشبث بقيمها القروية التي غادرتها منذ ثلاثين سنة؛

7- لكنّ صدمة ريحانة هي الأكثر مضاءً في قلبي وروحي.

8- ريحانة التي لا تتكرر بعذوبتها وطفولتها ورائحتها الثمينة وهذوئها الصارخ وصمتها الأخير الذي يعذبني.

9- كاثرين كزست بي أنّ النسب كذبة حمقاء وهي من ابتكار البشر التعساء الذين شوهمهم الدين، فكانت تغتير العشاق كلباسها الداخلي حتى استقرت على جورج الأحمر وتخلّت عني ببساطة.

10- أظنني كنت لباساً داخلياً بين فخذيهما وقتاً قصيراً لهذا خرجتُ منها برائحة بول ومني ولطخات الدورة الشهرية المقززة.

11- ريحانة غابة محصورة في وردة تنث رائحةً وعتراً وأنوثةً ومسكاً لصيبة لم تكن تعرف طعمها حتى اكتشفته لها في السفر حينما وجدتها شهيةً وأنا الجائع لطعمها الاستثنائي.

12- تتعد عني كثيراً بعدما اكتشفتُ أنوثتها المضاعة في جونية وبعدهما عرفتُ أنّ السميرنوف أشعل خيالها الى أقصى مدى وزاد في عمرها الصغير وجعلها أنثى ووطنٌ فيها أنوثة الصبايا الحالمات بالحياة والحرية والجمال.

1.1- ربما كانت تريد أن تنسى لكنها لا تقدر، فنسيان هذا الأمر شيء مستحيل وبعيد المنال.

14 - وربما كنت أنا أريد أن أنسى أيضاً لكنني لا أستطيع وأنا في مراجعة نفسي أمام محنة حُلْمَة صبيّة غيرها حينما قضمتها في شهوة خارقة على غير العادة.

15 - ريحانة لم تتخلّ عن أمل عودة والدها المخطوف لكنها مرتاعة من فقدان الأمل بأن تعود ريحانة الأولى التي لم يمسهها بشر وتبقى بطراوة روحها وشفافية حياتها البسيطة،

16 - وأنا أبحث عن الحب المفقود في جسدها الفاتن ورائحتها السماوية الملائكية

17 - التي لا يمكن أن تكون في أنثى غيرها.

18 - وحينما كنت أقول لها: أنت حلوة

19 - كان لون عينيها يخضّرُ وتمشي فيه موجات من أوراق الزيتون حتى تستقر بلون أزرق أو أخضر أو أبيض أو لا تستقر فتختلط الألوان ببعضها كأصباغ الرسام على لوحة في لونٍ يعجز عن خلقه.

20 - عندما كنت أقول لها أنت صبيتي وأحبك ولا داعي لحجزنا في نسب قديم،

21 - كان وجهها الصغير يتورد،

22 - لكنه يتأطر بخوف فطري،

23 - ثم يتحول الى لون وردي بشفتين ناعمتين تفتحان عن ابتسامة ساحرة

24 - تغري بي روح الرجل الشهواني الذي يبحث عن عشق متأخر في جسد هذه الريحانة الاستثنائية. وهذه تفاصيل ستأتي بالتدرّج ما ظهر منها وما بطن.

## اللذة

مطرٌ خفيف متقطع غسل الشوارع والأرصفة والسطوح والأشجار العالية فزادها اخضراراً، وانفجار يخترق المطر ويبدد سطوته الناعمة وينشر صوتاً ضخماً ظل يتردد بشكل موجات متعاقبة مخلفاً بعد لحظات أكثر من عمود دخان من الجانب الآخر للشارع، خلف الفنادق السياحية الكبيرة، وبالرغم من الارتجاجات المفاجئة نتيجة للعصف غير البعيد إلا أنه واصل سيره في شارع أبو نؤاس ولو على نحوٍ أبطأ، ماداً رأسه ليرى انتشار الدخان الطالع في المسافة القريبة على شماله؛ من جهة شارع السعدون؛ في الوقت الذي تشبثت به الفتاة وهي تلقي بنفسها عليه حاشرة جسدها الصغير بين المقود وجسده مختضة من مفاجأة الصوت المنفجر الذي داهم شرودها.

- لا تخافي.. مرّت بسلام.

وكان يتصنع ضحكة قصيرة وهو يلم جسدها المتكور في حضنه ويمسح على ظهرها ويمرر أصابعه على رأسها المتكور تحت الحجاب.

رفعت رأسها وشعرت بخجل طفيف يجتاحها.

اعتدلت ورجعت الى مقعدها وهي تتشمم روائح بارود ودخان ولم

تستطع إخفاء ارتباكها، فداهمتها رغبة العودة الى البيت فكل شيء أصبح دخاناً أسود تسرّب الى جسدها وقلبها.

ظل وقتاً يمسك يدها ويطمئننها بأن كل شيء عاد الى طبيعته، لكنها ظلت وجلة شاعرة بفوضى كبيرة أمامها لاسيما حين بدأت سيارات الإسعاف تواصل زخمها بالزعيق المتواصل، وتبويق السيارات الأخرى المتزاحمة لم ينقطع بشكل جعل من المكان هلعاً حقيقياً، وجلبة الناس المتراكضين من كل اتجاه نفخت فيها حجم الخوف والقلق.

- نرجع للبيت.. أخاف.

في المطعم المعلق ما تزال رجفة الانفجار تهز جسدها، لكنه ظل يشيع فيها الهدوء لامتاً جسدها بين ذراعيه مستشقاً رائحتها بعمق، طارداً لحظات الانفجار المباغته التي استولت على الشارع والمكان.

استكانت قليلاً وفلّ جسدها من يديه القويتين.

سوّت هنداها بإحساس أنثوي سريع من أن الكثير من ثيابها؛ أو جسدها؛ زحف في غير مواضعه، لكنها هدأت مترقبة لحظته التي بدأت تتعرف عليها من عينيه اللتين لا تفارقان شفيتها ووجهها وصدرها المضغوط، كما تعرف إن هذا المطعم الذي يقع في الطابق الأخير من فندق العاصمة الكبير بإطلالته على دجلة هو مكان البداية الذي شهد ولادة شفيتها بطعم غريب في كايينة صغيرة مهياة للخلوات؛ يزيد من خلوة المكان البقشيش السخي الذي يدفعه الخال للندل المتخاطفين كل الوقت.

طلب المينيو وقدمه الى فتاته وهي ما تزال مختلجة الأنفاس.. لكنه أوصى على نبيذ أولاً.



## نايات الجسد . الناي الثالث

- 1 - ما تزال تتذكر طعام النبيذ يتسرب الى لسانها لاذعاً،
- 2 - لكنها مرارة أولى تركت فيها لذة اللقاء القديم
- 3 - وفي كل مرة يتجدد طعام المرارة في لسانها باستسلام لا تعرف سرّه
- 4 - وهي تترك يدها ممدودة كعصفورة مخدّرة الحواس بعطر رجل،
- 5 - وتغمر نهديها برودة عجيبة تتسرب الى جسدها مغمضة العينين،
- 6 - وأصابع ماهرة لا تعرف من أين ينبعث سرّها وسحرها،
- 7 - وتتحسس مواضع اللذة والخطر الفطري في جسدها.
- 8 - تحت فستانها البيروتي الذي اختارته من شارع الحمرا ذات يوم لا تريد أن تتذكره .
- 9 - لم يتغير شيء من المكان سوى وجوه النذل الشباب بين الكابينات شبه المغلقة .
- 10 - يتحسسون المكان بطريقتهم الفضولية بين الكابينات التي تخفي بين جدرانها الفورمايكا عشاقاً صغاراً وكباراً،
- 11 - يسرقون من الوقت سعاداتٍ صغيرة قبل وبعد الانفجارات في هذا المكان الذي يعيد خلق دجلة من الأعلى .
- 12 - مثلما ينشر الوقت السعيد الذي يُسرق بعيداً عن ميليشيات المدينة .

## نايات الجسد . الناي الرابع

- 1 - very nice.. لم أشم مثل هذا في جسد بنت .. ال smeel عندك مثير .
- 2 - ينتشلها من ضوضاء رأسها فتعيد عينها اليه،
- 3 - ويدها محبوسة بيده والأخرى على كتفها تزيد من التصاقها به .

4- أنتِ جورية.

5- أنتِ شجرةٍ مسكٍ أو زعفرانٍ.. أنتِ زهرةٍ استوائيةٍ.. ربما وردةٍ تبت  
على البحر الكاربيي.

6- أو ووه.. زهرةٍ أفريقيًا البيضاء.. توليةٍ ساحرة.

بعد أربع سنوات تعرف أن صدرها نضج على يده وجسدها استكان  
على عطر الرجل فيه، ولم تستطع يوماً أن تقاوم ضغط فحولته الغريبة  
مثلما حدث في جونية ذات ليلة انتظم فيها اللون الأحمر كلياً وأغرق  
الألوان كلها، حينما تخدرت أطرافها وكانت ترتمي بأحضانة آمنة ويطرد  
عنها ذكريات بغداد وغياب مفاجئ لأب في فوضى بلاد لم تستوعبها  
كثيراً حتى عرفت أن الغياب هو الألم الأخير.

#### نايات الجسد . الناي الخامس

1- الأنوثة لا عنوان لها.. نحن نبتكر العناوين ونصدقها.. يكررها دائماً.  
3- أنت ملحد يا خال.

4- الإلحاد رؤية لدين لم يظهر كلياً بعد يا صغيرتي.

5- امي تقول أنتِ خالي.

6- أمك محشورة في ثوب قديم لا يتغير.

7- هو هذا ثوبها الوحيد.

8- غيري ثوبك.. أنتِ جيلٍ آخر. تصرفي كأنثى ولجسدك حق عليك  
وانسي قصة النسب التافهة.

9- انت ملحد أيها الخال الظريف ههههههه

تشدّ يدها بيده ثملة وحائرة فيلصقها أكثر وتجتاحها حمى الخال

التي تتحول الى عَرَق يبلى صدرها وبطنها ويتسرب تحتها وتنسى صورة  
الأب الوهمية به، تلك التي تشبه بكاراة مفقودة في جسد دمية صامته.

- آه..

يرتشفها لسان النيذ كدواء وهي تتلوى مغمضة العينين سابحة في  
فضاء أخذ يتسع ويتسع فتبكي بلسان مخدر وجسد يتفكك تحت صلابة  
الأصابع الماهرة.

- آه.. أبي..

## السلالة

- يدعوني الى مطاعم فاخرة.. بدأتُ أتضايق من هذا.

- خالك يكرمك ويحبك.

- خالي أمريكي متهور.. مغرور.. ملحد.

- ممممم

تمتم المرأة مستغفرة وهي تنظر الى إبتها التي تسرح شعرها بالمشط الأبيض أمام وهج المدفأة، ومن حولهما عتمة الليل ساكنة بانطفاء الكهرباء وأصوات الخارج خافتة، بينما يملأ المكانَ عطرٌ بارد يفتح بالتدرج ويستثير الأم لكن بلا ذكرى محددة يمكن أن تعود اليها.

### صفير الرائحة . الصفير الخامس

1- أحياناً أنسى أين أضعه لكنني أعثر عليه من رائحة تقودني اليه.. قالت المرأة

2- قالت البنت: لا أعرف أمشط شعري بغيره.. أشعر بالراحة.

3- يوم كنتُ شابة لم أفارقه.. عمره طويل هذا المشط العجيب.

4- تورّد وجه الفتاة تحت وهج المدفأة وهي تتساءل: هل تذكرين من

اشتراه لك..؟

- 5- لم يشتره أحد.. ورثته من جدتك يرحمها الله.
- 6- وجدّتي كيف حصلت عليه؟
- 7- ورثته من أمها وأمها من جدتها.. وهكذا.. انه مشط العائلة.
- 8- يعني نحن من سلالة هذا المشط..!
- 9 - نحن من سلالة الرائحة الطيبة فيه. كل نساء الأسرة تعطرن بهذا المشط حتى وصل اليك.
- 10 - توقفت الفتاة عن نسل شعرها الطويل وأخرجت سؤالاً حبيساً من صدرها:
- 11- من أين تأتي رائحته الطيبة..؟
- 12- عَكَسَ وهج المدفأة وجه الأم التي همست: من روحه..!
- 13 - فتحت الفتاة عينيها: ما قصة هذه الروح؟ من أين له كل هذه الرائحة الغربية؟
- 14 - بعمر ككنت أسأل جدتك وكانت تحكي لي قصصاً كثيرة.
- 15 - كانت الفتاة قد توقفت عن تسريح شعرها وقبضت على المشط كمن تراه لأول مرة: ليش لونه أبيض؟
- 16 - أذنته من أنفها وتشممت عطراً مخلوطاً من كل شيء؛
- 17 - عطر وراثي لا يغيب عن ذاكرتها أبداً.
- 18 - كان والدك يرحم الله لا يتركني ليلة من دون أن يشم شعري
- 19 - هههه.. ينام مثل الطفل وشعري على وجهه.
- 20 - وَمَضَتْ عينا الفتاة برقائق دمع واشتعل ورق الزيتون فيهما: هل كان يعرف سبب رائحته؟
- 21 - لا يعرف سرّه.. لم يسأل كثيراً.

- 22- وهل فيه سر..؟
- 23- فيه.. لكني لا أعرفه سوى معرفتي بأنه روح.
- 24- قرّبتة الى ضوء المدفأة وأعادت فحصه من جديد.
- 25- مددته على كفها كسلحفاة صغيرة وتأمّلت الرسومات التي تتغير على ظهره الصلب كل صباح ثم أرجعته الى أنفها وهي تنظر الى المرأة.
- 26- حافظي عليه انت الحلوة به.
- 27- جدتك كانت تقول إن للمشط قصة وأن لرائحته قصة وإنه روح عطرة تنتقل بين نساء أسرتنا.
- 28- ماتت جدتك مثلما ماتت جدتي وجدة جدتك وهذا المشط سر أسرنا نحن النساء.
- 29- قالت الفتاة: أشعر به يغذي جسدي وليس شعري فقط.
- 30- عندما نذهب الى القرية سنجد عجائز وقصصاً كثيرة بشأن المشط وستعرف على سرّه.
- 31- وكل هذا العمر وأنت لا تعرفين سره؟
- 32- لم أهتم.. لم أنتبه كثيراً له. حسبته من قصص الماضي يوم كنا نرث من جداتنا وأمهاتنا مثل هذه الأشياء البسيطة.
- 33- تصفن الفتاة لحظات وهي تمسّد شعرها وتتساءل: متى نذهب للقرية؟
- 34- خالها كان يمسّد شعرها وأنفاسه تلهث قريبة من عنقها،
- 35- وربما اكتشف ذلك العطر الغريب ذات يوم
- 36- عندما كان ينظر الى جسدها ويتشممه مثل الكلب في خلوة البيت أثناء خطف الطفل عمّار ابن جارهم الذكي.

37- «خالي رعي الشخصي»

38- أم عادل قالت لها هذه رائحة مسك قديم نادر،

39- والموظفات يتشممن شعرها بعطور ومسميات لا تعرف بعضها.

40- أنت أنثى من رائحة أنت الحلوة الوحيدة بيننا.

41- أنت الفتاة التي عطرته الملائكة

42- بالمسك والياسمين والجوري

43- والعود الأبيض والأحمر

44- والرازقي والزعفران

45- أنت مَغَصْرَة ورود يا بنت.

46- هذا عطر ملائكة.

47- لكنّ الست سراب قالتها بوضوح:

48- أنتِ الرائحة كلها.. أنتِ مغرية ومثيرة يا بنت.

تري المرأة ابنتها في لحظة سريعة حينما ينعكس عليها وهج المدفأة  
ليزداد وجهها الأسمر بضاضةً ويشتل فيه طيفٌ بارق خفيف.

1- ملامح مشتركة بينها وبين الراحل.

2- نفس السُمرّة ولون العيون واستدارة الوجه.

3- في الصوت نداءً مشترك بعيد لكنها ناعمة مثل قشرة الطماطة.

- كبرتِ.

تواصل الفتاة تسريح شعرها الطويل:

- اعتني بصحتك ماما. السكري أضعف جسديك. افحصي الضغط

كل يوم.

تأفت المرأة وقالت بصوت لم يفارقه الحزن منذ أربع سنوات:

- ما بقيت لي نفسٌ بهذه الحياة لولاك.

ثم أضافت لتعيد سيرة لا تريدها الفتاة:

- وأنت كبرتِ.. ومن في عمرك الآن عندها طفل أو طفلان.

أنارت عودة الكهرباء المفاجئة وجهي المرأة وفتاتها التي نهضت

تفتح أزرار الكهرباء في الصالة والمطبخ وغرفة نومها.

- أما زالت أم عادل تريدك لولدها الضابط؟

- اهتمي بصحتك وانسي هذا الموضوع.

- الفرص لا تأتي للبنات دائماً.. استشيرني خالك يا بنتي.

تذهب الى غرفتها وتغلقها خلفها وتقف أمام المرأة. تطالع وجهها

الأسمر الصغير المتفتح بأشياء لا تفهمها كثيراً، فترى مسحة غامضة لا

تريد أن تدقق فيها كثيراً وهي تنهي تسريحة شعرها بعصبية بينما يطالعها

روني من خلف النافذة لاوياً رأسه.

تأمل جسدها وتستدير لترى وركيها ثم تعود تمسك خصرها كممثلة

تتدرب على دورها محاولة أن تشم نفسها بطريقة لف شعرها المسترسل

على وجهها فتغمرها رائحة تتغير في كل مرة وتستشيرني فيها كالسحر.

تتحسس صدرها وترفعه قليلاً ويحذر تفتح أزرار ثوبها وتمد يدها

كما لو تتلمس آثار الظهيرة في مطعم الفندق الكبير وربما أبعد من ذلك.

ربما في بيروت التي سحرتها أول الأمر؛ البحر المفتوح والهواء



النقي؛ لكن جونية العارية فتحت فيها جرح الزمن الطويل مع الخال الذي يطل عليها كظل أسود في هذه اللحظة من المرأة الواقفة معها ويطوقها من الخلف ويضع شفثيه على رقبتها ويسحبها الى صدره ماسكاً نهدين ناعمين خرجا من الحمام قبل وقت قصير وما يزال بخار الماء يرطبهما. تبصق عليه في المرأة فيضغط عليها أكثر، وينبح روني بطريقة متواصلة.

### نابات الجسد . الناي السادس

- 1 - أنتِ الحلوة.. تغيرت الحياة وما عدت خالك.. أنا مش يور أنكلي.. هذه أمور قديمة.. آي لايك يو بيبي ريحانة.
- 2- لكنني أحبك كخالتي وأبي.
- 3- أعشق يور smell.. أنتِ أنثى الجمال.
- 4- صرتُ أخافك.
- 5- سأخذك في سفرة to اسطنبول فهي لا تشبه بيروت.
- 6- ستكونين عروس البوسفور.

يحضنها من الخلف فتشعر بأن أشياء كثيرة تنغرز فيها وخافت من أن يتفكك جسدها الضعيف في لحظة الخال المداهمة في المرأة فاستجمعت قوة غريبة في أوصالها المتناثرة في لحظات لتبعده بقوة.. اخرج مني يا شرير..

نازعت نفسها بطريقة منفعة وتخلصت من شبح كان يطوقها بقوة ولحقت من أن تجمع ثيابها على جسدها غير إنها أمسكت المشط الصلب ورمت وجهه بالمرأة.

لم تتخيل انها قادرة أن تفعله مع الخال.

- 1- لكنها فعلته في المرأة
- 2- وجسدها يرتجف،
- 3- وهي تلتهم على نفسها
- 4- حينما تحطمت المرأة وتناثرت شظاياها،
- 5- ولم تستطع أن تقبض على صرختها الصغيرة التي فلتت منها
- 6- .. أبي ..

انساب جرح صغير من وجهها بخيط دم رفيع وتبعثرت الشظايا في كل مكان، لكنها وجدت نفسها بين ذراعي أمها التي هرعت شائطة.. اسم الله.. ماذا بك؟ راح الشر بنتي.

تمسح عن وجهها بعض قطرات الدم وتضمها الى صدرها.

اسم الله عليك.. بسم الله الرحمن الرحيم.. راح الشر.

- ليس هذا خالي.. نَحَدَعْنَا هذا الغريب..!

لا تعرف إن كان صوتها قد خرج من جفاف حلقها أم لا، لكنها عرفت إن روني هرع الى الغرفة نابحاً بصوت عالٍ، دافعاً أمها وطوقها بجسده الضخم كما لو يحميها من خطر جديد سيقع.

## العانس

- 1- يمضي الوقت وأنا مخنوقة ومصدومة.
  - 2- لا تكفي رائحتي أن تجعلني سعيدة ومغرورة على مدار اليوم؟
  - 3- فغياب أبي أثقل روحي.
  - 4- أحلم به دائماً.
  - 5- يأتيني كل ليلة ودموعه تملأ وجهه.
  - 6- يناديني بلا صوت ويضمني ويجهش.
  - 7- على وجهه غبار
  - 8- وعلى جسده غبار
  - 9- وعلى ثيابه غبار.
  - 10- وحينما أزيح الغبار عن وجهه تظهر بقع دم متخشرة كثيرة
  - 11- لكنه يبسم ويبكي أيضاً
  - 12- فيترك بين يديّ سلةً من الدموع.
- يقول لي أشياء كثيرة لا أفهمها ثم يعطيني نايًا من عظم طويل، لكنني أتردد.. أبي أخاف العزف بناي من عظام غير أنه يعانقني ويشمني ثم يمضي معفراً بالكثير من التراب ويشير الى جهة ما.. وحينما ألتفت يختفي.

يترك رائحة دم وييدي عظمة طويلة مثقوبة بطريقة عشوائية عدة ثقوب مشوهة فأصبحت نايماً لكنني أخاف أن أعزف به. وكلما أتفقد ناياتي بعد اليقظة لا أجد ناي أبي.

ليس معي غير صورة أب صار في الخيال، وخالٍ غريب، وأم مريضة، ودائرة مشغولة بالفضائيين والنفاق والمهاترات الطائفية والنساء الفيسبوكيات العاشقات على مدار الدوام.

وكلما أريد أن أنهي علاقتي بالدائرة ينتابني جزع الفراغ في البيت مع أمي التي لا تريد أن تنهي حزنها وهي تفقد صحتها وروعها وشبابها وكل شيء بفقدان والدي، وصار المرض إشارة وسبباً أن تذهب للطبيب وتبتلع الدواء وتوزع أوقاتها الحزينة بين حبوب الكلوكوفاج وقياسات الضغط، فالفقدان لا طيب له ولا علاج ولا قياسات ولا أجهزة، وأنا أعرف حجم الحب لوالدي العظيم في قلبها المريض وأعرف ألم مثل هذا الغياب عليها.

كلما أقرر أن أتوارى عن الأنظار وأبدأ من جديد تلجمني الحلوة التي صارت جرحي الشخصي ونكبتني التي أفقدتني نُصرتي وشهيتي للحياة، وأثارت بي شعور الخوف والغربة والقلق، لكنني سأفقد دائرتي التي اعتدت عليها منذ سنة وأفقد أجواء البنات والسيدات وهوسة المكتب والأوامر الكثيرة التي يمارسها المدراء العامون الطائفيون المتعاقبون والضبط الكاذب وصراعات الموظفين القدامى مع الموظفين الجدد التي جاءت بهم الأحزاب بلا شهادات مدرسية ولا كفاءات.

سأفقد أسرار المتزوجات وعلاقاتهنّ الغرامية الفيسبوكية التي تشاع

عنهن بطرق كثيرة، بعضها صحيح وبعضها للفكاهة أو التشهير والتسقيط، كما حدث مع تغريد الأربعينية التي شاعت عنها علاقة فيسبوكية غرامية مع رجل وصرفت أوقاتاً طويلة في الغزل معه ناسية الأضيابير المكدسة على مكتبها؛ وحينما التقتة خارج الدائرة وجدته حَماها الذي كان يعشقها سرّاً؛ فخيّرهما بين الفضيحة والطلاق من أخيه أو تستسلم له ولا نعرف ماذا كان خيارها، غير إن سوائف الموظفين كثيرة حولها لا تتشابه ولا تتطابق.

موظفات تضخيم الفضائح كثيرات في دائرتنا.

مرة قالت السبّ سراب: لقد اختارته فأصبح لديها رجلان حتى تشبع

هههههههه

قصة المتصابي أبو سرمد الذي أرّفته سيدة فيسبوكية شهريّن متواصلين وحينما التقاها في حديقة الزوراء وجدها زوجته التي جاءت بأخوتها الثلاثة شهوداً على خيانتة فبصقت في وجهه وبهذلتة وأهانته ومن ثم طلقته وأخذت منه الغائب والحاضر.

حكاية الموظف أبو زينة طريفة ومخجلة أيضاً تداولها الموظفون بسخرية كنكتة وقتاً طويلاً حتى اضطر الرجل أن ينتقل الى دائرة أخرى. أبو زينة ضرب موعداً مع فتاة فيسبوكية في شارع فلسطين فوجد صديقه اليومي أبو أيمن بانتظاره. كان مقلباً سخيفاً وطريفاً ومخجلاً له.

أمور سطحية وظريفة تجري بيننا سرّاً وعلانية لا أريد مفارقتها على أية حال؛ فالوحدة تخيفني وناياتي الكثيرة تنن طول الليل معي وأمي تكثر من الصلاة وتبكي أبي بصمت.

وحده روني يلعب معي ويتأملني حينما أرقص لأطلق روحي  
المحبوسة في ناي العظام الذي أهده لي أبي في واحد من أحلامي  
الكثيرة به.. هذا الناي الذي يظهر ويختفي من دون سبب لكنه ارتبط  
بأحلامي وكوايسني وبعثني عن أبي.

خالتي الأمريكي جرح روحي وجسدي ومصيري وما زلت أنتظر  
وأكابد مجهول الحياة من أجل أمي التي لا تتحمل صدمة قاسية  
أخرى مني.

كنت أحكي لها كل ما يجري في الدائرة وكانت تغضب من بعض  
الحكايات او تضحك للقليل منها وظلت تحذرنني من السيدات الأكبر  
سناً مني، ومن بعض الصبايا الفالطات الخارجات عن الطوق، ومن  
محجبات الزمن الجديد، وأن أسرها بكل ما يتعلق بي لتوجيهي كما  
تقول، فأمي معلمة قديمة وإن تقاعدت مضطرة بسبب فقد والدي لكن  
لها خبرة الدوائر ومشاكلها المتداخلة وأسراها ومصائدها الخفية.

### صغير الجسد . الصغير الأول

- 1- خالي مارك كبر قاعدة الحسب والنسب فكرهت نفسي،
- 2- وموظفو الدائرة يغازلوني بجرأة ويتشممون رائحتي ويتعقبون أثرني.
- 3- يتصنعون طرقاً مختلفة للحديث معي،
- 4- وهم يشمّون الفضاء المحيط بي أكثر مما يتكلمون معي
- 5- أكره بعضهم، أولئك الذين ينظرون الى عينيّ الملونتين وصدري  
الصغير وقامتي الطويلة ومؤخرتي أيضاً.
- 6- لكن الست سراب كانت أكثر جرأة منهم!!

مرة قالت عنها موظفة قديمة بسخرية: الست سراب رجل بستان  
امرأة ههههه

وأسمع من صديقات القسم: عانس.. مريضة.. قحبة.. شيزوفرينيا.

لست مهتمة كثيراً بهذا ولا تعينني هذه المرأة المتوترة على مدار  
النهار، وكل الصفات التي يسمونها بها لا أحسب لها حساباً ولا أتقرب  
من معانيها، لأنني ببساطة أحجل أن تكون المرأة قحبة وعلى غير  
فطرتها، فأشعر بالتباس المعاني والمفاهيم الأخلاقية، لكنني أحجل مني  
وأصرف بعفوية وأحس نفسي فتاة غير قابلة للوصايا بالرغم من جرحي  
العنيف وانكسار روحي وهشاشة جسدي.

أنظر للست سراب بعطف وتتابني نوبات شفقة على امرأة مثلها  
تضع نفسها موضع السخرية والشك والكلام غير اللائق فأتحاشاها قدر  
الإمكان لاسيما حين تضغط عليّ أم عادل:

- سُمعتها سيئة وأنت بنت صغيرة.. لا تعرّضي نفسك للقليل والقال.  
لن تكون الست سراب أسوأ من مارك.  
إنها امرأة مثلي بالنتيجة.

كنت أفكر هكذا محاولة أن أبسط الحياة ما دمتُ في وظيفة مؤقتة  
ومعي كثيرات وكثيرون لكل واحدٍ منهم طريقته في الحياة وظروفه  
المختلفة.

أعرف طبعها الثرثار والمبالغة في تصويرها لكل شيء، ومن باب  
شخصي جداً كأنثى لها غريزة فضولية وحب الاستطلاع أستجلي على

نحو ما رغبة غامضة وتوددأ لها بالشكل الذي أفهمه بعفويتي عن عانس  
أجدها وحيدة ومسكينة ينالها الكلام حتى بلا مناسبات.. مريضة..  
ثرثارة. احذري منها.. شاذة.. لكن لا أدري لِمَ أحياناً اضطر لتلبية دعوة  
الفطور في غرفتها المليئة بالدخان بين فترة وأخرى.

ربما هناك شيء ما خفي في داخلي لمعرفة هذا الكائن أتوخي من  
ورائها اكتشاف اللون الآخر الذي أسمع وأقرأ عنه أحياناً في صفحات  
الفيسبوك والمواقع الشبائية المتنوعة.

ربما نظراتها المستمرة الغامضة لي تجعلها في بالي دائماً.

أكثر من مرة قالت لي وهي تضحك: أنتِ الحلوة.. رائحة جسدك تسحر  
النساء فكيف بالرجال؟ فتبث بي شفرات أكتمها في داخلي تحت طيف من  
الغرور لا تراه لكن لا أستطيع تحديد مثل هذا الأثر في داخلي غير إنني أجد  
نفسي مضطرة في بعض الأحيان لمرافقة هاجس لا أعرفه بدقة ولا أتقنه  
بشكل من الأشكال لكنه هاجس وحسب، فأجد نفسي كالمغامرة حين  
ألتي دعوة قهوة لا تكلف من وقتي غير دقائق قليلة تستولي عليها سراب  
بالثرثرة التي لا تنتهي وعيناها تضخّان الكثير من الرغبات المحشورة في  
صدرها وتتحول فيها الى كائن ملتبس مليء بالغموض.

تنظر لي بإعجاب وتشمّني في كل لحظة كما لو أنني مزهريّة  
ورد أمامها، فأراها عن قُرب بوجه مليء بالأصباغ ممّوه بالكريمات  
المفضوحة، وأرى عينيها مجرورتين بخطي كحل غير منتظمين وحاجبين  
مختفين شغلها خط أسود عرضي كأنه حبر أسود، بينما يستدق أنفها  
الطويل المائل كعلامة بارزة في وجهها.



- أفرح لما تفتري معي . أشعر إني أمام أميرة صغيرة .

### صغير الجسد . الصغير الثاني

7- وحينما تمد إصبعها في فتحة صدري وتخرجه

8- تمصّه ضاحكة وهي تقول: هنا سر الحلوة.. هههههههه

9- يقشع جسدي وتجتاحني رجفة غريبة يتنمل فيها ثديي الصغير،

10- فأفقد الكلام معها لحظة وينعقد لساني ثم أجمع نفسي سريعاً

11- أنظر في عينيها،

12- فأجد أشياء كثيرة من الصعب اكتشافها لأول مرة.

ربما أنتبه الى طريقتها المكشوفة بالكلام ولسانها المغمور بالثناء المجاني، مثلما أشعر ببعض الظنون تتكشف قليلاً لكنها تتوارى خلف غموض هذه العانس التي لا تكل ولا تمل من الحديث عن الإعجاب بهي وبرائحتي التي لم تشم مثلها كما تقول، لكنني بطريقة مفاجئة أنحسر وتنحسر روحي ويتلبد وجهي بغمامة حزن طارئة.. هو نوع من الدفاع عن وجودي الهش في لحظة هذه العانس.

وبالرغم من جرح المرأة الصغير على خدي والذي حاولت إخفائه بالمكياج، إلا أن لسراب عيني صقر وهي تحديق بوجهي الصغير.

- هذه المرة جرح..!

- جرح بسيط.

- لا لالا إحكلي لي.. بعض الجروح تزيد من حلاوة الوجوه.

تقترب مني أكثر وتمسك يدي.. أنتِ أمورة.. لو تعرفني كم أحبك..!

ومثل كل مرة يلفني الغموض وأتماسك وأنهى فنجان القهوة، فما في داخلي من وصايا مجانية حولها أستشعره مائلاً أمامي. أنت ربحانة البنات.. فينضغط دمي في جسدي الصغير وتتخاطف صور كثيرة في المكان.

صور لا أحبها فأشعر إن عفويتي وشفقتي ليس لهما رصيد في واقع الأمر مع هذه السراب الغامضة كثيراً.

- ستسأل عني رئيسة القسم.. شكرا للفظور ست سراب.

- كم أكرهها.. ستعقدك رئيسة القسم هذي..!

### صفيير الجسد . الصفيير الثالث

13 - تعلق بعصية وتوصلني للباب واضعة يدها على مؤخرتي.

14 - فلا أخطيء بإحساس عاجل إن أصابع المرأة تضغط على لحم مؤخرتي الترف بقصد.

15 - مؤخرة البنت حساسة جداً لهذه الحركات الفظيعة.

16 - إنها أشبه بمضخة متحركة ليس لها كهربائية ثابتة.

17 - حساسة أكثر مما يجب وتستشعر كل شيء مدبب نحوها.

18 - مؤخرتي الترفة تتحسس من أصابع الست سراب في هذه اللحظة

19 - لتؤكد لي الكثير من الشكوك التي أسمعها عنها على مدار الوقت.

20 - أمسك صدري المتنقل بيد

21 - وأحمي مؤخرتي بيد أخرى

22 - وأحاول الهرب.

- 23- وقبل أن تفتح الباب تنظر في عيني نظرة عميقة
- 24 - ثم تميل على خدي وتقبله بفضاضة وتحاول أن تبوس شفتي  
المرتجفتين أيضاً.

## الشخايا

أعاقه روني من الدخول وقتاً طويلاً بنباح شرس لكنني وأمي تدخلنا  
وأبعدناه الى الحديقة الخلفية وأغلقتنا عليه باباً ثانوياً.

دخل الخال حاملاً بيده كيساً صغيراً شفافاً لوصفة أدوية طلبتها أُمي منه  
بالبهاتف لكنه إنزعج كما في كل مرة من استقبال الكلب له بالطريقة ذاتها.  
- روني كلب وحشي.

- إنه يتحسس من الغرباء.. قلت هذا بطريقة ما.

سعل خالي كثيراً حتى اختنق تقريباً فهرعت أُمي اليه وقادته الي  
الصالة وهي تتمتم وتردد: بسم الله.. ثم جلبت له قلدح ماء من الحنفية.  
إنتابني ضيق وطغت عليّ كآبة صغيرة حاولتُ أن لا تشعر أُمي بها،  
فأويئتُ الي غرفتي أترصد الوقت الذي هو فيه بقلق، منقبضة الروح،  
محسورة الجسد، خائفة من شيء ما فقدته ولا أريد لأَي كائن أن يعرف  
هذا فقدان الثمين.. لكنه يعرف. وهو احساس بالذنب ينتابني كلما أراه  
في بيتنا كما لو إنه يضع سري في جيبه.

روني من خلف النافذة يطالعني بعينه الرماديتين منتظراً أن أعزف  
بناياتي.

## صفيـر النـايـات . الصـفيـر الـثـالـث عـشـر

- 1- ألوذ بناياتي الكثيرة،
- 2- وأملاً الغرفة صفيراً ودموعاً.
- 3- لا أريد أن أسمع وأفكر وأرى.
- 4- أهرب الى جدتي رابعة العدوية ؛
- 5- وآخر رجال الموهيكانز ؛
- 6- ومولانا الرومي ؛
- 7- ومعلمي الفارابي ؛
- 8- والغابات الوحيدة ؛
- 9- ونايات المراعي البعيدة بين أصابع الرعاة الحالمين.
- 10- اقلب بناياتي وأنيها الصامت.
- 11- لماذا يئن الناي بغيابك يا أبي؟
- 12- أصفر بناي العظام
- 13- لعله ناي أبي الذي وهبني إياه في احلامي المتكررة،
- 14- فينتفخ وجهي،
- 15- ويتناثر دم أبي عليه
- 16- ويتحشرج الصوت
- 17- فأرمي به على سريري
- 18- وأبكي.

وصلت الى ما يشبه القناعة إن هذا الخال ليس خالي إنما هو رجل غريب دخل بيتنا سهواً مثل روني وانتحل صفة الخال، لكن روني لم ينتحل أية صفة فبقي كلباً.

أمي متشبثة بخالي.. إنه أخي طارق المغترب منذ ثلاثين سنة وقد عاد مع الجيش الأمريكي.. سعيدة به فهو الرائحة المغتربة القديمة لأهلها،  
19 - لكنني بتُّ أكرهه.

20 - ليس خالي هذا الأمريكي مارك،

21 - خدع طفولتي بلسان معسول وسفر كنت أحتاجه

22 - وخضّ جسدي بمهارة شخص تطبّع على هذا كثيراً.

23 - كنت صبية وناياتي صغيرة.

24 - لكنني الآن بعمر 24 سنة.

تقول أمي بصوتٍ منكسر:

- سلامات طارق.. استرخِ يا أخي.

يهدأ قليلاً وتزوي عن وجهه لحظات الضيق فيتنفس بعمق:

- البنزس.. والمنطقة الخضراء لها أبواب وشبابيك وسراديب

ودهاeliz وأنفاق وعليّ أن أعرف كل شيء هناك.

يقبّل رأسها ويعتذر ويسترخي على القنفة:

- دائرة ريحانة قريبة وبين فترة وأخرى I see here

ثم سألها:

- كيف الحال الآن؟

كعادته لا يريد أن يبدو ضعيفاً فيتحايل على نفسه ويغير الحديث:

- أخرجني الى الحياة my sister ما تزالين في شبابك لا يغلبك اليأس..

كوني happy

تنهدت وهي تفتح عينيها وربما أمكنه من رؤية الشباب المسحوق  
فيهما عبر وميض الروح المسحوقة من تلكما العينين السوداوين.

- كيف أخرج وهو غائب؟ مشكلتي ريحانة.. أخاف عليها من بعدي.

- عمرك طويل ماي سستر.. Why هذا التشاؤم!

- الأعمار بيد الله لكن ريحانة وحدها.

في غرفتي أحكم جسدي بعباءة كحلية وأرفع قطعة الشاش من على  
جبهتي وأصبغ الجرح الصغير بكريم أساس بلون بشرتي، وقبل أن أخرج  
أعاود النظر الى بقايا المرأة المتكسرة فأجد نفسي نصف ريحانة ونصفاً آخر  
تناثر مع الشظايا حين كسرت المرأة وطردت منها الخال قبل ليلة أو ليلتين.  
كعادته يهرع ويضممني فيضيع جسدي الناعم في جسده القوي.

- واو.. ما هذه الحلاوة Baby!..!

ثم يوجه كلامه لأمي:

- ريحانة صارت عروسة.

تقول أمي بصوت منخفض:

- الله يهديها.. لا أعرف سبب رفضها الزواج.

يعدّل من اقتراحه:

- الزواج لسه مبكر.. خليها تتمتع بشبابها.

ثم بمكر:

- الزواج مقبرة في عراقكم العظيم هههه

أضغط على أصابعي وأتخاذل قليلاً حينما أجد نفسي في بؤرة حديث  
يخصني فأشعر كما لو أنني مستغفلة أو تائهة؟ هل كل البنات مثلي؟  
ينظر لي ويقول:

- أسوأ ما فيك هذا الحزن والشroud.. Smile Pleas

يضحك بطريقة مفتعلة ويضمني:

- سأخذك الى اسطنبول لتغيري الجو.

- لا.

أفلتت مني الكلمة لكنني عدت أنظر الى نفسي بسرعة:

- لا أقدر.. لا يوجد رصيد إجازات عندي.

قالت أمي المشغلة بابتلاع حبات الدواء:

- كيف شغلك طارق؟

- رايح جاي.

- ربي يوفقك.

تعود وتسأله:

- وجماعتك....؟

يتحرك في مكانه ويقول:

- الأوضاع غير مستقرة.. مسؤولون فاسدون وجماعات مسلحة

تتحكم بالدولة وأحزاب ما أنزل الله بها من سلطان.. مجموعات طائفية قادرة.



ثم يضيف:

- الإسلاميون طمغة عار في هذا البلد..

ويكمل ببرود:

- البلد متخلف وماشي للهاوية.

عدت من المطبخ أحمل صينية القهوة الصغيرة بيدين ترتجفان  
وحينما انحنيت انفتحت العباءة الكحلية من تحت رقبتي وتدفق جزء  
قليل من صدري لكنني سارعت الى لم العباءة وعدت الى المطبخ ولا  
يفارقني إحساس من إن صدري قد كُبر وامتلاً.

تأفف وهو يقول:

- الطائفية مرض البلد الذي لا علاج له..كلهم خونة وعملاء  
ومرتشون.

سحب نفساً عميقاً قبل أن يذهب الى المغسلة وهو يمشي بحذر كما  
لو إنه يتوقع أن جسده سيخذه.

قالت أمي هامسة:

- خالك ليس على ما يرام.

كنت أنظر اليه وهو يطش الماء البارد على وجهه.

قالت أمي ثانية:

- منذ فترة انتبهت عليه وهو يتنفس بصعوبة.

نهضت أمي وقدمت له منشفة جديدة.

مسح وجهه وهو يتنشق الهواء بملء منخرية وصدره كما لو شخّ  
الهواء عليه.

عاد الى مكانه وهو يقول:

- يضيق صدري يا أم ريحانة.

فترد أُمي بقلق:

- سلامتك طارق.

هز رأسه وبدا المكان كما لو ضاق عليه لكن قامته نهضت ودنا من  
أُمي وقبّل رأسها كما احتضنتني وقرص خديّ قائلاً:  
- كلما يتاح لي الوقت سأمر عليك.

تلك القرصة الخفيفة أعرف كيف بدأت ذات يوم حينما كانت  
الفوضى تعم بغداد وكان وحده يتجرأ فيزورنا بسيارة رباعية لافتة  
للأنظار، غير إن ذلك اليوم التعيس كان البداية المخيفة لي وسيختلط  
عليّ كل شيء من تلك اللحظة الرمادية ويدور يومي كطاحونة تحفّها  
النار بعدما هرعت أُمي الى بيت جارنا العم الحاج علاء الدين إثر صراخ  
ليس طبيعياً تدفق من البيت من كتّته الوحيدة.

اغلب الظن إن الحاجة زوجته توفيت فهي جارة قديمة تشكو من  
أمراض الشيخوخة الكثيرة؛ لكنّ الخبر اليقين جاء به الخال وهو يطرق  
الباب أكثر من مرة فيقابلة روني بنباح مستمر.

حينما خرجت أُمي مسرعة الى بيت الحاج علاء الدين أوصتني  
بشكل حازم أن أبقى في البيت وأقفل الأبواب وأن لا أخرج وأحذر

روني من حبله وأتركه طليقاً في الطارمة؛ غير إنني فتحت الباب الداخلي ثم الخارجي حينما جاء الخال مارك وهو الذي لم يزرنا منذ أيام بعد إن اتصل بي هاتفياً وهو في الباب الخارجي ليطمئنني من إنه هو الطارق.

أعدت روني الى بيته الصغير وخذعته بعظمة طويلة، لكنه شمّ الخال وتحسس من وجوده وكاديفلت مني مرتين وظل ينبح ويهرّ مغتاضاً فأحكمت السيطرة عليه وفتحت الباب الخارجي للخال الذي تردد أول الأمر.

وجدني مخطوفة الوجه الى حد ما وزاد انخطافي أكثر حينما أخبرني بأنه سمع من الناس المتجمهرين في المكان إن طفلاً من أحد الجيران تم خطفه من مدرسته واتصل الخاطفون مطالبين بفدية مالية كبيرة. اضطربت كثيراً وبكيت سريعاً وتذكرت يومَ خطفِ والدي.

### نايات الجسد . الناي السابع

- 1 - هدّأني خالي وهو يضمّني الى صدره متطلعاً بقلق الى نافذة الكلب.
- 2 - أطال ضمّي حتى انغرزت حمّالة نهديّ القطنية في صدره.. كان صدري صغيراً في ذلك الوقت.
- 3 - قال لي وأنا محبوسة بين ذراعيه: لا تقلقي هذه حوادث يومية تحدث في ظرف أمني سيء.
- 4 - نشجت قليلاً وفكّ ذراعيه بعدما استنشقتني كليّ فيما ظلت أنفاسه تعلو وتهبط بسرعة.
- 5 - جلس في الاستقبال وأجلسني الى جانبه فعاود ضمّي وهو يلعب بشعري وأصابعه تتحسس رقبتني،

6- ثم أحنى وجهه وشمّني من هذا المكان فدغدغني قليلاً.

7- قال وهو يضحك: أنتِ رائحة من السماء.

8- وكانت أصابعه تسترسل ممسدة شعري حتى نهايته حيث يلتف حتى

ما بعد خصري،

9- وهناك كانت أصابعه تنزل من أعلى ظهري وتستمر تتحسس ليونة

المكان بطريقة خفيفة خجلت منها بعض الشيء فأبعدت جسدي

تلقائياً.

10- سحبني برقة وهو يهمس: أما زلتِ خائفة؟

11- ثم قال وكأنه يمزح: أنت صبية حلوة.. العراقيات يجتنن..!

12- تلمس وجهي كأنه يكتشفه لأول مرة ومرت أصابعه على شفتي

فخفق قلبي وارتعش وجهي.

13- لم أذق عراقية من قبل..أنت رائحة سماء!

14- لم أفهم ماذا يقصد بسبب ارتباكي الذي زاد كثيراً وهو يمرّ يده على

صدري مأخوذاً بالرائحة التي تطوّقه على ما يبدو فتمنيت أن يدخل

روني في هذه اللحظة.

15- أعمل لك شاياً أم قهوة؟

16- لالا.. خليكِ مرتاحة لحين ما تجي الوالدة.

17- زاد من ضمي بطريقة شعرت بها إن كلّي يدوب وما يزال يتنفسني

بعمق بل ويعنف أيضاً.

18- رائحة جسديك طيبة.. رائحة أنثى غريبة جداً.. كم عمرك يا بنت؟

19- 20 سنة

20- واو.. يعني أنثى.

وحينما جاءت أُمِّي مخبوِصة لمصاب بيت الحاج علاء الدين  
حررني خالي مضطراً فتنفست روعي المخبوِسة بين ذراعيه وهرعت  
الى غرفتي أتحنس صدري ورقبتي وخاصرتي ومؤخرتي كما لو إنني  
فقدت بعضاً منها.

جاءتني فكرة أن أحرر روني من مربطه لكنني عدلت عنها حينما  
اكتشفت تنملاً طفيفاً على أطرافي وصدري وربما رأسي أيضاً.

بقيت وقتاً أعيد اللقاء مع الخال وأعيد ترتيب دخوله وعناقه وشمّه  
وحركة أصابعه من أمامي وخلفي فتأكدت إنها سبب التنمّل.

كان جسدي يتفتح بصورة عجيبة لاسيما صدري الذي بقيت حلمته  
منتصبين وقتاً غير قصير (لم أذق عراقية من قبل) هكذا أسمعني ولم  
أفهم (أنت رائحة سماء) ولم أبال فكثيرون يقولون هذا ويتبعون رائحتي  
غير إن للخال الأمريكي طريقة مثيرة في اقتناص لحظتي الخائفة وضبط  
جسدي متلبساً بالرائحة وهو يلتصق بي.

طبّط على كتف أُمِّي:

- ما الأخبار..؟

- اووووف خطفوا عمّار من المدرسة.. صغيرهم الذكي.

قال خالي:

- هذه ضريبة الحرية.. يخرج كل القاع مرةً واحدةً وتخرج كل الجيفة

. . .

قالت أُمِّي متألمة:

- الله يعين أمه .. فقدت عقلها.

كانت تلك أول ضمة قوية من رجل اسمه خالي وأول خضة لجسدي الناعم الذي لم يهدأ طيلة ذلك اليوم حتى انتبهت لي أمي مساء وسألنتي:

- ما بك ..؟

- مقهورة على عمّار.

لكن حينما خرج الخال بعد ساعة حرصت على أن يراني لسبب لم أفهمه وكنت أبتسم له لعاود ضمي بطريقة خفيفة وهو يقول بمرح: عيونك غابة. لالا بحر.. هههه

كان بودي أن أقول له: لا تتأخر علينا خالي.. عُد بأسرع وقت.

وعاد بعد يوم واحد وكنت قد أحكمتُ ربط روني بسلسلته، وبقي خالي يعاود حضوره بيننا ويتصل كثيراً ويديم وجوده بهداياه الكثيرة.

كنا نعجب أنا وأمي لذوقه الراقى في اختيار الثياب ومحابس الذهب وماركات الساعات الأجنبية التي يجلبها من أسفاره الكثيرة وبعض اللقى والتماثيل الأثرية التي يقول إنه عثر عليها في أحد قصور صدام على دجلة.

كان خالي يوزع أوقاته بين السفارة وبيننا.

- 1- وكان جسدي يتفتح تدريجياً وصرت أعرف مواسمه الجميلة،
- 2- مثلما أعرف إن خالي زاد الحبة حبتين حينما قبّلني ذات مساء بطريقة الأفلام ومضغ شفّتي بليونة (وكانت أمي في الحقام) حتى نسيت - ليوم كامل - أنّ لدي شفّتين.

- 3- اعتقدت نمت تلك الليلة بلا شفيتين وكنت مضطربة.
- 4- لم أعزف بناياتي ولم أدعُ روني ليكون في غرفتي إلا عبه.
- 5 - كنت أعيد طعم القبلة وأنصت لحرارتها ولزوجتها وبالكاد أوقف رجفة جسدي الفظيعة، بينما يتابني خوف غريزي لا أعرف مصدره.
- 6- أهكذا هو سر القُبلات؟

## المنقبة

تركني روني عند الباب.

لَوحت له بيدي فرجع لكنه ظل ينبح في الطارمة وحتى ابتعادي من البيت كنت أسمع، وهذا ما يجري كل صباح حتى يختفي صوته كأنه يوحى بمرافقته لي.

خطوت تحت سماء من الغيوم والقليل من المطر المتناثر.

وجدتُ الصباح ناعماً كما في كل يوم، لكن بقيتُ روعي منقبضة ودموع صغيرة تترجرج في عيني؛ وجسدي حذرٌ مثلي يمشي معي مضطرباً، محاولة أن لا يتشظى أكثر مما تشظى ذات وقت مسروق في غفلةٍ مني فأمسكه بلا قصد كما لو أحميه من أي طارئ.

وحينما اتصلت بي أم عادل لفطور الصباح، فاجأني وجوده المبكر غير المعلن فتركتُ أصداً نايات رابعة العدوية وقصائدها الدامعة التي تصدح في سماعة أذني، وناي فيروز المغمور بالشجن الأسر وهو يفتح روح الصباح في داخلي.

أربكني قليلاً وأنا ألمس بلا شعور مناطق من جسدي كما لو أتأكد من وجودها وإنها معي.



- صباح الخير.

نهض شاب ضابط مكافحة الارهاب وبدلته المرقطة يتوضح فيها اللون الأسود أكثر من غيره.

ضحكت المرأة وقالت انها أحبّت أن تفاجئني بوجوده.

- المفاجآت تكون حلوة في كثير من الأحيان.

اختلطت ألوان خفيفة على وجهي وأنا أمدّ له أصابع نحيلة وباردة، مختلجة الوجه الى حد الاضطراب. ولم تستطع البدلة المرقطة بالسواد أن تجذب نظري سوى انها أملت عليّ شعوراً آخر لا أعرفه بالضبط، مع إن وسامة الضابط وهدوءه جذباني فتقلصت المسافة بين البدلة التي تذكّرني بأجواء الحرب وبين وجه الشاب الذي أشار بود أن أجلس على كرسي أمامه.

- ابني عادل.. عاد بإجازة من الجبهة وأحب أن يراك.

- أعرفه.. أهلاً وسهلاً.. كما لو أشير الى إني رأيته مرتين بشكل عابر.

قالت المرأة بمغزى أدركه:

- يحرص أن يراك كلما يأتي بإجازته.

بقيت صامته وعينا الشاب تتخاطفان على وجهي.

قالت السيدة وهي تبدد الصمت القصير بيننا:

- قسمة ونصيب.. أنا مؤمنة بهذا.

تخاطفت عيناه على وجهي لأكثر من مرة وأنا أشيح بوجهي غير مرتاحة الى تلك اللحظة السريعة.

كنت أحمّن إنه يجمع صورتى الأخيرة بشكل سريع فيصل الى إني شابة سمراء صغيرة بعينين فيهما سواد كثير واخضرار كثير ولونهما لا لون لهما، وفمي صغير لا ينطق كثيراً، وسيحمّن إن شعري المعقوص تحت الحجاب طويل بعض الشيء، وجسدي فيه نضوج الشابات العشرينيات بقامة فارعة تجلس أمامه.

قد ينسى بعض الملامح في سرعة اللحظة التي تواجهه لكنه لا ينسى الرائحة التي سجنته الآن في مكانه وهو يحملق بوجهي، ليقول فيما بعد - ربما - لسيدة القسم:

- رائحتها مثيرة. هي الحلوة بلا شك.

أطوف بصمتي ويطوف برائحتي وسيدة القسم تلملم أظابير وأوراقاً وفايلات:

- سأترككما بعض الوقت.. ذاهبة الى مكتب المدير العام.

### صفيير الحب. الصفيير الأول

1 - انتبه الضابط الى موجات عطرية تحيط بالغرفة كما لو أن أحداً ما يسرّبها للمكان.. هكذا كنتُ أعتقد.

2- لكنه ربما تغاضى عن هذا الحلم السريع وهو ينظر الى وجهي:

3- كيف حالك ريحانة.

4- الحمد لله.. وجدني مرتبكة أكثر مما يجب.

5- كلمتني الوالدة عنك.. أعتقد لديك فكرة عن الموضوع!

6- فركتُ أصابع يديّ بعصية ظاهرة

7- أنتِ شابة مهذبة.

8- شكراً

9- ما رأيك..؟

10- رأيي..؟

11- نعم

12- بشنو..؟

لم يكن الوقت حاسماً له ولا صالحاً لبقائي حينما عادت سيدة القسم بشكل سريع مع امرأة قصيرة وثخينة تضع نقاباً حالكاً على وجهها وتحمل يديها فايلا أصفر؛ مغطاة كلها بثوب أسود يخفيها من أعلى رأسها حتى أصابع قدميها فبدت كغراب منفوخ دخل علينا.

قالت أم عادل وهي تشير للمنقبة بالجلوس أمامها:

- هذا ابني الملازم أول عادل يزورني اليوم.

همهمت بشيء لم يتبينه غير إنه أدرك إنها تحببه وهو ينظر الى ثقبتي عينيها.

- والسيدة موظفة جديدة شرفتنا الى الدائرة.

وجدتها فرصة مناسبة لأن أخرج (كنتُ أود البقاء بعض الوقت)

تملّاني وأنا استأذن بالخروج.

أعتقد كان مبهوراً وهو يرى خصري النحيف ويشم رائحة بقيت على كرسي جلوسي، ولعله قال لأمه في القسم من دون أن يحفل بوجود المنقبة الغربية:

- هذه البنت تستهويني كثيراً.

قد يكون تراءى لي ذلك بغرور شابة قد يستهويها الإطراء من الغرباء.  
أحياناً أكون مغرورة بالرغم من جرحي العميق وخروجي مثقلة بقلب  
متعب وجسد مغدور وروح محبوسة. خائفة. متوترة. وصورة الضابط  
الوسيم تمشي معي حتى نهاية الممر وربما أبعد من ذلك. غير إن شكل  
المنقبة سرعان ما عاد لي فأزاح صورة الضابط بشكل مؤقت.

قبل أن أدخل القسم حياني موظف أهدل يتابعني باستمرار.

استوقفني قليلاً وأخذ نفساً عميقاً وهو يردد ضاحكاً: شكراً يا حلوة.

في المكتب أخبرتُ الموظفين:

- موظفة جديدة.. منقبة.. باشرت اليوم..!

## الرائحة

خرجتُ من روحي تنهيدةً طويلةً مثل حبلٍ من ألم؛ سحبتُ معها  
طمأنيتي المغشوشة بلوعة حينما وجدتُ غرفتي ضيقةً أكثر مما يجب،  
مثلما وجدتُ جوّها خانقاً لم أستطع أن أتنفس فيه فخرجتُ بعد إن  
مسحتُ دموعي وجففتُ عينيّ.

تنهتُ أُمي فرفعتُ رأسها النائم على المخدة.

- متضايقة.. قلتُ وأنا أشعر بسأم كبير.

ضاقتُ عليّ الغرفة كما ضاقتُ عليّ البيت.

جلستُ بجسدٍ حاولتُ أن أجمعه بيديّ فهرع روني يتشممني ويدور  
حولي ويغطي جسده بجسدي فاحتضنته وأنا أسمع دقات قلبه.

### صفير الرائحة . الصفير السادس

1- أتعبني المشط.

2- اعتدلتُ أُمي متناقلة وهي تحيطني بذراعها: هذا مشط الحلوة ريحانة.

3- كرهته...!

4- وجدتني عصبية ومنفعلة: طولي بالك.. شنو اللي صار..!

- 5- كلهم يريدون رائحتي.. حتى النساء.. قرفت منه.
- 6 - ضحكت وهي تضميني: هذا سرّك يا بنت.. بل هو سرّ أمّتنا من  
سابع ظهر.
- 7- لكنني تعبت منه.. لا أريده.
- 8- فككْتُ ذراع أمي عني وخطوتُ الى الثلاجة: كلهم يريدونني.
- 9- أخرجت علبة من الثلاجة وعبئتُ منها كثيراً من الماء البارد:
- 10- هناك أحلى مني في الدائرة.
- 11- ابتسمت أمي وهي تضميني: لا توجد بنت أحلى من ريحانتي.
- 12 - أعود وأجلس قريبة منها وعيناي تترقرقان: هل الرائحة هي  
الجمال..؟
- 13 - تمسح دمعة صغيرة منها قبل أن تسقط:
- 14 - الرائحة هي نحن. كل امرأة لها رائحتها.
- 15 - ما فهمت..!
- 16 - تعتدل وتشيل جسدها كله:
- 17 - لا تتشابه روائح النساء.. لكن قد تتشابه العطور.
- 18 - وانا..؟ لي عطر أم رائحة؟
- 19 - لك وحدك الرائحة من دون البنات.
- 20 - سكّت وأنا أنتظر الكثير مما لم أفهمه.
- 21 - أبوك تعلق بي وأنا شابة.. كنت أصغر منك. كان يتبعني بين البساتين  
والحقول يتعقب رائحتي أينما أذهب.
- 22 - إعترف لي بعد الزواج إنه كان يتفقدي ويعرف أين أنا بواسطة رائحتي.
- 23 - كان والدي يحبك.. أنا لست حلوة.. ماذا جرى لي؟

24 - أحاطتني بكلتا ذراعيها:

25 - يوجد هناك مَنْ يتعقب رائحتك.. هناك مَنْ يحبك ويريدك.

26 - قلت بأعصابٍ مشدودة: لو أكرس المشط هل أبقى بلا رائحة؟

27 - ههههه لا تكوني مجنونة.. كل بنت ولها رائحة أنوثة لا يعرفها إلا من يحبها.

28 - المشط وعاء للأنوثة والرائحة وهذا فضل من الله علينا.

29 - يرحم الله جدّاتك القديمات عشن مع هذا المشط كل أعمارهن.

30 - هل كنّ معطرات به؟

31 - إنها رائحة ربانية.

32 - لكنني لا أريده.. إنه لعنة.

33 - هذا إرث قديم فيه النفع والعشق والجمال والأنوثة.

34 - لا أريد مثل هذه الأنوثة التي.. التي دمرتني.

35 - ارتميت بحضن امي أنشج: أبي كان يقول لي أنت حلوة ولم يقل لي بسبب رائحة المشط!

36 - الرجال لا يعرفون أسرار النساء كثيراً.. وكل أب يحب ابنته الوحيدة.

37 - هل نساء القرية يعرفن أنّ المشط في بيتنا..؟

38 - بعض النساء القديمات يعرفن إنه كان عند جدتك.

39 - والآن عندي.. ورثته منك وأنتِ حيّة.. هل يصحّ هذا..؟

40 - سكتت أمي قليلاً و صفت على صورة الأب المفقود المعلقة على الجدار:

41 - لم يحدث مثل هذا.. المرأة التي تموت ترثه لكبرى بناتها.. لكن معك اختلف الأمر.

- 42- تفرقت عيناها وهي تضيف: ما زلت حيّة حتى الآن.
- 43- ثم همست كما لو تحدثت نفسها: لكنني متٌ منذ إن خطفوا أباك. أنا مينة تقريباً ومن أجلك بقيت أتنفس.
- 44- التفتت الي وغاص وجهها بالدموع: لهذا تركتُ الرائحة وتركت المشط لك.. لا تنفع أنوثتي بعد فقدان أبيك.
- 45- هرعتُ الى غرفتي أجهدت فتبعني أمي متناقلة وهي تستغفر الله وتردد.. الستريار رب.
- 46- احتضنتني على السرير: ليش البكاء..!
- 47- كرهت نفسي.. كرهت المشط.
- 48- هدأتني وهي تضميني أكثر وتشم شعري المبعثر على وجهها: ما أطيبك يا بنت بك رائحة السلالة النقية.. رائحة الجدات العظيمات.
- 49- اعتدلت وكفكفت دموعي ودفنت رأسي في صدرها كما لو أنني اعتذر: تعبت.
- 50- رفعت رأسي وشعري المتناثر من على وجهها: متى نذهب للقرية..؟
- 51- أشاعت ابتسامة خفيفة في وجهي:
- 52- شوقيني للقرية.. بنفسني شوق لأعمامي وأخوالي وخالاتي ونساء القرية.. صارت مثل الحلم عندي.
- 53- كان والدي يعدني كثيراً أن نزور القرية في كل عطلة لكن الظروف ما كانت تسمح.
- 54- قريباً.. سنجد الوقت المناسب.. ونزور القرية.
- 55- هدأتُ وأمي تسوّي شعري وتحبسه على شكل ذيل الحصان ورائي.
- 56- هل نجد عجائز المشط..؟



- 57- سجد بعض العجائز يعرفن شيئاً من قصته.
- 58- ثم تأفقت وأطلقت حسرة لم تستطع كبحها وقالت:
- 59- الدنيا تغيرت وما عاد المشط يهم أحداً.
- 60- إنه الماضي وقد مات.

## الجسد

ما تزال المرأة مكسورة وشظايا غير متساوية منها عالقة في الإطار تقسم جسدها الى أشلاء مختلفة.

رأت نفسها مشطورة هنا وهناك فابتعدت عن إنشطاراتها الى الحاسبة واندفعت صفحتها الفيسبوكية أمامها وطالعتها صورة مادونا التي تستعيرها بدلا من صورتها.

1- حذفت الصورة ولم تحدّثها

2- أبتقت شبح امرأة بلا ملامح.

3- لا أحتاج مادونا ولا غيرها.. لتكن ريحانة هكذا بلا ملامح

4- فتاة عابرة في الحياة بوظيفة مؤقتة ومصير مضطرب

5- وأب مفقود،

6- وخال غريب ألغى عناوين النسب وابتكر لذته بطريقته.

وجدت بعض الرسائل من أشخاص طفيليين فحذفتهم وكادت تمسح رسالة الخال غير إنها تريثت وقرأت:

(غير مرتاح يا ريحانة.. مريض واريدك تسافري معي لإسطنبول لمعالجة وضعك الذي حدث في جونه. انا جاد.)

اعادت قراءة الرسالة مرة ثانية واستوقفتها (.. لمعالجة وضعك..)

فانحسرت روحها وتلبد رأسها وبتلقائية مسكت ما بين أفخاذها كما لو  
تحمي المكان من خطر جديد سيخرج اليها من هنا أو من جونية في ليلة  
الأضواء الحمراء الرهيبه التي طارت فيها عبر الفضاء وغرقت في بحر  
بيروت وصرخت من الرهبة واللذة.

تذكر كل شيء كما لو حدث ليلة أمس وليس قبل أربع سنوات.

كل شيء حدث البارحة ولم يمضِ زمني وزمن جونية الحمراء وزمن  
الخال الأمريكي منذ أربع سنوات:

### نابات الجسد . الناي الثامن

- 1- أنتِ صغيرة وستكبرين معي .
- 2- لكنك خالي .
- 3- نحن نبتكر اللقب .. الأنوثة بلا عناوين .
- 4- أنتِ شيطان ههههه
- 5- أنتِ my rose .. سأخذك to بيروت لتري الحياة الوردية هناك .
- 6- أنا صغيرة ولا أفهم .
- 7- ستفهمين كل شيء .
- 8- والدي خطفوه .. تركني وحيدة وأمي مرضت من أجله .
- 9- سنمضي أنا وأنتِ to بيروت .
- 10- تحدثني عن بيروت كثيراً .. ماذا فيها؟
- 11- هي الحياة والجمال والـfreedom
- 12- أها.. ما أجمل الحرية .
- 13- ستتحولين فيها الى نورسة على البحر

14 - هههههه .

15 - تعالي أبوسك .

16 - بوسة واحدة .

17 - في بيروت ستعرفين على جسديك .

18 - أها .

19 - بيروت عارية زي البيبي .

20 - واو

21 - طفلة جميلة كَأنتِ .

22 - أنا لن اكون عارية أنا لست طفلة .

23 - بيروت ستعريك وتعيدك baby

24 - واو .. انت شيطان يا خالي هههههه

تقلب صفحات الفيسبوك وتتطلع الى الصور الكثيرة وتتعاقب الصفحات بين أصابعها من دون هدف سوى أن تقضي على رأسها المكتظ .

تمضي الى مناغاة العاشقين والعاشقات في ومضات الكتابة وأشعار نزار قباني وخواطر رومانسية إنشائية وجمل شعرية حية مؤلفة للحظتها، لكنها لا تشعر بطراوة الحروف ولا وهجها .

كل شيء كذب . يكذبون على بعضهم . لستُ عاشقة ولا أعرف كيف يكتبون ولمن ولماذا .

تعود الى رسالة الخال فتجد الحروف كأنها ديب نمل قارص يجرح جسدها من كل جانب فتبتعد عنها، لكنها تسحب كلمتين فقط وتضعهما!

على الورد وتكبرهما فتقرأ (لمعالجة وضعك) فتعود يداها منحسرتين  
بين فخذيهما الباردتين وترتبك كمن تشعر بالعار أو كأن أحداً ما يرى  
عريها ما بعد الجرح البيروتي في جونية العامرة بالطرب والمراقص  
والسهر الطويل.

تثاءبت وكان البرد يتسلل من نافذتها المفتوحة مع تقادم المساء  
فنهضت وأغلقت النافذة، وعادت الى بقايا المرأة المكسورة ترى قامتها  
مكسورة ببجامتها القطنية.

تفحصت جسدها لسبب لا تعرفه، مشوشة.. أنا تعيسة وغير سعيدة.

يعيدها الى الحاسبة إشعار مفاجئ في صندوق الرسائل:

- هلو ريحانة.

.....

- الوووووو

.....

- فينك

- اهلا

- شو عملي؟

- لا شيء

- بديعة نامت؟

- نامت من ساعتين.

- كيف صحتها؟

- يعني

- ليست صحتي على ما يرام.

- سلامتك

- سأغادر الى إسطنبول وأريدك معي

.... -

- أنا جاد.. مريض وأريدك تتراحي بعد موتي

- سلامتك

- وضعي الصحي ليس على ما يرام

- ستكون بخير

ساعدها انطفاء الكهرباء على إنهاء المحادثة وسارعت لغلق هاتفها وهي ترتعش لكل فكرة جديدة يبثها الخال.

موته وحياتها في كفة جديدة لم تخطر على بالها.

ارتعبت من فكرة موت الخال كما ارتعبت من فكرة إسطنبول في إصلاح ما يمكن إصلاحه بسرية.

في اسطنبول سيحاول أن يعيد ريحانتي القديمة المخدوعة.

لكني أكرهك كللللك يا مارك.

كنتُ صغيرة وأودعت النسب في حضنك.

أناقتك مغشوشة

وفلوسك مغشوشة حتى أمريكيتك مغشوشة.

أنت غريب مثل روني.

لكن روني أكثر وفاءً منك.

تلمست الفراش ودست جسدها الذي بدا يتعرق بالرغم من البرد  
المنتشر في الغرفة وفي رأسها يدور سؤال ماذا لو مات الخال فجأة..  
ماذا يحصل لي..!؟!

## الشرف

تدمدم أم عادل وهي تخرج من مكتبنا بعد إن وزعت كتاباً رسمياً تحذيرياً عن التغيب والخروج قبل نهاية الدوام صادراً من مكتب المدير العام، وكوني أنتقل بين الغرف والمكاتب لتوريد إحصائيات معينة تخصص العمل أجد الست سراب أمامي هنا أو هناك.

تحدث بلا انقطاع ولا حذر عن وظائف العقود والتعيينات والواسطات والتكشف وفساد الحكومة والرؤوس الكبيرة وداعش والميليشيات والحرب وحزب الدعوة والمالكي الذي تسبب باحتلال داعش للموصل وتكريت والفلوجة، وصفر ميزانية الدولة المليارية وأجلس الموظفين على الحديد مثلما غيره من الطرف الآخر قواويد وطائفيون باعوا الفلوجة والرمادي لداعش.

لازمة يومية لا تنتهي ولا تنقطع في أي مكتب تدخل إليه، متوترة وعدائية ومجنونة بالمشاكل. تسعى إليها بلا تعب كمن فقدت شيئاً ثميناً بسبب هؤلاء الذين تذكروهم بعدوانية مملّة بل وسخيفة جداً. لهذا سألتها المنقبة على نحوٍ مفاجئ وهي تخرج من صمتها:

- هل فقدتِ أحداً من أهلك لا سامح الله؟

- وأنتِ شنو دخلك؟



- أسأل فقط.

- لا

تغير المنقبة لهجتها قليلاً:

- اذن كفي عن شتم المسؤولين!..!

- وانت شنو علاقتك بهؤلاء العملاء؟

- أنا ناصحة لك.. لا يجوز أن تشتمى المجاهدين 24 ساعة!..!

المنقبة تبدو كالشبح وهي منصرفه عن شؤون الموظفين وتعيش مع حاسبتها لوحدها منذ شهرين. لا تختلط كثيراً.. لكنها تتنفس على ما يبدو (وهذا تعليق ساخر من إحدى الموظفين)

لا يبين من شكلها سوى عينين تتخاطفان من فتحتين صغيرتين ولم يسمع أحد صوتها الا ما ندر.

المنقبة الصامته منذ شهرين خرجت عن صمتها بعد أن تمادت الست سراب بلا سبب حينما قالت:

- هذا زمن المعممين الذين استباحوا البلاد والعباد بلا شرف.

رمت المنقبة قلماً كان بيدها على وجه سراب المستثارة وصاحت بها:

- انت آخر من يتحدث عن الشرف.. شوفي حالك يا غبية.. مستعدة

أن يأخذونك الآن بلمح البصر!..!

والست سراب الصلفة الحاقدة على كل شيء ترد باستهزاء بضحكة

فاجرة:

- وأخيراً نطقت المعقدة...!

إلا إن المنقبة عادت الى الهدوء:

- ستعرفين حالك حينما تجدي نفسك معلقة من شعرك.

تصبح الأخرى مضطربة ومنفعلة:

- هذه طريقتكم الوقحة حينما تنتهكون أعراض الناس.

ترد المنقبة بهدوء:

- خلي العرض والشرف بعيداً عنك يا وجه البومة.

تصفق الست سراب الباب خلفها بعنف ويضطرب نبضي وأنا أجد

نفسي بين متمرده يسمونها شاذة وبين منقبة تلقي خطاب الشرف برهاوة

وتهدد بطريقة مستريحة.

التبس عليّ مفهوم الشرف.

منقبة وشاذة.. هكذا تهمس الموظفات.

وأنا ماذا يا ربخانة بين هذه وتلك؟

ما هو الشرف؟

هل هو ما فقدته بغفلة طفولية؟

أم هو المنقبة؟

أم هو سراب الطائشة؟

هل أنا الضحية بينهما؟

أم بسبيهما؟

أنا ضائعة بينهما. يبدو أنا ضحية.. ضحيتها معاً.. ولا أعرف لماذا فكرت هكذا فكرت المرأتين.

مرة قالت لي أم عادل: البلاد تغيرت فتغيرت أخلاق الناس.. كوني حذرة.. انا مثل أمك وأخاف عليك.

أفهم ولا أفهم لكنني أعرف أن سيدة القسم تتودد لي وتريدني عروساً لابنها الضابط في مكافحة الإرهاب، لذلك لا تريدني أن أختلط بنساء الدائرة الأكبر سنأً مني فتحرص على أن أكون معها وأفطر معها ولا أغادرها كثيراً.

إنه نوع من الضغط بدأت أتلمل من منه الى حد ما.

توتر أجواء الغرفة الصغيرة بالرغم من الصمت الكاسح حول نساء القسم.

تفتح المنقبة هاتفها العريض وأرى ارتعاشة يديها أولاً ومن ثم صوتها وهي تحدث أحداً ما بطريقة منفعلة مثيرة وكيدية.

ترعيني للحظات وأنا أرى الداخل من المنقبة وتحولاتها من موظفة لم تمض على خدمتها سوى شهرين الى موظفة تمارس الكيدية في هاتفها النقال مع آخرين لا نعرفهم.  
كان صوتها عالياً كأنما تقصدته:

- أبو الحسنين.. يسمونها الست سراب.. بعثية قديمة ومشمولة بالاجتاث!

## الكائن

عدت من مستشفى اليرموك بعد معالجة دورية ومعاينة شرايين القلب من قبل طبيب كان قد نجا من محاولتي اغتيال سابقتين، ولم يفكر بالهجرة بالرغم من وجود فرص ذهبية أمامه.

هذا وطني ولن أعادره.. بحماسة يقول لي في كل مرة وأنا أهيء مزاجه للهجرة والرحيل عبر السفارة الأميركية كما فعلت مع طبيبين سابقين ومحام وطالبة في كلية طب الإنسان في وقت من الأوقات حينما تعرضوا الى تهديدات جديدة.

هذه حماسة من الدكتور عبدالمجيد بدأت أتفهمها مع مرور الوقت وإن تزعجني قليلاً، فالحياة البغدادية على كف عفريت؛ لكنني أتماسك بطمأنته إن الفرص مفتوحة دائماً لو أراد وفي أي وقت.

اتصالات السيد ابو الحارث توالى في هاتفي منذ دخولي عتبة المستشفى لكنني لم أرد عليه، فهذا أحد هلافت الأحزاب في المنطقة الخضراء جاؤوا به من الفراغ والعدم وزرعوه هناك ليكون شجرة متفرعة في كل مكان.

يأكل الأموال كالمنشار صاعداً ونازلاً؛ مثل المعمم الأربعيني الذي

يوحى إنه نبي صغير مرسل من سماء كربلاء لكنه قد يتخلى عن عمامته في أية لحظة لا تخطر على بال أحد.

ابو الحارث كائن زئبقي خفيف وشخصية غريبة بعض الشيء. ناعم كحشيش الخرفان. يتصور إن الدنيا تقف على قرن ثور وإنه هو الثور الوطني والبلد يقف على قرنه وحده وهو من أكثر الشخصيات المجهولة في المنطقة الخضراء التي تثير الحساسيات والفتن لكنه محتال في كل الأحوال.

لا أحبه ولا أطيعه ولا أريد أن أراه فهو كائن من الزئبق. يتلمظ كعُلب ويتكلم بقوة استمدّها من حزبه الثاني في السلطة وهو شخص مشير للجدل والشكوك.

صامت إذ ارتقت الأموال وتعاقب رفيفها أمامه بشكل سريع حتى تكاد عيناه لا تنطبقان الى العدّ الأخير، وفوضوي إذا شعر بأنه مغدور وقد يتفوه بكلام مزعج غير مسؤول بسبب حدائته بجمع المال بعد إن صار مستشاراً اقتصادياً عن طريق كتلته الحزبية. وطائفي بامتياز يكره الطرف الآخر علانية وبلا تردد ولا حياء ولا دبلوماسية.

لا يمانع من أن يصطدم بالمعمم الأربعيني، وإذا اقتضى الأمر أن تتصادم كتلتاهما أيضاً؛ السنيّة والشيعية؛ في مجلس النواب لكنّ الطرفين تجدهما بعد يوم واحد في السفارة الأميركية يضحكان ويلعبان بخصيتيهما كإنهما صديقان حميمان؛ أحدهما بعمامة صغيرة جاهزة للنزع والآخر بدشداشة خليجية لتماعة ضيقة على جسده. لكنه يرتدي أحياناً بدلة تركية فضفاضة ويسير بها بصعوبة كأنه محشو بداخلها.

مرة علق السفير بعد خروجهما من مكتبه:

- العراق بلد الطرائف والشخصيات الظريفة.

أقول له بقصد:

- انتهازيان وطائفيان وقحان.

يمط السفير شفته السفلى:

- أنا أسميهما ظريفان فالديبلوماسية تحتم عليّ هذا.

يعيد هذا الكائن اتصاله وأنا أخرج من المستشفى بصحبة تقارير وأدوية جديدة في نهارٍ مزدحم يقطع الأنفاس فعلاً.

- هاي أبو الحارث/ كنت في المستشفى للعلاج / الله يسلمك /

تمام / كلشي ماشي بطريقة جيدة/ حصتكم موجودة سيدي/ بالدينار

no بالدولار/ هكذا وصلني المال / نتصل فيما بعد/ باي.

بعد إلحاح متواصل زارني الى السفارة ببدلة صحراوية خيوطها ناتئة

وعلاماتها التجارية غير منزوعة.

تفضل سيد ابو الحارث.

يسلم عليك الأخ النائب.

أي نائب منهم؟

ابو صابرين.

اهلا وسهلا.

هناك مشروع جديد ونريدك أن تتوسط فيه.

حاضر.

لكن بلا الجنرال أَلِن وهذه المرة حضرتك عرفت الطريق جيداً..  
ستتفق معك مباشرة.

لأرى المشروع أولاً.

حصتك تكفي لشراء عمارة في نيويورك.

وحصتك...؟

ههههههههه

ههه

## الصور

حرصتُ على أن أكون «مخفية» حينما فتحت صفحتي الفيسبوكية لشعوري المستمر بوجود الخال المهووس برائحتي مثلما هو مهووس بروائح الصبايا وعطورهن كما رأيت في جونية لكن رائحتي لا يستغني عنها مثل كلب لا يفارق صاحبه.

يدخل بي كله حينما يشمني في خلوة يأخذني إليها في المطعم المعلق يوم كنتُ لا أعني أن الخال رجل شتام الى هذه الدرجة من الوله والشبق، ولم أكن أعني فداحة اللعبة الخطيرة التي وضعني فيها.

### نايات الجسد . الناي التاسع

1 - بك رائحة كل الصبايا.

2 - ترهق جسدي بهذا الشم العنيف.

3 - بودي أقضمك كالعجينة.

في صفحتي الفيسبوكية رسائل متعاقبة من شباب ومراهقين واسماء مستعارة لا أريد أن أدقق فيها كثيراً ولم يحدث إن رددت على أحد بالرغم من جمال العبارات التي يتفنن بصياغتها شباب ومراهقون وربما رجال كبار السن يتخفون بصور واسماء مستعارة.



أسدلتُ الصفحة وفتحت أيقونة الصور في حافظة الحاسبة وهي عادة تلازمي كلما ألمّ الفراغ بي لتبديد الوقت الكئيب وكلما وجدت نياتي صامته ومزاجها كمزاجي.

روني معي في الغرفة يتطلع الى الصور في زمني الشخصي المتتالي. طفولة بعشرات الصور تتوالى بأراجيح ومولات واسواق وحدائق وسيارات وأب اختفى في فوضى سيادة الميليشيات، وأم عانت بعده من الضغط والسكري الذي حوّلها الى سيدة شاحبة نحيلة.

شخصان وأنا ثالثهما الصغيرة التي تنتقل من حضن الى حضن في أيام وسنوات لا أتذكر معها سوى انني كنت طفلة تكبر قليلاً ثم تصغر بدلال أب لا حدود له.

### صغير الطفولة. صغير شخصي

- 1- هذه أنا.
- 2- كنت المدللة الوحيدة.
- 3- أطير مثل الحمامة.
- 4- تنورتي قصيرة.
- 5- وقميصي مفتوح للهواء النقي.
- 6- وشعري ينسدل كشعر العجريات.
- 7- كنت أحب نفسي كثيراً لأنني أحبّتي وأنا صغيرة عابرة للأيام.
- 8- هذه أنا أيضاً.
- 9- يقودني أبي على جسر الجمهورية لنطعم النوارس من فُتات الصمون الذي نشتره من الفرن.

- 10 - النوارس بيضاء مثل تنورتي .
- 11 - تنقض على فتافيت الصمون وهي طائرة .
- 12 - أشعر إنها تحبني كثيراً .
- 13 - صور أخرى مع النوارس التي تلتقط فتافيت الصمون .
- 14 - كم كنت سعيدة وكانت النوارس سعيدة مثلي .
- 15 - صوري في المدرسة .
- 16 - تلميذة شطورة كما تقول المعلمة .
- 17 - لك مستقبل زاهر يا بنت .
- 18 - هههه... أي مستقبل يا ست بتول لو تعرفي ماذا جرى ويجري بي  
وبهذا الوطن التعيس !
- 19 - في حديقة الزوراء أحلق بينظلوني الجينز الصحراوي المطعم  
بأصداف ذهبية في الدواليب وألعاب الهواء وسيارات السباق .
- 20 - هذه أنا أقابل أسدين محبوسين ذابلين يحيط بهما الذباب .
- 21 - خطية بابا ليش هاي الأسود محبوسين ؟
- 22 - النمر الأفريقي المرقط لا يهدأ في قفصه .
- 23 - بابا يحذرني من أمد أصابعي بين القضبان
- 24 - لكنني أغافله وأرمي للنمر وردة إقتطفتها من الحديقة المقابلة  
لقفصه .
- 25 - القروود ظريفة ولطيفة .
- 26 - نقضي وقتاً ممتعاً معها .
- 27 - حركاتها مثلنا .
- 28 - تفهم سريعاً وتلتقط من أيدينا الكرزات والزهور الصغيرة .

- 29- صوري في المعهد.. أوووف.
- 30- أبي يحثني لاجتياز الدراسة بنجاح.
- 31- لكنه ضاع وأكملت المعهد لوحدي.
- 32- كنت حزينة.
- 33- هذه الصور تذكرنني بالحادثه يوم كان عمري أقل من عشرين سنة.
- 34- لبست الحجاب مغصوبة به كما فرضته ميليشيات الدين.
- 35- هذه ريتا المسيحية صديقتي ارتدت الحجاب مثلنا،
- 36- وكانت تلعن الحظ الذي حوّل العباد الى قرود بالحجاب.
- 37- يبدو إننا قرود الله في هذا الوطن الذي استولت عليه قرده الدين.
- 38- ريتا تكفر ببساطة وتشتم ببساطة وتبكي سريعاً.
- 39- لكنها هاجرت آخر الأمر الى أميركا بعد تهديدات لوالدها بالقتل.
- 40- ريتا أشتاق الى سوافنا القديمة.
- 41- هذه ثريا ترتدي الحجاب أيضاً فبدت مثل بطة محبوسة هههههههه  
مسكينة
- 42- لا تعرف السير في الحجاب. تشعر بأنها مخنوقة.
- 43- كانت تقول لنا إن كان الإسلام حجاباً فخلوني صابئة الى آخر عمري،
- 44- لا أريد ديناً بهذا الشكل.. أموت من هذه القيود.
- 45- زملاء كثيرون يتناوبون في ألبوم الصور.
- 46- لا أتذكر إنني احببت واحداً منهم بالرغم من إن عبدالله عازف الكيتار حاول كثيراً أن يستميلني،
- 47- فأوحيت له بأني أبحث عن أبي المخطوف الذي خطفوا قلبي معه فابتعد المسكين عني لكنه ظل يراقبني عن بُعد.

48 - لم أحفل به كثيراً فمصيبة والدي عظيمة وقلبي لم يخفق لغيره حتى اليوم.

بتعاقب الصور الكثيرة المرتبة بزمنها المتتالي نبهتني صفحتي الفيسبوكية المسدلة الى وجود رسالة من «سراب العمر»:

- هلو حياتي ريحانة

- .....

- انت موجودة؟

ينعقد طيفها السيء أمامي وأصباغها المخربطة على وجهها لكن ينتابني الفضول لهذه المرأة الغامضة التي تشاجرت معها المنقبة قبل أيام:  
- موجودة.

- هلو عمري.. كيف الحال؟

- الحمد لله

- سهرانة لسه؟

- جاهزة للنوم.

- آسفة حياتي.. حبيت أطمئن عليك.

- شكراً

- اشتاقتك يا حلوة.

- تشتاقتك العافية.

- تشرفيني للبيت بعد يومين؟

.....-

- عيد ميلادي وعازمتك.

- العمر كله.

- انتظرك حبيبي.. أنا مجازة يومين. قرفنتي المنقبة التافهة.

.....-

يتتصف الليل وأكثر من شبح يحوم حولي وصداع في رأسي يكبر  
مزدحماً بصور كثيرة لا ترحم.

تنطفئ الكهرباء في مثل هذا الوقت فتتغلق حافظة الصور وتتغلق  
صفحة الفيسبوك.

يتسلل روني من الغرفة بهدوء فأخلد في الظلام مع صور كثيرة لا  
توجد في الحافظة ولا توجد في أي مكان سوى رأسي المتصدع.

## الكلب

هياتُ لها حبتي ضغط وسكر ووضعت أمامها صحن شوربة  
وخضروات وخبزاً أسمر وكنتُ قلقة من صحتها ونفسيّتها المتعبة التي  
لا تستقر على حال.

- خالكِ مرّ عليّ في الصباح.. لم يجلس كعادته مستعجل.. وروني  
أفحمه كثيراً وكاد يأكله.

أكملت وهي تتأفف:

- قال إنه مريض وما أعرف شئ مرضه.

فتحتُ مخدة الضغط الاسفنجية من يدها ووضعتُ جهاز الضغط في  
حافظته الصغيرة:

- روني يعرف الغرباء.. قلتُ ببرود.

فتحتُ نافذة الصالة فتدفق هواء بارد غمر المكان بربيع لم يأتِ بعد.

- قال إنه مريض.. قلبه يؤلمه.. يبدو خائفاً من الوضع وانه غير مرتاح  
لجماعته الذين يتعامل معهم في الحكومة والبرلمان.

- خالي مثل القط له سبع أرواح.. لا تخافي عليه.. شيطان بين  
الشياطين..!

وجدتُ أمي تبتلع الكلام لكنها أكملت:

- قال إنه سيأخذك معه الى اسطنبول لتغيري الجو.. نفسيتك تعبانة

بنتي.

طببت على كتفي:

- يحبك كثيراً ويعتبر نفسه كوالدك.

- هههه

- شوفي الحياة بزا.. شَمِي هوا..

- لا أدري.. ما أعرف.. ما عندي رصيد اجازات.

التفتت الى أمي وصدري يمور وقلبي يخفق على غير عادته وركزت

عيني بعينها:

- هذا المارك ليس خالي..!

غيرت علامات الدهشة المفاجئة شكل وجهها وهي تفتح عينيها:

- لا أعتقد إنه خالي. في الحروب كثيراً ما يحصل التباس بين الناس!

- إنه خالك يا بنت.

- لا.. إنه غريب.. خَدَعْنَا..!

وأضفتُ بحقد:

- خالي غريب مثل روني. ولا يعرف الغريب إلا الغريب!

أمسكت بيدي وضغطت عليها بقوة:

- انت مجنونة.. لا يسمعك أحد.. انت جنيّة.

- أنا جنيّة. نعم. هذا رجل أمريكي غريب.. وليس خالي.. هذه قناعتي.

نهرتني:

- ما بك؟

قلت لها ببرود:

- في الحروب ربما تتداخل الأنساب ويصبح الغريب كأنه ولي

حميم ههههه.

- مجنونة.

- يحدث مثل هذا يا والدتي كثيراً.

عدّلت من جلستي:

- خالي مثل الكلب روني. كلاهما غريب. لكن روني يتألف سريعاً

في البيت الذي يطعمه وتصبح عنده حاسة لا تخطيء في تمييز الغرباء.

وقبل أن ترد وكان وجهها عصبياً أكملت:

- مرة رأيت فيلماً.. غريب يهرب من القصف الجوي العنيف في

حرب كبيرة لا أعرف أين ويأوي الى أقرب بيت لا يعرفه ويدّعي إنه

قريبهم.. وإنه فلان بن فلان من المكان الفلاني فتصدقه الأسرة ويبقى

معهم أياماً غير قليلة يأكل ويشرب في ملجأ البيت المحصّن، وحينما

تهدأ أجواء الحرب وتكف الطائرات عن القصف يخرج ذلك الغريب

والى غير رجعة؛ عندها تنتبه الأسرة التي آوته الى إنها لا تعرف قريباً

بذلك الاسم وإنه محض غريب لجأ اليهم تحت ظرف صعب.



تنظر أمي الى عينيّ بريبة لكنني أوصل:

- في الحروب الناس تحتاج الناس.. لكن لفترة مؤقتة.. والوفي من  
يعاود الزيارة لاحقاً وبيني صلته مع الغير.

ثم اضفتُ:

- الغرباء الخائفون لهم قدرة عجيبة على استنساخ هذا النوع من  
القراية في لحظة واحدة.

ولم أتركها تنطق فقلت:

-إننا في فيلم رعب يا أمي العزيزة.. والغراب الأمريكي حطّ في بيتنا  
كأخ لكِ وخالٍ لي لكنه خال مغشوش.. نفس قصة الفيلم.. الفرق هو  
روني الذي فضح النتيجة.

لم أدعها تنطق فذهبتُ الى المطبخ يتبعني روني وهو ينفش شعره  
وهيأتُ قهوة بطعم الهيل وتنشقتُ عبرها الفائح وكان رأسي يصطخب  
بكل شيء لكن لا أستطيع أن أمسك منه شيئاً محدداً.

تركتُ أمي ساكنة في الصالة وشعرتُ بارتياح نسبي وأنا أكرر عليها  
إن مارك أمريكي غريب خدعنا. الحرب فيها غرائب وعجائب.. هذا  
المارك استغفلنا واستغلّ وحدتنا.

كنت أجهش في أعماقي محاذرة أن لا ينفجر بركان الدمع وأنا أتنقل  
بين صورته التي بتّ لا أستسيغها وصورة ضابط مكافحة الإرهاب التي  
تغذيني بشيء أجهله.

1 - صورة الخال تستولي عليّ في كل لحظة.

- 2- ما زلت أشمّه كرائحة حريق اجتاحت جسدي،
- 3- هذا الخال الكابوسي الذي دخل علينا ذات نهار مترجلاً من سيارة رباعية وكنت سعيدة إن في بيتنا رجلاً اسمه خالي.
- كتب لي قبل أيام من إنه يريد أن يعالج (وضعي) ولم أفكر كثيراً بالأمر لولا ضابط مكافحة الإرهاب الذي تتجدد صورته أمامي من دون مناسبات ولا أوقات معينة.
- 1- لا أنسى جسدي حينما أمشي وأجلس وأنام.
- 2- أنت لا تدرك يا عادل ما بي.
- 3- تراني الحلوة ريحانة ذات الرائحة الغريبة.
- 4- لست أنا التي تركني أبي وغاب تحت سلاح الميليشيات.
- 5- أدركني هذا الخال النيذي وحلّ بي مثل القدر وذاب في شعري كالدخان
- 6- وحوّل جونية اللبنانية الى دخان أحمر تسرب من كل مكان في جسدي.
- 7- أنا غيري الآن.
- 8- ريحانة الحلوة أصبحت ريحانة الوسخة من الداخل.
- 9- لا ألقاب مع النساء لكنّ جميلات ومغريات.. هكذا يقول.
- 10- أنا خالك بالنسب لكنني أعشقتك يا بنت.. كوني صبيتي الريحانة.. هكذا يقول.
- 11- لا فرق بينك وبين البنات والصبايا.. انسي إنني خالك.. هكذا يقول.
- 12- يقنعني ويخدع جسد الطفلة بي.
- تغفو أُمي قليلاً تحت وطأة تعب كل يوم يداهما وأمضي الى الحديقة الصغيرة التي لا أجد رغبة في سقيها.

أجلس على كرسي مهجور علاه التراب وتخثر طينٌ ناعمٌ على سرجه  
البلاستيكي تحت شمس لينة تُخدر رأسي المفتوح على الفراغ ومن  
حولي يدور روني ويلحس وجهي ودموعي ويضع رأسه في حضني.

1- الست سراب وعيد ميلادها.

2- هذه المرأة التي لا أفهمها بشكل جيد.. غريبة الأطوار. لكنها مسكينة  
تستحق الشفقة.

3- لا أعرف ما هو سر اهتمامي بها بالرغم من إن الجميع يتقاطعون معها  
ويبتعدون عنها رجالاً ونساءً.

4- المنقبة المحرّضة الغامضة تكره كل ما حولها على ما يبدو.

5- الخال الأمريكي المسافر في جسدي ذات يوم وتلال أمواله المكسدة  
في بيتنا.

6- ناياتي الحزينة التي تنظر لي كل لحظة فلا تجد روعي في زفيري.

7- صور الطفولة والصبا التي رأيتها البارحة آلمتني كثيراً،

8- وأنا أشعر بعمر يتغذى على الفجائع اليومية في بغداد الذليلة تحت  
الانفجارات والمعارك الداعشية المتوالية.

9- روني أنت الغريب الوحيد الذي يحبني.

تركتُ الحديقة برأس ضاج فوجدت أُمي مفتوحة العينين:

- غدا عيد ميلاد الست سراب ودعّنتني الى حفلة في بيتها.

- اخرجي وتمتعي مع صديقاتك.. خذي لها هدية مناسبة.

كانت النافذة تطل على جانب آخر من الحديقة الصغيرة فتأملت  
الشتلات والأزهار الناعمة المنتشرة التي تكابد برد آخر الشتاء.

## الخطيئة

تدرج في الحي السكني القديم لعمارات برتقالية حائلة اللون في شارع حيفا العريض تحت مطر متقطع وسماء غائمة تلقي ظلالها على مدار النهار.

استقبلتها سيدة عجوز مرحة وبالكاد تلمس طريقها ثم سراب التي عانقتها وقبّلت خديها.

- زارتنا البركة.

قدمت لها باقة ورد صغيرة وتركت علبة البيتي فور على طاولة صغيرة فعادت تقبلها من جديد وهي تحتضنها بشكل بدا الإحتفاء فيها مبالغاً نسبياً.

كانت الصلاة مضاءة بأكثر من مصباح وأكثر من أربعين شمعة قصيرة تحيط بكيكة ميلاد مرتفعة نسبياً مسورة بورق الزينة اللّماع.

- سعيدة بك.. كنت واثقة إنك ستأتين.

بدت بريبتها كأنها بالون ملون بفرستان جديد مُصدّف من القديفة وأساور تخرخش كلما تحرك يديها ووجه لطحته أصباغ كثيرة وميك آب غير من بشرتها كثيراً وجعلها غير مستساغة.

جلست الى جانبها وهي تمسك يدها:

- لو تعرفي كم أحبك يا بنت..!

- شكراً.

- انت أمورة وحلوة.

تساءلت الفتاة وهي تنقل نظرها في أرجاء الصالة:

- .. أقول.. ألم تعزمي صديقات الدائرة؟!

- عزمت الجميع طبعاً.. لكنك المفضلة لدي.

.....-

- أعطيتك موعداً قبلهنّ بساعات ههههه

نهضت وعادت بقدح طويل:

- عصير كوكتيل لريحانتي.

- من ذوقك.

- تعرفي.. انت شاغلتنى 24 ساعة..!

فتحت موسيقى خفيفة أسبغت على جو الصالة صوتاً آخر نسج في رأس الفتاة أشياء صغيرة، لكنها ظلت تعيد جملة صديقتها الأخيرة ولم تقترب من معناها. أعطيتك موعداً قبلهنّ بساعات.

شعرت بتوتر لكنها حاولت إخفائه فيما بدا الوقت الأول ثقيلاً وغامضاً أدركته امرأة الميلاد.. لذلك بادرت:

## نابات الجسد . الناي العاشر

1- تحبى نرقص .. أغير الموسيقى؟

2- لا .. هكذا معقولة.

3- لنرقص ونفتح أرواحنا للحب.

4- هههه لم أجرب الرقص.

5- سأعلمك.

6- لا أحبه كثيراً.. أحياناً أرقص وحدي في غرفتي كيفما اتفق.

مع الموسيقى شرد رأسها الى جونية.

كانت موسيقى هادئة أول الأمر ثم اشتعل المكان بموسيقى أكثر  
صخباً وتغيرت الألوان ويات الجو أحمر راقصاً كما لو إن الجميع  
متفقون على الرقص مرة واحدة وفي لحظة واحدة.

لنرقص.

لا أعرف.

ستتعلمين.

أخبّل يا خالي.

تفرّزها امرأة الميلاد:

- اخلعي الحجاب كإنك في الدائرة مع عمّك أم عادل وتلك المنقبة  
المشعوذة.

تشعر بضيق أول فترد بجفاء:

- خليني هكذا.

- لا حجاب في مناسبة ميلادي.. الحجاب يشوّه الحلوات يا عيوني.  
أزاحت عنها الحجاب وكشفت وجهها الصغير فاسترسل شعرها  
أسودّ طويلاً لامعاً وانسدل خلف ظهرها نافثاً رائحة مختلطة العبير  
والرحيق تداخلت في أنفاسها.

- ما شاء الله.. هكذا أنت حلوة وزيادة.

سوّت شعرها ومررت أصابعها عليه وتأكدت من استرساله على  
ظهرها.

- لماذا تأخرتِ بالزواج ست سراب؟

لا تعرف لم سألتها كما لو إنها سألت غيرها في لحظة غير مناسبة،  
لكنها تعرف إنها ستسألها ذات يوم.

- 1- شيء من الفضول يجذبني اليها.
- 2- شيء غائر في أعماقها او أعماقي لا أعرفه.
- 3- أشعر بها وحيدة. يكرهونها كلهم.
- 4- هل كان لديها خال؟
- 5- السؤال الذي يعذبني ولا أستطيع أن أسأله..!
- 6- هل تعرف جونية؟

جلست امرأة الميلاد:

- قصة طويلة.

- ما زلتِ شابة ويتمنك الرجال.

- لا أخدع نفسي.. عمري 48 سنة

- لست كبيرة حتى لو كان هذا عمرك.

- أنت نصف عمري.. وأمامك الحياة طويلة.

قالت بلا مبالاة:

- أكره الرجال.

- .....

صدحت موسيقى محلية راقصة وامتلات الصالة بالإيقاعات التي  
تتكرر في الأعراس والمناسبات الشخصية.

نايات الجسد . الناي الحادي عشر

1- تعالي نرقص.. هيا

2- سحبتها من يدها برفق

3- فنهضت الأخيرة متناقلة تشعر بالحرع.

4- لا أعرف.. تجربته مرة واحدة.. لالا لم أجربه.. أخجل.

5- كل فتاة عليها أن تتعلم الرقص.

6- اقتربت منها وهي تزرع عينيها بوجه فئاتها التي بدت خجلة ومرتبكة.

لكنها استسلمت لامرأة الميلاد التي قادت جسدها الصغير مع إيقاع

الموسيقى الصاخبة السريعة،

7- (هل زارت جونية عندما كانت في عمري؟)

8- اقتربي أكثر.

9- دارت بها دورة صغيرة وضمتها الى صدرها كقطة،

10- يااه رائحتك مثيرة.



- 11- تجننين.. شنو هذا العطر الساحر في شعرك يا بنت.
- 12- افترقت عنها قليلا وهي تهز عجيزتها الممتلئة وتدور حول نفسها بطريقة مثيرة 13- ثم عادت تحرك جسد فتاتها وتهز وسطها وتضمها من جديد وتستشوق عطر شعرها.
- 14- ياااه ما أطيب هذه الرائحة.
- 15- تفرق عنها من جديد وتهز صدرها فيتحرك ثدياها كحمامتين محبوستين تريدان أن تنطلقا.
- 16- وهو ما لفت انتباه الفتاة الحائرة في هذه المساحة التي أشعلتها صديقتها بالرقص المحموم والسرعة المجنونة والجسد الذي أخذ ينفصل عنها وتفكك أوصاله،
- 17- في حين بقي ثدياها يتراقصان بخفة.
- 18- تعود إليها وتمسك بيديها وتدور معها بإيقاع أكثر سرعة
- 19- كمدربة تروض صغيرتها على اللهاث والدوران والسرعة المطلوبة مع الأنغام المحلية الطربية،
- 20- مثلما تروض جسدها على الانفصال في لحظات مطلوبة لتفعيل الروح الحائمة في الصالة.
- 21- لا ناي في موسيقاك ست سراب..!
- 23- ضممتها من جديد وطبعت قبلة خاطفة على عنقها.
- 24- الله ما أجملك.. أنت الناي الجميل.
- 25- تستيقظ جونية بداخلها بلحظة غير مناسبة.
- 26- تعالي.. أحبك.
- 27- أحجل. لا أعرف الرقص.. يكفي هذا ست سراب. تعبت.

28 - تلقي بنفسها على الأريكة ووجهها يتصبب عرقاً وأزرار صدرها مفتوحة.

29 - تنهض وتفتح النافذة فيندلق هواء ورذاذ.

30 - تستنشقه بعمق وهي ترتعش.

## الصفحة

- سأريك غرفة نومي.. تعالي

تقودها الى غرفة صغيرة مرتبة بألوان خافتة وبوسترات تملأ الحائط لممثلات معروفات بأجسادهن البيضاء شبه العاريات يتسمن لها من كل جانب، فتبدو الغرفة مع السرير الواسع بأغطيته الوردية والمرآة البيضوية على شكل قلب كأنها غرفة مراهقة صغيرة.

- هنا أنا.. وهنا أحلم.

فتحت ظلفتي الكتور فطالعتها فساتين وبناطيل مصفوفة.

- اجلسي عمري.

شعور ما يجتاح لحظتها المرتبكة والخائفة مع إنها حاولت بمهارة أن تبدو طبيعية بتصرفاتها المتعددة منذ الرقص وحتى اللحظة التي أحكمت فيها الطوق على فتاتها الجالسة على طرف السرير.

خلعت سراب قميصها متذرة بالسخونة فبان صدرها متماسكا وكبيراً وبالكد تمسكه حمالة الصدر.

- تأخر الوقت.. لازم أطلع.

- مو مصدقة انت معاي.. وبغرفتي.

انتابها شعور بالضيق وهي تراها تخلع بنطالها ليشفّ فخذاها العامران  
وساقاها كأنهما اسطوانتان من بياض.

شعور آخر بالخجل يعتمل فيها وهي تترقب جسد صديقتها الموظفة  
الذي لا يبدو مترهلا بقياسات عمرها الذي سيصل الى الخمسين بعد عامين.  
- أكره الرجال.. انهم وحوش.

وخزتها الجملة لكنها تجاوزتها بعفوية غير أن تكرارها ألمح لها ما  
كانت تتوقعه أو لا تتوقعه، فالوقت المنشغل الآن بعرض صديقتها لا  
يتيح لها أن تتأمل الموقف على نحو صحيح وشعرت كأنها أخطأت  
بالمجيء وتسرعت مثلما غمرها إحساس إنها الآن محنطة لا تقوى  
على شيء.

- الرجال غادرون.. خونة.. لا يفكرون إلا بمؤخرات النساء..!

.....

- كلهم على نفس الشاكلة.. وحوش.

تجرات وسألتها:

- ألم تعشقي كل هذا العمر..؟

- ههه..

.....

- كيف أعشقت... أو ووف

اختلجت عيناها بأثر ما لكنّ وجهها المصبوغ بالماكياج لا يعتبر عن  
أي شيء كما بدا للفتاة سوى الفوضى التي تعرفها كل يوم.

التفتت الى فتاتها الهادئة:

- الرجل قضيب عاهر.. حرام أن يلجنا قضيب عاهر..!

- ممممم

- المرأة هي التي تكتشف جسد المرأة بشكل أنقى وأفضل.

-!.....

- كلهم كلاب.. الغرباء والأقارب.. الرجل عبارة عن قضيب لا

أكثر.. حتى الأخ والأب والخال والعم..!

كانت الفتاة تراقب إنفعالاتها الخارجية بشكل واضح، صامته الى

حد بدت فيه إنها لا تعرف ماذا تقول لكنها حزمت أمرها وعادت تسألها

بطريقة مباشرة وشفاتها تختلجان:

- ست سراب.. هل عندك خال..؟؟

نظرت بعينها نظرة عميقة وحاولت أن تبسم غير إنها لم تبسم فبقي

وجهها جامداً لا يعبر عن شيء يمكن الفتاة من استلال الخيط الأخير من

هذه الفوضى التي اسمها سراب.

- عندي خال.. لكنه مات منذ زمن بعيد..!

-.....

لا تعرف كيف تلتقط شفرة الجواب لذا بقيت صافنة تعيد كلمات

امرأة الميلاد بهدوء.

- ماذا بك؟

- لا شيء.

- اراقبك على مدار اليوم في العمل.. أشعر بك كثيبة وخائفة.

سارعت الفتاة:

- فقدان والدي يؤلمني كثيراً.

- وغير هذا..!

- لا شيء.

خطت في الغرفة بضع خطوات ثم عادت وجلست الى جانبها.

وضعت يدها على كتفها وسألتها:

- أتحيين خالك الأمريكي..؟

التقت عيناها بعينها فبدت سراب أكثر بشاعة في عيني الفتاة اللتين تناوبت فيهما ألوان متداخلة لا تستقران على حال؛ فيما بدت ريحانة أكثر طفولة مما كانت تظنه امرأة الميлад.

- إنه خالي طارق.

تمت ريحانة بشفتين جافتين ولم تنظر الى عيني سيدة الميлад المتحفزة التي حوّلت لحظة التوتر الى فوضى جديدة كما لو استلمت سفرة سرية بوجه الفتاة التي لم تستطع أن تندمج مع المكان بصورة واضحة.

- في عيد ميلادي يجب أن يكون هناك فرح مشترك.. رقص وغناء

وحب.

ثم أَلقت الجملة المحبوسة في صدرها:

- ولا يكشف جسد المرأة الا المرأة.

أخرجت من الثلاجة الصغيرة قنينة طويلة ذات سدّادة حمراء ووضعتها على طاولة صغيرة.. سميرنوف.. شراب الصبايا الحلوات.

ارتعشتُ الفتاة وتداخلت لحظتها بلحظة قديمة لا تريد أن تذكرها الآن وتقمّمصها خُوف مفاجئ وهي تنظر الى القنينة الطويلة.. لا.. لا.. لا أشرب.. لا أعرف.

فتحت سيدة الميلاد السدّادة وعبّت في جوفها جرعة قصيرة فانكمش وجهها المضرج بالأصباغ.

هذا شراب الصبايا في كل مكان.

لا لا أرجوك.. لا أحتسي مثل هذا.. ولا غيره..

غمزتها ورائحة ليمون تفوح منها وأحست الفتاة كما لو إن جرعة السميرنوف دخلت في جوفها وغمرها شعور عابر من إن جسدها بدأ يسخن وإن رأسها سيتخدر بعد قليل، وكانت سراب تستعرض قامتها، وجسدها البلوري يستقيم كتمثال حينما كشفته كلياً كشجرة منزوعة الأوراق، ولم يبق سوى الكيلوت المورّد الذي يحصر منطقتها المخفية، ثم غطته بفتان شفاف بعد إن علّقت حمالة الصدر البيضاء على مشجب الملابس خلف باب الغرفة ورشّت ابطيها بمعطر نفاذ.

- هكذا أشعر بخفة روعي.. اعطيك فستانا خفيفا لترتاحي..؟

- لا.. لا.. هكذا مرتاحة.

جلست الى جانبها وأحاطتها بذراعتها تأمل وجهها الصغير ولاحظت  
ارتباكها وارتعاشاتها.

### نابات الجسد . الناي الثاني عشر

- 1- لو تعرفي كم أنت غالية عندي!
- 2- .....
- 3- انت الحلوة التي أريدها.
- 4- ثم همست بأذنها شيئاً لم تفهمه.
- 5- ولمست شحمة أذنها بلسانها فاقشعرّ جسدها.
- 6- حاولت أن تبتعد غير إن امرأة الميلاد التي تلهث على رقبتها طوقتها  
بذراع ثانية ومررت أصابعها على شعرها المنسدل،
- 7- ست سراب.. أرجوكِ..
- 8- انت الحلوة.
- 9- لكنني..
- 10- فعلت المستحيل لتكوني معي اليوم
- 11- أنا لست كما تتصورين.
- 12- اهدأي.. انت حلوتي.
- 13- عضتها من عنقها بشفتين ساختين فأوصلت الى جسدها قشعريرة  
مرّت بها ذات يوم في جونية حينما كان الخال يطوقها بذراعيه  
قويتين، فاختلطت صور كثيرة اجتاحتها سريعاً.
- 14- شعرت إن جسدها يريد أن ينفلت، فتماسكت قليلاً وحاولت  
النهوض مضطربة ومصدوعة.



- 15 - غير إن سراب ما تزال تحيظها بذراعين متماسكتين كذراعي الخال  
اللتين أحكمتا الطوق عليها ذات ليلة مُسكرة،
- 16 - طار بها السميرنوف وحلّق بجسدها عالياً
- 17 - وبخّر روحها الصغيرة في لذة عجيبة لم تعهدا سابقاً.
- 18 - ست سراب.. أرجوك.. أنا لستُ كما تظنين.
- صفعة صغيرة لم تترك صدى في صخب الموسيقى ولا أثراً على خد  
الست سراب، لكنها فعلتها كما فعلتها مع الخال في المرأة التي ما تزال  
متشظية.

## التبيذ

أتضايق من المعمم الى حد ما.

دائماً أراه في المنطقة الخضراء.

هذه شخصية مختلطة بمزيج من الغرور والغموض، ممن لم يذكرهم السفير بريمر في مذكراته، شأنه شأن «أبو الحارث» و«أبو صابرين» وسوقية البرلمان والحكومة، حتى طاف برأسي ذات ليلة وأنا أستعيد كل الأشخاص والشخصيات التي تتعامل معها أن أدون يومياتي عن هوامش السياسة العراقية الذين لا يعرفهم الناس متتبعا خطى السفير بريمر لتأليف كتاب الظل السياسي عن هؤلاء الصغار الأفندية والمعممين الذين سرقوا المشهد بكامله وتفرّعوا كالأغصان الضارة في حديقة مهجورة.

صادفته عدداً من المرات في السفارة الأميركية بوجوه مختلفة حتى اختلط عليّ شكله وتصورته أكثر من شخص؛ مرة بعمامة صغيرة تبدو أكبر حجماً من رأسه كأنها إطار لسيارة ألعاب ومرة ببدلة رسمية عريضة تُغَيّر من سحته كثيراً فيبدو أكثر خربطة مما هو عليه في العمامة.

ربطني به الجنرال آلن في مشروع توريد قطع غيار لمنظومة الكهرباء الحكومية وكنت لا أتمنى ذلك غير إن الجنرال غمز لي بأن هذا الرجل له

طريق سالك في رئاسة الوزراء: لا تقلق من عمامته فهي علامة ضرورية في كثير من الأحيان في هذا البلد.. الناس هنا تدجنهم العمامة أكثر من المبادئ.

ينادونه بالسيد ويمشي وراءه ثلة من المدنيين بيدلاتهم السود، مسلحين بمسدسات مخفية على خصورهم لكنهم يشعرون بالذل والضعفة حينما تُنتزَع منهم مسدساتهم في بوابة السفارة الأمريكية ويبدون كالبعران التائهة.

يقودون جكسارات فولاذية حديثة مما يعطي انطباعاً بأن المعمم شخصية لها حضور معين في حزبه لم أجهد نفسي لأعرفه ولم أشغل نفسي به كثيراً، فمثل هؤلاء كثيرون انبعثوا من المساجد والجوامع والكهوف كالصراصير والجرذان وملأوا المنطقة الخضراء ودخلوا في تفاصيل الحياة والسياسة بأكثر من طريقة، وكنت وما أزال شاهداً على الكثيرين الذين قادتهم المصالح المشتركة بأن أتعرف عليهم مضطراً وأغتر مزاجي بين هذا وذاك وأتماشى معهم لاستثمار الممكن من المشاريع والأموال.

قلت للجنرال آلن في وقت ما:

- هذا يريد عمولة كبيرة.

- أعطه ولا تتردد.. فالقادم أكثر وأكبر.

- لكنه معمم وديني.

كان استفساري ساذجاً وسمجاً حينما ضحك الجنرال ضحكة طويلة

لا آخر لها:

- ستجد هذا المعمم أفندياً وديموقراطياً متى ما تريد.. أعطه المال وسيبصق على عمامته أمامك.. هههههه.. عليك أن تفهم تحولات بلد مسجون من حالٍ الى حالٍ وتتقن اللعبة بشكل جيد.

لم أستطع الضحك فعلاً فصدري يفتح وينقبض لهذه الفكاهات الطريفة فحافظت على نبضي متسائلاً:

- يعني كلمة السر هي العمامة في هذا البلد..!

ومن هذه البداية وجدت طريقي السالك الى كل شيء فتشبثت بالبقاء في السفارة لاسيما بعد إن وجدتُ بيت أختي بصعوبة عبر خرائط إيرث كوكل ووجدت فيه ريحانة الصبية السمراء ذات الرائحة السحرية.

وتلك كانت بداية أخرى قادتني الى البقاء في بغداد الغريبة عني منذ ثلاثين سنة هارباً من الحرب والخدمة العسكرية وهي البداية الأكثر جمالاً وصعوبة وألماً أيضاً.

مرة اتصل بي هذا المعمم الأربعيني: نريد نشوفك يا سيد مارك.

ولما شافني في السفارة كان يرتدي بدلة سوداء عريضة وبدا كما لو إنه أُدخِل فيها، فاضطرت أن أنبهه - بمودة - الى ضرورة شراء بدلات مناسبة لجسمه النحيف وأن يقص العلامة التجارية الناشزة في رده الأيسر ويلملم بعض الخيوط الناتئة من ياقة الجاكيت، لكنه لم يُحرج بل ضحك بفظاظة وقال هذه البدلات للسفارات والسفريات وما شاكل ذلك، وكنتُ أتفهم هذا الرجل بالتدرّج مع مرور الوقت ونزعت عني عدم الارتياح له، فهو حر مادام يلبي حاجاتنا بطريقة سريعة لا شك فيها



## صفيير خاص . الصفيير الأول

- 1 - كانت ابنته الجامعية تجلس قريبة مني وتحرص أن تستبدل الميزات بين لحظة وأخرى .
  - 2- توزع الميزات وشرائح لحم غنم وتهمس لي بأنها حمسته بيديها .
  - 3- قالت ان اسمها زهور وإنما في المرحلة الأولى من كلية التربية .
  - 4- تشبه أميرة صغيرة بتنورتها الفضفاضة التي تهفهف كلما نهضت
  - 5- وتكشف ساقين عضلتين وفخذين متماسكين،
  - 6- مثلما تترك رائحة أنوثة شهية حينما تجلس الى جانبي .
  - 7- تحاول أن تتحدث معي بالإنكليزية لتجرب قدرتها على المطاولة في هذه اللغة وأظنها كانت لعبة صغيرة لأن تبقى الى جانبي .
  - 8 - أنظر لوجهها الصبياني وشفتيها الرقيقتين وبضاضة صدرها الذي انحسر عنه زر القميص الأول .
  - 9- كنت في خيالي النييدي أقضم يديها الناعمتين وأصابعها الترفة عبر شرائح لحم الغنم الذي تقدمه لي .
  - 10 - كان عليّ أن أكون مارك الأميركي متجاوزاً عقْد طارق العراقي ،
  - 11 - وأفهم معنى أن تكون ابنة المعمم الى جانبي حد الالتصاق بي
  - 12 - في آخر السهرة حينما ثملتُ تقريباً فاحت أنوثتها في روحي .
  - 13 - مسكت أصابعها أكثر من مرة وكان جسدي يرتعش وكان جسدها البكر يرتعش أيضاً .
- احتسى السيد معي بعض كؤوس النييد وغمّي أطواراً من الأبوذيات بطريقة لطيفة وكان يطق بأصابع يديه على طريقة الريفين حينما يغنون، وزوجته المحجبة تضحك منسجمة مع ليلة النييد وزهور

تميل اليّ كثيراً ولا تكف عن المطالعة بوجهي وتحثك بي كلما وجدت فرصة متمثلة نشوة الطرب الشجي في صوت والدها ومع ايقاعاته الإصبعية، وبدا إنه يتعش بالتدرج في حين بقيت زوجته محافظة على هدوئها وتتنقل بيننا وبين المطبخ.

وفي استراحة قصيرة يذهب المعمم الى التواليت مترنحاً بعض الشيء، ففتح زهور ستوديو الآي فون الحديث تريني صورها المختلفة في الجامعة وشارع فلسطين ودجلة والزوراء وابي نؤاس مع صديقاتها وأقاربها وأمها التي ظهرت قليلا في بعض الصور.

14 - زادت من التصاقها بي وزدتها مساً حتى تلمست حرارة جسدها النابض.

15 - وحينما ذهبْتُ الى المطبخ تجدد المزاج،

16 - عادت بزر آخر مفتوح في صدرها،

17 - وفتحت الآي فون ثانية وأطلعتني على صورها البيئية.

18 - في الحديقة وصالة الاستقبال التي نجلس فيها

19 - وغرفة نومها أيضاً.

20 - لكنني كنت أشم عبق صدرها الشهى المثير.

21 - في الصور تبدو زهور صبية شبه عارية.

22 - سيقان ناصعة.

23 - جسد أبيض مصقول

24 - صدر متوثب.

25 - ثياب نوم شفافة. خفيفة. مثيرة.

26 - لا تحجب أي شيء تحتها.

## الانفجار

منذ الصباح الباكر أحسستُ إن شيئاً سيقع، فبغداد مدينة لا يمكن أن تؤتمن الحياة فيها لمدة ساعة أو أقل، وكل مشوار الطريق الى الدائرة أستغفر الله وأقرأ المعوذات وأدعو الى سلامة الناس وعادل يطوف برأسي كل لحظة وعقلي ينزف مثل الآخرين لما آلت الحال اليه من خراب وعذاب.

بدأ الصباح بعصفٍ كبير هزّ بناية الدائرة وكأنّ قلبي يعرف ذلك، فتمسكتُ بالكرسي متوهمة أنّ عاصفةً ستقتلني وسمعت لغط الموظفين وصراخ أكثر من واحدة، وهو ما درجنا عليه كل يوم في هذه الانفجارات الصباحية فالموظفات أكثر خوفاً من الموظفين الذين يصعدون الى سطح البناية يراقبون سحابة الدخان المنبعثة من مكان الانفجار.

كانت سحب دخان أسود تتعالى من مكان ليس بعيداً وأنا أستعيد بالله وأردد سريعاً آيات قرآنية ووجهي مخطوف وريقي يابس، لكنني بعد وقت قصير عدتُ الى الأضابير المكومة أمامي بعد أن أغلقت الشباك أتمتم وجسدي يرتعد.

امتعضت من دخول سراب التي قطعت عليّ شرودي وهي تتساءل معاتباً:



- افتقدتك أمس في عيد ميلادي أم عادل.

- أعتذر.. كنت تعبانة والضغط صاعد نازل.

- كانت لمة حلوة.

- عمرك طويل إن شاء الله.

- جاءت الصديقات كلهن..

ثم أضافت بقصد:

- حتى ربحانة!

كانت تراقب بعينين شيطانيتين وجهي المتلبد بالقلق لكنني أشغلتُ

نفسي بتقليب كتب رسمية موضوعة على مكتبي.

سألتها:

- ما عرفتي وين الانفجار..؟

دخلت المنقبة حاملة إضبارة وهي تطش عطر العود الفاغم في مكتبي

من مبخرة صغيرة بحجم الكف وهي تصلي على محمد وآل بيته الكرام،

وقبل أن تخرج قالت سراب بصوت مسموع بأكثر مما يجب:

- الانفجار بالشورجة أم عادل.. الله ينتقم منهم.. ويتقم من اللي

جابههم.

افترستها المنقبة بعينين ثابنتين من وراء نقابها، لكنني استدركتُ بعد

إن خرجت سراب:

- أهلا علوية صباحك خير.. تفضلي إجلسي.

تكومت على كرسي مفتوح الذراعين ورفعت نقابها الذي بدا إنها

تتضايق منه وألقت بأطرافه على مقدمة رأسها فانكشف وجهها المدور  
وأنفها الأفطس وعيناها المسحوبتان كاليابانيات.

تداولت معي الأوامر الجديدة القاضية بقطع نسبة من رواتب  
الموظفين والدرجات المشمولة به، وبيئتُ لها غموض الحالة نسبيا  
والأفضل أن تستفسر من قسم الحسابات، لكنها أشارت بطريقة ملتبسة  
بأن الظرف يستدعي مثل هذا الإجراء فداعش تريد أن تحرق البلاد  
والعباد والحكومة بلا ميزانية مهمة.

لم أعلق فبقيت على صمتي ووساوسي التي أعقبت الانفجار وهو ما  
جعل المنقبة تتساءل:

- ما بك.. صافنة؟

- لا شيء.. ازعجني الانفجار.. ماذا يريدون بعد كل هذا؟

تحمست العلوية وهي مكشوفة الوجه:

- يريدون إفشال تجربة جماعتنا ويحلمون بعودة الطاغية.. سراب  
وجماعتها.. لكن هيهات..

- وما ذنبنا نحن..؟

لم تكثرث لتساؤلي لكنها تساءلت:

- بالمناسبة.. كانت أمس حفلة ميلاد المعتوهة سراب.. يبيبي هذه  
شيطانة كلما تكبر تصبح أكثر أذى.

ثم أوضحت بطريقة مستهزئة:

- حكوا لي البنات عن فوضى الحفلة ورقصها الخليع وشربها  
الخمرة.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قالت بشكل مفاجئ وبدت عيناها المسحوبتان الى الجانبين ترقان كثيراً:

- أستغرب من شابة وطفلة مثل ريحانة تحضر هكذا مناسبة مع هذه...!

- ريحانة؟ لم أسمع إنها حضرت.

ثم تساءلت:

- بالمناسبة وين ريحانة؟ ما شفتها اليوم!

- اتصلت والدتها وطلبت إجازة ثلاثة أيام.. يبدو هذا موعدها الشهري!

## الطالبة

ناديت على ريحانة أكثر من مرة على دردشة الفيسبوك لكنها لم ترد بالرغم من الوقت المبكر مساءً.

أكنتم ضيقاً كان يتتابني في المرات السابقة حينما أخذت؛ بالتدريج؛ اعتاد الاندماج من جديد وإن على نحوٍ ليس تاماً ولا حقيقياً، غير إنني بدأت نسيباً أستعيد ذاكرة هذا المجتمع الذي أصفه بـالمعقد مع إنني نسيت الكثير من ملامحه في غربة الثلاثين سنة، لكنني أجده اليوم وقد تشوه أكثر مما كنت أحلم به، وانفجر قاعه عن وساخة لا مثيل لها من قتلٍ وسلبٍ ونهبٍ وخطف، مثلما توضح سطحه عن بؤس معرفي وحضاري فاجع جداً فأيقنت إن سلطته السابقة لم تكن إلا عصابة وقبيلة برجل واحد.

مرة قال لي مستر يونان وهو ضابط من ولاية ديترويت:

- 1- هذا مجتمع علي بابا.
- 2- حرام أن نخسر من أجله جندياً واحداً.
- 3- مجتمع سيء جداً.

لا أنتمي لهذا الوطن كثيراً، لكن كلام مستر يونان قرصني في مكانٍ ما من قلبي وأوجعني بنسبة ضئيلة.

قال هذا ببرود ضابط عنيف قاد لواءه من الكويت الى بغداد من دون تعب ولا ملل ولا أي احتمال أن يخسر موقفاً طارئاً أو قوة تطارده، كما لو هو متأكد من وصوله الى بغداد بالرغم من المسافة الطويلة التي عليه أن يقطعها.

مرة ثانية ذكر وهو يطارد عصابة محلية في مدينة الثورة:

4- هذا شعب قروي ساذج يستحق الحرق.

5- حرام ميزوبوتاميا منه.

6- همج ورعاع ومتخلفون.

ألمني للمرة الثانية بالرغم من إنه ينظر لي كأمركي خالص الوفاء لأميريكي، لكنه ألم على كل حال أستشعره مع الوقت البغدادي الذي يحتويني لاسيما في بيت بدیعة الذي يغمرني بالحميمية والألفة والدفء، بالرغم من حزن ریحانة ونظراتها العميقة لي تلك النظرات التي صارت تخترق روحي فتعذبني معها ويزيدني عذاباً صمتها الطفولي الذي استشعر آلامه بوضوح.

بتُّ أتأكد من نظرة مستر يونان الى المجتمع التفصيلي الذي نراه كل يوم وقد فقد الكثير من ثباته وعقله وسرح وراء الشعارات المذهبية وأكاذيب فراعتها الجدد، مثلما كنت أقرأ يوميات بريمر في بغداد وهو يضع النقاط الصحيحة على الحروف برسمه لأولئك السياسيين الخردة لكن بطريقته الدبلوماسية التي لا يريد فيها أن يرسم صورة أكثر خراباً وجعل نوافذ بغداد مشرعة الى أمل ضعيف.

اعتدتُ أن أنسى مثل هذه الدبلوماسية في الكتابة، فالواقع

المتناسخ بالفوضى والانفلات هو غير واقع الكتاب ووجودي  
كمرافق لبعض القادة مترجماً انتهى والآن موظف في سفارة كبيرة فيها  
غيري من العراقيين الذين هرعوا كأدلاء بعباءة مترجمين في الزحف  
الأميركي العظيم.

لم يطلب مني أحد أن أكون دليلاً لكنني بالضرورة دليل.

نحن العراقيين الأميركيين كترجمين أدلاء شئنا أم أبينا وفي الأقل  
أدلاء لغة؛ ومن يريد أن يتنصل من ذلك لا يستطيع؛ فهو جاسوس  
صغير في جوقه جواسيس مجهولين دخلوا بغداد تحت ستار الترجمة،  
وقبض أمواله بالسر ورجع مع المارينز من دون أن يترك أثراً في  
العاصمة وهي تتحول الى قرية حرامية ويتحول المجتمع كله الى قرية  
فالته انفتحت أبوابها وشبابيكها وتدفت ناسها كالمجانين وسلبوا  
الدولة كلها بلمح البصر.

أكد إنه مجتمع قروي معقد يتشبث بالأساطير والخرافات الدينية  
التي ربما ما زلت أتذكر بعضها في القرية، لكنني وجدتها اليوم أكثر  
انعتاقاً حتى من الماضي الذي تظهر لي بعض ملامحه في الأحزان  
الموسمية التي تعود الآن وتملاً مناطق واسعة من بغداد.

1- إنه مجتمع لا يتعلم.

2- اسطوري

3- وخرافي

4- وبكائي

5- يركض وراء السراب والخرافة والألم.

6 - مجتمع يعذب نفسه.

7 - متناقض.

8 - يلطم بيده اليمنى،

9 - ويمارس العادة السرية بيده اليسرى،

10 - ويبتكر له يداً ثالثة

11 - تمنع الحياة الجميلة من أن تنتشر في العاصمة.

12 - هذا استنتاجي أنا مارك الأميركي.

لا أريد أن أعود الى طارق القروي فقد غادرت طارقي ولا أحفل به، لكنّ ريحانة شدّتي اليه بنسبٍ مترجرج لا قيمة له عندي؛ صبية حلوة وجذابة برائحة غريبة ومهيّجة ومغرية.. إنها ناي عراقي مغرٍ ولحن صغير ينمو بين ذراعيّ وعلى نبضي المضطرب.

ريحانة نبضة من هذا التعقيد المركّب بالفطرة، مخنوقة بالفطرة، وخائفة بالفطرة، لكنها تحررت نسبياً - معي - بوهم الحرية حينما اكتشفتُ جسدها من رائحة نفاذة كانت تجهلها ولا تعرف إنها ملاك صغير بوجهٍ صغير ورائحة ملاك سحرية.

1 - تقول انت خالي وأمي تقول انك الغائب ثلاثين سنة.

2 - ولا أفهم معنى أن أكون خالها وماذا أعني لها سوى تلك الوراثة الغيبية الملعونة التي تجتريها بالفطرة والغريزة الاجتماعية؛

3 - طردتُ غريزة النسب الذي لا يعنيني ولم أمتثل لسطوته المخيبة للآمال،

4 - وأخذتها كأنثى متفتحة برائحة شبيقة جداً تنتشر كالنسيم في جسدها الرشيق،

- 5- فامتثلت مستأنسة بالسفر والحياة الوردية التي رأتها في لبنان  
6 - وعرفت إن جسدها عذب جداً بل وأعذب من شلالات الشرق  
البيروتي وجونية الحمراء.

أعرف إنه فطرة التحرر من كابوس العادات الخائفة حينما أصبحت  
بغداد مفتوحة على الهواء الطلق، وشُرعت نوافذها لكل الرياح الفاسدة  
وغير الفاسدة، لكن الخوف عاد بشكل أوسع وأكثر قوةً بانتشار الريات  
السود وسراقات العزاء واللطم كما لو أصبحت العاصمة مأمناً بدلاً  
من أن تتحول الى مهرجان رقص وموسيقى وأفراح واعراس بعد زوال  
الديكتاتور. لكنّ الناس حاولت أن تخرج من كوابيسها واجتهدت  
وتحررت وقفزت السلالم بشكل سريع، وريحانتي معي كالبطة الصغيرة  
تملأني بالرائحة وأملأها بالحب المجنون من دون أن تفقه ما يجري..  
لكنها كبرت بسرعة. أربع سنوات تكفي لنضج حديقة جوري.

أفكر أحياناً برغبة أو حتى من دون رغبة بمغادرة بغداد وأترك هذه  
التجربة بوضعها الغامض وأذهب لأجمع مالي الوفير الموزع بين البنوك  
في عمان ودبي وتركيا لأعيد حياتي الأميركية من جديد متجاوزاً الكثير  
من الإحباطات القاتلة التي اعترضت حياتي الهاربة، فالمال يبني الإنسان  
ويكوّنه من جديد بخسائر أقل على ما اعتقد.

أفكر بطريقة خيالية طارئة حينما يستبد بي الحنين أن أعود الى قريتنا  
التي أعادتها لي بديعة بحكايات الليل الطفولية التي قلّصت عمري  
الى حد كبير وجعلتني أتخاطر بطفولتي وشقاوتي بين القصب والمياه  
والبساتين؛ لكنني أرتعب من فكرة القرية القديمة وتخليقها وتحولاتها



الشكلية والعنف المذهبي الذي يمارسونه بطريقة لا أطيحها، وليس بوسعي أن أعيد طارقي القديم في هذه المعمة المنفلتة والطقوس البليدة التي تخدّر أجيالاً بكاملها كانت تأمل الخلاص من الحروب فسقطت في البلاة والتخلف.

يؤلمني؛ حتى لمجرد التفكير؛ أن أعود الى القرية والنواميس التي يمكن أن تحد من حريتي وطاقتي وطموحاتي وتحولني الى كائن مغفل لا صوت لي ولا رأي فأنا لا أعرف أسير وراء قطع بالرغم من خساراتي الأميركية التي لا حصر لها.

مرة قلت لبديعة: حينما أفكر بالعودة الى القرية كإنني أقدم على الانتحار.. لا أستطيع أن أعود الى القروية والبداية والقصص العشائرية الملفقة والنواميس الكارثية.

أنا كائن آخر بلا حلال ولا حرام.

ديني لي وحدي أمارسه مثلما أشاء؛ فالإسلام والمسيحية بالنسبة لي ليسا هما الحل، فالأول غادرته الى غير رجعة والآخر احتميتُ به من غلواء الحياة وتقاطعاتها لأبتعد عن منغصات العيش وتشعباته المضنية.

أريد ديناً لوحدي أسرق به صبيتي الحلوة ريحانة وأطير بها عبر البحار والمطارات الى آخر عمري فهي رائحة تسير على الأرض وعطر أخاذ يسلب العقول وجسد لفراشة تحب النار الدافئة من حولها.

يسرح خيالي كثيراً وأنا ألامس كل ذرة عطر تأتيني من هذه الصبية وأرى نضجها الذي نشأ بين ذراعيّ وعلى فمي وجسدي في جونية وما

بعدها؛ لكنني أفكر ببديعة التي أحببتها من جديد وأحببت حزنها الفروي  
القطيع ووفاءها اللانهائي لزوج خُطف ومات ولن يعود.

أحببت فيها المرأة الصلبة التي تقاوم الحياة لوحدها ولا تملك غير  
ريحانيتها المتفجرة أنوثة وجمالاً ونضوجاً أسمر لا يشبهه نضوج.

حزينة على مدار حياتها ومتشبثة بصيبتها الريحانة ويبدو إنها لن  
تموت قريباً من أجلها. فبديعة كائن خارق في حنانه الأمومي وطبعه  
الريفي الذي لا يمكن لأحد تجاوزه أو التجاوز عليه أو اختراق ثوابته  
المتعددة.

1- ما تزال وريثة القرية في حبها لزوجها المخطوف،

2- وريثة الحنان الكبير لريحانيتها الوحيدة،

3- وريثة السلف البعيد في ذاكرة لن تصدأ ولن تبور.

4- وأنا الطارئ على حياتهما بجنسية غريبة وشكل آخر ومزاج لاديني وحالة  
غريبة بينهما لا تؤمن بالحلال والحرام ولا قصة النسب المعقدة.

أفكر كثيراً بريحانة التي منحتني طفولتها الفذة من دون أن تدرك  
حجم تلك المُنحة العظيمة لكنها اكتشفت فيما بعد حجم الرعب الذي  
هي فيه فكبر القلق فيها وكنت أراقب ذلك القلق وكنت أتمناها أن تبقى  
لي وحدي.

أحب رائحتها الملائكية الفذة ورائحة جسدها المتشكل من كوكيتيل  
عجيب لا يمكن لي أن أشمه في مكان آخر أو في جسد صبية غيرها؛  
وحتى زهور التي تضاهيها في الطفولة لا تملك مثل تلك الرائحة في  
خطوط جسدها المرن وانحداراته وتنوءاته الطفولية المثيرة.

مرة جئت ثملاً وكان عقلي يرسم خطة ساذجة بأن أصرح بديعة بحبي لريحانة وأن تكون لي لا أدري بأية صيغة وأن آخذها معي الى أميركا وأبعدها عن مخاطر بغداد ومخاطر الألم الذي تعيشه بانتظار وهم عودة والدها.

كنت جاداً بديعة أختي قد تفهمني، لكن سوطاً شلّ لساني حينما رأيت بديعة ووجهها الحزين العظيم؛ أخت الماضي وذكرى القرية المتبقية لي؛ بديعة الجمال والحنان والدلال فانعقدت روحي وجسدي وصحوت على نفسي في اللحظة الفارقة قبل أن أكشف السر المميت.

1- ريحانة تراني ولا تراني.

2- أشمها كل لحظة ولا تشمني.

3- أستأنس لمطلع وجهها الصغير

4- لكنها تديره عني

5- فقد أكون بعينها الزيتونيتين وحشاً اغتصبها

6- أنت ريحانة البنات وعطرهنّ المسفوح على جسديك.

أشعر بمتناقضات من أجل ريحانة. أرى فيها صورة بديعة، وأرى من خلالها صوراً كثيرة طمستها ثلاثون سنة قديمة يوم تركت القرية هارباً من الخدمة العسكرية في مغامرة فظيعة؛ مثلما أرى في بديعة صوراً أكثر قوة وهي تحاول استدراج ذاكرتي الى هناك؛ حيث طفولتنا واحدة وقرينتنا واحدة في حياة تكتظ بالبط والطيور والبساطة والعباءات والدشاديش والبنادق والصيد والأعراس والنهر والقصب والخراف والأبقار والنايات والرعاة، قبل أن تلتهمني أميركا العملاقة بكل ما فيها من جمال ساحر وعمارات زجاجية ملونة وخدمات كثيرة ونساء لا يُتعبن الرجال

في العلاقات وصبايا بعمر النهود الصغيرة وبحر أزرق وشواطئ لذة  
وبيرة بيدوارز وقطارات أطول من الذاكرة ومحطات ومطارات مزدحمة  
بالحرية المفتوحة.

بعد أربع سنوات تجذر وعي الأثني في ريحانة وأدركت إن كل ما  
جرى هو موت أول لها لا مفر من التخلص منه أو تنتظر موتاً أقسى  
منه، مثلما أدركت على نحوٍ تقريبي حينما أخذت أتوغل في روح بديعة  
وملامحها الحزينة وقرويتها وصمودها العجيب أمام أنوثتها المتروكة.  
1- فبديعة حمقاء.

2- فهي ما تزال جميلة بجسم لاف ووجه جاذب وطول انيق وعينين  
قرويتين،

3- حتى صدرها - كما أراه دائماً - يريد أن يشقّ ثوبها

4- فهو مخنوق ومحبوس في سجن القرية الذي تحمله معها،

5- لكنها وفيه لزوج مخطوف أو مقتول أو مجهول المصير؛

6- وكعادة القرويات أن تذبل أعمارهنّ وينتهي الأكسباير فيهنّ من أجل  
زوج ربما سافر أو هاجر أو تزوج أو مات.

7- كنت أقول أن أختي حمقاء جداً لا تعرف الحياة ولا جمال الجسد  
وفورانه.

8- مدجّنة كدجاجة بيت.

9- لكن حزنها الفظيع جذبني ونبهني إلي.

10- وريحانة تشابهها بالحزن مرتين.

11- صبية الحزن المضاعف.

12- اللعنة.

بقيت أنتظر ريحانة على الدردشة وقتاً غير قصير وكان هاتفها مغلقاً  
ولم أكن أعرف ماذا أريد منها سوى رغبتني أن تسافر معي الى إسطنبول  
فقلبي مجهد وشيء ما يستيقظ بي قد أعرف مصدره يدعوني الى ريحانة.

ربما هو الخوف من شيء مجهول.

ربما هو العاطفة المتأخرة.

ربما هو مرضي وانسداد شراييني وقلقي من لحظة مفاجئة تقضي عليّ.

ربما هو الحب أيضاً.

هذا الشوق العظيم الذي اجتاح عمري المخرب وكّرّس فيه رغبة  
البقاء ووزع في ظلامه المتراكم شمعة ريحانة بظلمها المنير ورائحتها  
الملائكية التي يبدو بأنني لا أستطيع أن استغني عنها.

### صفيير خاص - الصفيير الثاني

1- قطعت عليّ زهور ذاكرتي وفاجأتني بدخولها الى الدردشة.

3- أرسلت لي أيقونة (قلب) وردية وتبعتها بأيقونة أخرى

3- أهلا سيد مارك مساء الورد.

4- كيف الحال يا أمورة.

5- مشتاقين سيد مارك يبدو نسيئنا يا سيدي الأنيق.

6- انتم في البال يا زهور.

7- لو في البال لكنتم اتصلتم أو سألتم (مع قلب أحمر صغير)

8- أشوف الوالدين فترة وأخرى.

9- ولكننا ما نشوفك سيدي عدا تلك الليلة الجميلة بوجودكم

10 - ستكرر يا صبيتي الجميلة.

11 - سأنتظر يا سيدي الأنيق.

12 - مكانك غالي عندنا.

13 - أهكذا..؟

14 - وأكثر.

15 - سألتي منك دعوة إذا دعوتيني أنت.. مش والدك.. هههههه

16 - ههههههه انت بلا دعوة سيد مارك.

17 - سأنتظر منك أية إشارة.

18 - البيت بيتك سيد مارك.

للصبايا طعم الولادة. أحب هذا الجسد الطفولي كثيراً.

بدأت أعيد اللقاء السابق والدعوة التي دعاني اليها المعمم وأعيد ترتيبها بذاكرتي، لأرى زهور لم تفارق مكانها الى جانبي الا ما ندر وسفرتنا السوداء التي يطويها المعمم على رأسه في الصباح ماثلة في ذاكرتي ولا تبارحها أبداً.

كانت تنظر لي كثيرا ولم أتنبه لها الا في لحظات عابرة. فالمعمم شغلني بالمشاريع الكثيرة والأرباح المحتملة والكومشنات المطلوبة والثراء المقبل خلال أسابيع ثم الغناء الريفى الطريف الذي شكّل صورة القرية في داخلي بطريقة حزينة، حتى داهمنا النيذ الأحمر الذي أكثرنا منه بطريقة استثنائية.

شجعتني زهور الآن على أن أقول لها:

- متى أراكِ يا صبيّة؟

- اممممم

.....-

- أفكر

(كف صغيرة تقبض على وردة حمراء)

## الأمريكي

1- ناياتي ساكتة.

2- خرساء ومصابة بالشلل.

3- مصفوفة كما هي منذ ثلاثة أيام لا تقوى على الترتيل.

سكبت من الدموع ما يكفي لبقية الحزن الذي سيأتي محاولة أن أتجاوز خطأ آخر أوقعني فيه الست سراب، لكنه خطأ ليس جسيماً على كل حال ولو إنه كشف ضعفي مثلما كشف قوة صغيرة تمكنت من تنميتها بشجاعة قبل أن أسقط من جديد.

أنا بنت من دموع ونايات ساكتة وألم فظيع يستشري في روحي كالسرطان، وليس هناك بنت مثلي تكابد هذه الآلام وحيدة ومعزولة لا يرافقها إلا كلب ونايات ووظيفة عادية فضيلتها أن تُخرجني من غرفة الدموع والشجن الى فضاء المطر والمفخحات أيضاً.

ما تزال الحمى تعصرني ورائحة غير مستحبة تسيل من جسدي كأنها أنفاس الست سراب فتزيدني قرفاً وحقّة كنت أحاول أن أغتسل منها طيلة الأيام الثلاثة الماضية وأنظف جسدي مني ومن أنفاسها الملعونة.

ضممتني أمي وأطالت من ضمها لأشم فيها ذلك الحنان الذي لا أقوى على مفارقتة.



- خالك كل خمس دقائق يتصل ويسأل عنك..؟

رأيتُ نفسي في المرآة المكسورة شاحبة بعض الشيء. حزينة ووحيدة بلا نيات تغني وروني وحده يتفقدني ويدور حولي ويضميني بين الحين والآخر.

كانت عيناى منكسرتين الى حد واضح وهالات سوداء تحيط بهما؛ وجسدى ذابل ورائحة مقرفة في أمكنة مختلفة من جسدى وأنا استعيد بشكل عابر لقاء الميلاد التعيس للشريرة سراب.. سمعت عنك الكثير لكنى غيبة.

في الحمام مسحتُ خطيئة لقاء الميلاد وأصباغ الست سراب، وتفحصت جسدى من جديد وأنا أجهش قليلاً، مثلما خطر على بالى مارك الذى أورثنى التعاسة في ليلة جونية الحمراء ومطاعم بغداد العالية التي لم أرها من قبل.

أكلت بشراهة على معدة خاوية تقيأت منها كثيراً لثلاثة أيام مرت والتهمت الكثير من الفاكهة وعيناى على نياتى الوحيدة وروني بين وقتٍ ووقت يمضى ليلحسها ويحثني على العزف فهو يدرك إنها صامته منذ ثلاثة أيام.

تقول أمي:

- خالك طارق كان قلقاً عليك.

- .....

كانت شمس الخارج تضيء النوافذ والستائر.

- متى نزور القرية؟

ابتسمت المرأة وهي تحنو عليها:

- متى ما تشائين.

- كرهت بغداد.. كل شيء فيها أصبح قذراً..!

نظرت أمي لي باستغراب لكنني تساءلتُ:

- متى نذهب؟

- سأتصل بخالك طارق وأخبره عن رغبتك.

استفزتني أمي من جديد وهي تكرر عليّ «خالك» وكنت أنظر اليها بشفقة لكن روعي لا تتحمل ذكر اسم هذا الكائن الذي اقتحم حياتنا بعد خطف أبي.

وعلى نحو لم أتمكن فيه من السيطرة على ما في داخلي صرخت بها:

- بلا زفت ولا خالي.. خلينا وحدنا نفكر.. دمرنا هذا الطارق

الغريب.. ما يصير نفكر لوحدنا؟

ابتلعت أمي ريقها وهبط جسدها على القنفة وهي تمسك قلبها وتنظر

الى صوتي الغريب الذي علا بطريقة غريبة وهو ما لم أفعله من قبل:

- ريحانة.

- قرفني هذا الخال.. تعبت.

- هذا أبوك الآخر.. أتجازينه بشتمه؟

- لا.. ليس أبي.. انه أمريكي غريب..!

احتقنتُ وزادت عصبيتي:

- أبي مخطوف وهذا ليس أبي..!

نهضت أُمي وجسدها يرتعش:

- ماذا بك ابنتي..؟

- ليس أبي ولا خالي.. انه زفت.. مراهق.. حرامي.. شرير..

دنت مني وهي تلمح اختلاجاتي وتوتراتي:

- اسم الله عليك.. إهدأي.

- قتلني..!

لكن الكلمة لم تخرج من فمي كما اعتقد فعادت نوبة البكاء تستشري  
بي بشكل جعل من أُمي تضميني بقوة وتبكي معي وروني يدور حولنا  
حائراً.

## الكابوس

كنت أحاول الإفاقة من كابوس خالي الأمريكي بكل طريقة ممكنة لكنني وقعت في كابوس سراب ومع إن ذلك النهار انتهى بهربي من بيتها إلا أن إثم اللمس الشاذ والأنفاس الشهوانية ظل يؤذيني ويُشعرنني بأن خطأ كبيراً يجري في حياتي ورائحتي وجسدي.

كنت متقززة من رائحتها وشقتها وغرفتها ومن حالتها كلها.

الآن يمكنني أن أستعيد وجهها البشع بحمرته الملطخة والميك أب الفوضوي الذي حوله الى كتلة شمع، حتى صوتها كان قبيحاً بُبْحَةٍ رجولية فيها ارتعاش غريب لا تقوى على ضبطه. تماماً كالمسترجلات اللواتي أسمع عنهنّ.

راودني وقتها شعور إن هذه المرأة رجل بهياة أنثى وإن لعبة فظيعة مرت على الجميع خلال سنوات طويلة مع إنها امرأة مثلي حينما رأيت نصف جسدها عارياً لكنها بشهوة رجل على ما يبدو أو تتصرف هكذا لسبب ما.

لم أعد صغيرة ابنة الثامنة عشر ولا ابنة العشرين وهذا ما يقلقني ويزيد من كآبتي ويغلق عليّ منافذ الهواء وفضاء الحرية التي عليّ أن أختارها بحذر وسلام.

أعدت في رأسي ساعة الميلاد السوداء. فوجدت في ذلك الوجه أكثر من قبح وأكثر من صورة بائسة لامرأة مسكينة فقدت أشياء كثيرة في حياتها لا أعرفها، وربما أتخيل بعضاً منها الآن في أجوبتها المقتضبة وسلوكها الشاذ معي.

- 1- تركتُ هذه الوحشية ونظرت إليها من زاوية أخرى.
- 2- تقول إن خالها مات منذ زمن بعيد.
- 3- كانت عيناها تختلجان لكنها شاطرة بإخفاء كل شيء.
- 4- ربما هذه السراب الثانية التي بقيت على قيد الزمن والتي تكره الرجال وتخافهم.

5- هل الست سراب أنا؟

- 6- لكنني لست كذلك ولا أملك مثل هذا السلوك المخيف.
- 7- هذه صورة قدرة ووحشية وأنا بريئة وحزينة.
- 8- لكنه خالي المزعوم الذي هبط علينا كلعنة الحرب.
- 9- إنه هو السبب.

10- أمريكا كلها السبب،

11- لكنني جبانة. أخاف. لا أنتحر.

12- ستكون فضيحة تقضي على أمي.

13- لا سر يبقى سراً بعد الموت.

14- الميت مكشوف كعريه.

15- أفكر بألم لكنني أجد الحياة ممكنة في هذا الخراب الكبير.

16- وأبي قد يعود يوماً ولا يجدني في الحياة

17- ستكون كارثة وعاراً عليه.

- 18 - أحبه بشكل مجنون وسأبقى على هذا الأمل طويلاً.
- 19 - أُمي ذبلت من أجله وأنا أذبل كل لحظة.
- 20 - أنا أحمل عاراً لا يستهوي أبي.
- 21 - أنا غير سعيدة ورائحتي تؤلمني؟
- 22 - خالي الأمريكي خدعني في جونية وقضى على طفولتي.
- 23 - يقول الأنثى هي الأنثى والعناوين أكذوبة الدين والمجتمع والحياة هي ذكر وامرأة مهما كانا.
- 24 - هل صحيح هذا يا أبي؟
- 25 - أبهذه البساطة يعلّمني على مفاتيح جسدي؟
- 26 - هل الجسد مباح الى هذا الحد؟
- 27 - الست سراب أيضاً حاولت أن تستغفني.. أرادتني أن أكون ثملة.
- 28 - لم أفهم حتى اللحظة كيف يمكن لامرأة أن تنال من جسد امرأة غيرها؟
- 29 - أخاف أن أسبب أذى أكبر لأُمي ولن أقول لها شيئاً.
- 30 - اناغيك أنت فقط لأنك أبي العظيم.
- 31 - لم هذا التزاحم على الجسد؟ نساء ورجال يتناوبون عليه!
- 32 - من أين جاءت رائحتي؟
- 33 - من هذا المشط الملعون؟
- 34 - أُمي لا تعرف شيئاً. تقول إنه وراثة نساننا!
- 35 - الست سراب تقول إنها تحبني.
- 36 - ماذا تركت للرجال إن كانت تحبني.. وهل هناك حب بين النساء؟
- وجدتُ أكثر من «طلب صداقة» ينتظرنني فعرجت على الأسماء.

الكثيرة وطالعتني صور أصحابها المستعارة والحقيقية وكانت الأسماء  
تتحذف تباعاً من دون رغبة بإضافة أي منها. لا رجل ولا امرأة.

وكاد أحد الأسماء يلتحق بالأسماء المحذوفة لولا الصورة التي  
وقفت أمامي ببذلة عسكرية لشاب تعلو كتفه نجمتان فضيتان وبوجه  
ينظر إلي مباشرة.

قرأت اسمه وتأكدت انه Adil ضابط مكافحة الإرهاب الذي التقيته  
قبل أسابيع في غرفة سيدة القسم الإدارية والدته أم عادل.

تطلعتُ إليه من جديد وتذكرت اللقاء الأخير الخجول المتوتر فأعدتُ  
صورة عينيه مثلما أراهما الآن مع ان اللقاء كان سريعاً وأنا مرتبكة الا أنّ  
صورته شغلنني بعض الوقت من دون أن تترك أثراً كبيراً بي.

أعدتُ النظر بصورته من جديد وقرأت اسمه اكثر من مرة ثم قلبت  
صفحته وتمليت بصوره الكثيرة لمناسبات عسكرية واجتماعية مختلفة  
مع أصدقائه والقسم الأكبر كان لصوره في جبهات الحرب المتعددة.

ضغطت على «الموافقة» وأصبح ضمن أصدقائي القليلين فتركت  
الصفحة باحثة في الإشارات الحمراء التي تشير الى إن رسائل معدودة  
في صندوق البريد.

## الخيال

ريحانة جُمارة مصقولة. لكن فرحتي لم تكتمل. يبدو هناك ما تخاف منه. لكنني سراب أعرف ما يدور في السر والعلن هههههه مع هذا سأبقى أحبك يا بنت.

تدمدم وهي تلتصق بطنها على فراشها المبعثر ثم تدندن بأغنية راقصة تهز فيها مؤخرتها المرتفعة.

تجد شريط الفيديو المثبت على واجهة اللابتوب فتضغط برنامج التشغيل Playar وقلبا يخفق بفرح بأن تعيد الحياة من جديد في تلك اللحظات السعيدة التي كانت فيها الفتاة، فيتسع خيالها الناشط المُدرَّب وتحوّل ساعة اللقاء المتوتر الى حقيقة فيلمية تخلط فيها رؤيا لاهثة برؤية لم تسعفها بأن تكون العاشقة المثلية لفتاتها التي لم تبدُ كدمية تتحرك بكونترول سري كما كانت تتوقع.

1- أحب هذه الأعمار العشرينية التي كنتها ذات يوم بعيد.

2- أرى نفسي فيها وأتمثلها.

3- أحبها وأكرهها في آنٍ واحد.

4- يا ليتني أعود إليها

5- ويا ليتني لم أكنها ذات يوم وذات عمر.



6- خالي مات فقد كان ولتي وتركني سائبة ووحيدة تنقصها الكثير من الأشياء التي يبحث عنها الرجال حتى تقدم العمر وأنا لا أملك من ذلك شيئاً.

7- مات مع خالي وحمل السر في موته.

8- وسيموت خالك يا ريحانة وتصبحين وحيدة مثلي

9- وأملك العجوز ستصبح مثل أمي التي استقبلتك في عيد ميلادي.

10- أكره الرجال.

11- جسد المرأة يجب أن لا يمسه رجل.

12- الرجل قضيب يابس لا روح فيه والمرأة حديقة عطرة.

13- الرجل محراث والمرأة تنور ملتهب.

14- كلهم أقل شأناً من المرأة لكن الله فضّلهم علينا بشكل غير معقول.

15- المرأة للمرأة.

16- جسد المرأة حديقة فيها أزهار وطيور وفراشات ورحيق

17- لكن ركض عمري بسرعة وبسرعة سأصل الى الخمسين

18- وقد فات أوان اللصق والترقيع يا حلوة.

19- ما أطيبك وما أعطر رائحة شعرك وجسمك.

20- هذه أنت الحلوة برائحتك العبقرة

21- وسأعيش وقتاً طويلاً على هذا التسجيل.

22- لا تقلقي مني.

23- سر المرأة للمرأة وخيالي لا حدود له.

24- وليس للخال يا حلوة..!

## نابات الجسد . الناي الثالث عشر

- 1- تدخل ريحانة مترددة بعودها النحيف.
- 2- يبدو من التسجيل أن الكاميرا كانت ملصقة على المروحة الساكنة فاللقطات تكشف زاوية التصوير من الأعلى.
- 3- تتحول عيناسراب الى رادار في لحظة أراقتها من البداية أن تكون مثيرة.
- 4- أوووف من جسدي
- أوقفت الفيلم وتناولت سيجارة KENT طويلة. أشعلتها ثم استأنفت العرض في الخيال الباهر:
- 5- شفتان ناعمتان ترتعشان كأنهما شفتا طفلة.
- 6- عينان خائفتان من المكان.
- 7- جسد برائحة فذة لكنه لا يستسلم بسهولة.
- أوقفت العرض.
- 8 - خلعت بيجامتها واستلقت بعد أن أطفأت السيجارة وعادت الى فراشها تشاهد اللحظات المسروقة من الفتاة.
- 9- تلهث وهي حائرة بجسدها الفضفاض.
- 10 - ما تزال ريحانة كما هي.
- 11 - نهذ صغير وحلمة وردية بحجم حبة الرمان.
- 12 - تلهث بصوت مسموع على المكان الذي أخرجته خيالاً بأصابع خبيرة فوجدته الآن مثل فلقتي باقلاء لم تنضج بعد.
- 13 - يقشعر جسدها وهي تنفرس بلسانها الذي يتذوق فلقتي الباقلاء الغضة.
- 14 - تدب حرارة بين فخذيهما في لحظة التوتر العظيمة فتفتح ساقيهما

- للكثير من المياه الجارفة التي أغرقتها بالتدرج بنشوة مثالية تدربت عليها في أوقاتٍ مختلفة.
- 15 - عصرت ما بين فخذيهما ولسانها يتلمظ في المسافة الساخنة بينها وبين شاشة اللابتوب.
- 16 - كانت تمد خيال لسانها في فلقتي الباقلاء الغضة وتتذوقه.
- 17 - وهي تعصر ما بين فخذيهما وتحرك حلمتيها على الفراش المبتل بعرق جسدها وهو ينضح ويتربط كثيراً مندفعة الى شاشة اللابتوب متأوهة بحرقه، فيما الفتاة ساكنة تنظر بقلق وشك الى جسد امرأة الميلاد وأصباغ وجهها الكثيرة.
- 18 - تنقذ روحها على الفراش ويتبلل فخذها مثلما تبللتا في التسجيل وهي تشمم رائحة ريحانة،
- 19 - فترافقت اللحظتان؛
- 20 - واقعاً مسجلاً تملأه الفتاة بسكونها
- 21 - وخيالاً تحركه المرأة بطريقة عجيبة؛
- 22 - كفّ اللهاث فيها في لحظة سريعة،
- 23 - ثم انطفأت كراس السيجارة في عرقها الغزير.
- 24 - أوقفت التسجيل.. وشششششش.

## القيء

لم يكن الطبيب مقصراً في تشخيصه من جديد في انسداد شرايين القلب وهو أمر أعرفه قبل الدخول الى بغداد؛ ومع بضعة أدوية وتوصيات جاهزة تتعلق بالإجهاد وجدت إنني لست على ما يرام منذ فترة غير قصيرة وإنني أتفلس بصعوبة في كثير من الأحيان ونبضي متباعد يشح فيه الهواء عليّ.

صدري فيه مشكلة قديمة وشراييني تنغلق وتفتح حسب مناخ المزاج النفسي وحينما أخبرتني بديعة بأن ريحانة ليست على ما يرام وإنها شاحبة ومريضة وتتقيأ منذ يومين اضطربت قليلاً أو كثيراً وزاد تباعد نبضي.

قبل ثلاثة أيام أودعت بعض المال في بيت بديعة وهو جرعة زائدة من عمولات مختلفة تأتيني من مشاريع لا أعرف مصداقيتها غير إنني أفرز منها جزءاً مهماً الى الجنرال آلن وأرسله كلما أسافر الى خارج العراق.

أودعت كثيراً من المال عند بديعة.

رزم كثيرة لا أعرف عددها ائتمنتها لديها فهو مكان آمن جداً لي.

كانت ريحانة كما هي في كل يوم صبيتي الجميلة التي أرتاح لرؤيتها وأشعر بالوقت ذاته بالقلق وربما الخوف من كل شيء حصل في جونية وهو خوف يتولد كلما ألمّ بي ألم في قلبي.

ربما خوف غريزي لا أعرف مصدره أو صحوة روح كانت ملبدة بالسواد والكآبة.

مرة قلت لها: أفكر بالرجوع الى أميركا فقد أصبح لدي مال كثير.

1- ارتبكت الزيتون في عينيها.

2- وغمُقت سُمرتها بطريقة عجيبة

3- تلبّد وجهها بالخوف وتحولت الى قطعة جامدة

4- قرأت فيها الكثير من الرعب.

5- جفّ دمها في وجهها وامثلت لصمت عميق مخيف

6- خلتها ستنتفض بعد لحظات لتهشّم رأسي.

في البيت وجدت بديعة مرهقة لكنها كانت تخفي ذلك بابتسامتها الجميلة.

- طمنييني.

- اليوم أفضل.. تناولت الفطور ورجعت الى الفراش.

- شو حصل؟

- عادت من حفلة ميلاد موظفة معها وشكلها تعبان.. تقيأت وبكت

وانهارت بشكل مفاجئ.

استنطقتُ شفّتي بديعة:

- هل تعرضت لسوء.. هل ضايقها أحد؟

- لا.

- سأخذها الى الطبيب.

- تقول إنها تشعر بضيق فقط..

- وليش تبكي؟

- ما تزال صغيرة وغياب والدها يجعلها تبكي بين فترة وأخرى.

وجدتُ الكلمات تنحسر في فمي وشعرتُ بضيق من شيء ما  
وصورة الفتاة تراود مخيلتي بأوضاع متعددة، فاختلطت لحظتي المرتبكة  
بلحظتها الغائبة وعيناي على الباب الموارب لغرفتها المغلقة.

- لا بد من طبيب.

- هانت الحالة إن شاء الله لا تقلق.

ثم عادت تسألني:

- أنت كيف صحتك.. شنو بيك؟

كان وجهي يميل الى الشحوب قليلاً وصدري يعلو ويهبط:

- كبرنا يا أختي.. وهذه أمراض الكبر.

- أنت متضايق أيضاً من جماعتك.

- هذا زمنهم.. أكلت منهم بشطارة ويريدون أكلي بعدما انفضحوا..!

- لم أفهم.

- لا تهتمي.. تشغلني هذه البنت.

خطوت الى غرفتها بقلب متردد ينبض أكثر من المعتاد.. تقيأت؟

شعرتُ إنني منزعج وقد وخزنتني المفردة فازدحمت في رأسي الكثير

من المخاوف والاحتمالات والهواجس التي حاولتُ أن أسيطر عليها  
متردد الخطوات أمام باب غرفتها كما لو كان شبح مخيف يسكنها في  
لحظة وجدتها صعبة ومؤذية، أو هكذا تراءى لي:

-ريحانة..

وجدتُ صوتاً ضعيفاً وحائراً بي فالتفتُ الى بديعة التي سارعت:  
- خالك يريد يطمئن عليك.

سمعت انزلاق لسان القفل في الباب بإشارة فورية مربكة تصاغرتُ  
أمامها من الداخل فطرقْتُ الباب ودوّرتُ قبضته لكنني تأكدت من أنّ  
الفتاة أفلته قبل لحظة، غير إن بديعة تداركت اللحظة المزعجة غير  
المتوقعة:

- نوبة بسيطة وستتعافى.

رجعت بشعور متخاذل وجلست على القنفة من جديد:

- تأمل أن يعود والدها يوماً.

- إن لم يعد فأنا.. والدها!

قلت هذا بما يشبه اليقين بالرغم من ضعف صوتي واختلاجاته التي  
ظهرت في تركيب الجملة العفوية.

- تحدثني في بعض الليالي انها تحلم به في كل وقت.. كانت تقول  
بابا لا يشبهه أحد.

تنضغط أصابعي ببعضها ثم أرفع قسماً منها لأحكّ رأسي كأنني  
سأفقدته في أية لحظة:

- أ..أنا احبها كثيراً.

- الخال أب مثلما يقولون...!

غيرت الحديث بطريقة لا أعرف إن كانت مناسبة أم إن بديعة  
أن تلمح اضطرابي الذي حاولت أن أخفيه:

- ضروري نعرضها على طبيب.

- خلي يمر هذا اليوم.. وأنا اتصل بك.

- إن شاء الله سلامات.. سأكلمكم مساء.

- 1- لم تلحظ انخطافات وجهي
- 2- ولا جفاف شفتي
- 3- ولا صوتي المتعثر
- 4- ولا قلقي الذي يشبه الخوف
- 5- سوى إنها رأني شاحباً بعض الشيء
- 6- بسبب تكرار نوبات قلبي التي تعرفها.



# قریتنا



(1)

أوصتني أمي أن أَلْفَ رأسي بالحجاب طالما أكون في القرية.

قالت أنت بنت بغداد وبنات القرية لا يرتدين البنطلونات ولا البيجامات ولا الملابس الدلع.

كنت أعرف هذا من دون وصية، فبغداد أصبحت كلها حجاباً أسود وضاعت فيها ملامح البنات والنساء وتشابهنَ الى حد كبير، مثلما ضاعت فيها مباحج يومية كثيرة واختلطت ألوانها بطريقة بشعة، وحتى صديقاتي غير المسلمات في الدائرة والوزارة لففنَ رؤوسهنَ بالحجاب تقيةً من الشارع المنفلت وهنَ يمشينَ بحذر وقلق في جو مشحون بالتدين الكاذب والشعارات المذهبية الرخيصة.

كنتُ أعرف إن القرية لها أجواؤها الشخصية، وبناتها لا يشبهن بنات بغداد وملابسهنَ فضفاضة وطويلة لا تشبه ملابسنا وأجسادهنَ مخفية بحذر وعناية، لذا هيأتُ نفسي لكل هذا وأنا أمضي الى قريتنا برفقة أمي كأننا غريبتان ذاهبتان الى المجهول وفي رأسي صور كثيرة لا أستطيع الإمساك بواحدةٍ منها سوى ذلك الألم بجرحه المفتوح، لكنني أحاول أن أقرب من صورة القرية الأخيرة التي رسمها لي والدي ذات يوم وأطرد الكآبة التي تسحقني بلا رحمة.

خالاتي أعرفهن كأشباح واقاربي هناك أعرف بعض أسمائهم ولا أستطيع الجزم بأنني أعرفهم تماماً. لكنني رأيت بعض أعمامي وأولادهم في مصيبة خطف والدي وكانوا متوترين يبحثون عن أي دليل يقود الى والدي المخطوف. كانوا قرويين في كل شيء وبدوا في المدينة كأنهم عراة بلا بنادقهم فسارعوا الى الرجوع لقريتهم بعد يومين فقط وعيونهم تومض بالشرر وقلوبهم تبكي وأجسادهم ترتعش.. كانت بغداد بالنسبة لهم غابة وحوش.

القرية ماضٍ مغمور بالنسيان بالنسبة لي.

وصفة طبية تأخرت على نسبي القديم.

لم تكن تهمني كثيراً سوى ما أسمعه من والدي أحياناً وهو يلوذ بأهله في مناسبات معينة أو ما تحكيه لي أُمي عن أحداث مضت هناك وأسماء لנסاء ورجال ما تزال تتذكرها فأرسم لهم صوراً غامضة أغلبها رأيتهم في الأفلام الوثائقية وأنا أبحث عن أشجان الناي وأحزانه في حناجر الريفيين.

1- أُمي يكتنفها الحنين لقريتها لكن بغداد تُبقيها.

2- تتمنى القرية ولا تتمناها.

3- لبغداد سحر وللقرية سحر

4- وأنا مشدودة بينهما.

5- أبوكِ علمني حب بغداد

6- لكنه رحل فبقيتُ من أجلك؛ تقول أُمي؛

7- وأنا البغدادية المنقطعة عن تلك القرية حينما امتصتُ إسفنجة بغداد

أبي منذ وقت طويل وامتصتنا معها.

8- فكبرت على هذا الفراق ولم يعد يهمني أمره كثيراً.

9- لأنني ببساطة لم أر القرية من قبل.

(2)

بحجابٍ رصاصي ثقيل اللون محكم الشدّ وثوبٍ نيلي فضفاض وعباءة إسلامية جديدة كنت أحشر جسدي الصغير بجانب أمي التي تتابها إغفاءاتٌ متكررة وحينما تفيق تسألني عن الوقت المتبقي الى القرية، فأشجعها على النوم كي لا يعاودها الصداع وينتفضض ضغطها. تلقي رأسها على كتفي محاولة أن لا ترى الشارع وتخاطف السيارات المقبلة من الاتجاه المعاكس والتي تشعرها بالدوخة، بينما تتابني صور كثيرة أشبه بشريط مفزع يحيط بذاكرتي ولا يغادرها، وكأنني غادرت الطفلة بي وألجأتني الظروف الى طريق طويل لا أعرف نهايته؛ ولفرط تكراره عبر مشوار القرية الطويل ضجرت من نفسي وكرهت كل شيء في داخلي، فأخذت أحلم بالقرية وخالاتي وأعمامي وأقاربي وبساطة الحياة التي أتصورها هناك والألفة التي أفتقدتها في العاصمة، هاربة من بغداد والدائرة والوظيفة وصورة خالي القبيحة لا تفارقني التي لا تضاهيها في القبح الا صورة سراب.

لا توجد عندي صديقات ولم يحدث أن بقيت صبيّة قريبة مني في كل مراحل الدراسة، حتى ظهور موجات الرائحة في جسدي التي يتكالب عليها نساء ورجال وحوالتي الى أنثى من نوع لا أفهمه حتى الآن، وكدت أمضي بهذه السعادة الظريفة التي جلبها لي الحظ التاريخي في مشطي الأبيض الصغير لولا غفلة البنت الصغيرة بي ومراهقة الجسد الذي لم أكن أفهم أسراره الرهيبه على نحو تام.

روني يشغلني كثيراً.

تركناه مربوطاً في بيت الجيران مع وصايا كثيرة مني.

أتذكره الآن ودمعة تكاد تطفر من عيني فهو صديقي كل يوم الذي ألوذه ويلوذي.

لا يأكل إلا من يدي ولا يأنس إلا بوجودي لكنه سيعتاد الجيران فهو ذكي سيدرك إننا في سفر قد تطول أيامه بعض الشيء.

أحب شكل الذئب فيه وعينه الرماديتين ولونه البني الغامق وأمانته وإخلاصه وحبه لي.

يتشي بأنغام النايات ويصبح كلباً ودوداً ويتحول الى حالة طريفة جداً، فأشعر إن لهذه المخلوقات عواطف نجهلها ولا يمكن حتى أن نتخيلها.

دائماً أفكر وأنا ألعب معه في غرفتي:

لماذا لا نصادق الكلاب بدلاً من البشر؟ ولماذا لا تكون الدوائر كلها كلاباً بدلاً من الست سراب والمنقبة الغامضة وغيرها؟

ولماذا لا يكون الأحوال مثلاً كلاباً مثل روني الوفي الذكي بدلاً من خالي مارك أو طارق؟

حينها أتصور إن العالم يصبح مستعمرة من الكلاب فأتردد وأقلق وأخاف وأعود الى روني في موبايلي متفحصه صورته الكثيرة والتسجيلات الفيلمية المتعددة له وأمي نائمة على كتفي بشخير خفيف.

أكرر على أُمي دائماً: إن لدى روني حاسة فريدة بمعرفة الغرباء..  
فتضحك علي وتعتبرني مهووسة بروني.

(4)

رنين هاتفي يشوش خيالي كثيراً، وحينما أرى صورة الخال طارق بنظاراته السوداء العريضة في الشاشة الصغيرة أتشأم وتنقبض روحي فلا أردد، وعندما يكرر الاتصال مرتين وثلاثاً أتجاهله، وحينما تصلني منه رسائل قصيرة أعمد في النهاية الى إغلاق الهاتف كلياً وأخنق صورته وأسكت صوته، لأعود صافئة مع اختناضات السيارة وشخير أُمي الخفيف على كتفي، فتطوف بي حماقات الخال لكنني أبعدها بقوة مُحتمية بأُمي النائمة وبشواهد جانبي الشارع الكثيرة من بساتين راکضة وبيوت تنقذف ورائي ونخيل يتقدم ويختفي وأرض مزروعة تتموج ولا تستقر، وبعد ساعتين أو أكثر تظهر مساحات زراعية واسعة تشكّل بساطاً أخضر مفروشاً على جانبي الطريق كما لو أنّ الأرض انفتحت عن باطنها المخفي الجميل.

أتخيل شكل القرية كما رأيتها في التلفزيون وأفلام اليوتيوب في أغاني المطربين.

أتخيل المكان المفتوح بلا عمارات عالية ولا شوارع وأرصفتة وصخب وسيارات ولا يوجد غير النخل والشطّ وحوريات النهر والبط والرجال الأقوياء والطيور المهاجرة والأعراس والبلابل التي تصلي في الفجر والأولاد الذين يمسون الأفاعي بأيديهم ويصطادون السمك بسنّارات صغيرة وتنانير الخبز.

أتخيل الاخضرار الطافح في البساتين والمزارع الواسعة والبيوت  
القديمة وزراير البيوت وحكايات كثيرة لأسماء ملأت امي رأسي بهم..  
ترى من بقي منهم حياً؟ وكيف سأعرفهم؟

كنت أفكر بشكل البنات والنساء والأطفال كأني سأزور عالماً غريباً  
أسمع عنه كثيراً في مرويّات أمي ويوم كان أبي حياً وبعض الصور القديمة  
التي يحتفظ بها أبي لجدي وله وبعض أقارب لا أعرفهم تماماً.

ربما مرة رأيت فيلماً وثائقياً في إحدى القنوات عن قريننا وكان  
أبي منزعجاً لأنه لم يتعرف على الوجوه المحفوظة - كما قال - والتي  
احتلت الشاشة لكنني كنت أتماهى مع خيال المكان وأبحث عن النسوة  
الملفعات بالعباءات وتستثيرني خطوط ونقاط الوشم على وجوههن  
الباسمة مثلما كنت أتناغم مع الطبيعة والنهر وبساتين النخيل الكثيرة.  
وقتها قال أبي: القرية تغيرت.

ولم أفهم كيف تغيرت وكيف كانت. إلا أنني كنت سعيدة لرؤية  
النساء الموشومات وهن يخيزن بالتنانير الطينية قرب النهر الجاري  
المليء بالماء والصفصاف النابت على ضفافه بشكل كثيف ومن خلف  
المشهد أصوات لطيور وغناء أبوذيات وصدى نايات بعيد وخوار أبقار  
وثغاء أغنام ونباح كلاب.

(5)

في حقيبي السوداء مشطي الأبيض الصغير.

تحسسته أكثر من مرة وتأملته مرات ونظفتُ أسنانه المتراففة أكثر



من مرة كما أزلتُ شعرات كانت عالقة به ثم دسسته في مكانه كأى شيء  
ثمين سأوصله الى مسقط رأسه وأنتظر القرار بشأنه.

في رأسي أشكال العجائز الباقيات من السلف القديم اللواتي ربما  
يعرفن حكاية المشط المتوارث ورائحته الغريبة وما يتركه من لمعان  
حريري جذاب.

كنتُ أتخيل شكل النساء القديمات - جداتي الميتات يوم كنّ شابات  
وأسنان هذا المشط تمر على رؤوسهن من أطراف الشعر النازلة ثم يصعد  
الى أعلى كما أمي أوصتني منذ يفاعتي أن أمشط بهذه الطريقة فيكتسب  
شعري عطراً فواحاً غريباً ويزداد لمعانه وبريقه مثلما تزداد نعومته، لكنها  
لا تعرف لماذا التزمت بهذه العادة سوى إنها قالت لي أكثر من مرة:  
حتى يطول شعرك ويمتلئ بالرائحة ويكون ناعماً.. نصف جمال البنت  
شعرها.. هكذا تردد أمامي.

ومن أين تأتي رائحته؟

أوووه انت تسألين كثيراً.

تفز أمي من إغفاءة أخيرة وتتطلع الى الطريق تتمتم وأشعر إنني تعبت  
من الفراغ الأجرد وخيالاته فأنام على كتفها من دون أن أقول شيئاً ولا  
أسأل عن المتبقي من الوقت للوصول الى القرية.

(6)

كما لو أنني من جنسٍ آخر هبط على القرية بعد ساعات صحراوية  
وزراعية متناوبة وخيالاتٍ لا حصر لها وقلق لا مفر منه، أحاطت بي

خالاتي وأقاربي وبنات ونساء وصبيان ينظرون لي بعيون مشدوهة، مما أشعرتني بالإحراج وتبلدت قليلاً وأنا أسلم على نساء وفتيات يأخذنني بالأحضان والتقبيل فأشم عطوراً قروية متشابهة في فوطهن، ولم تسعفني لباقتي بأن أجاريهن بالترحيب المتكرر السريع، غير أنني تركت الأمر لأمي المصدوعة وهي سعيدة أن تعود إلى أهلها وأخواتها وعشيرتها.

استقبلتنا خالاتي الثلاث بالتناوب: سعدية. وهيبة. جميلة. وهب الصبيان والصبايا لاستقبالنا ونساء أخريات في عمرها أو أكبر بقليل أو كثير: أم عبدالله ذات الوجه الباسم. الحاجة أم عباس بفوطتها البيضاء التي تطوق كل وجهها فتبدو كأنها غرنوق أبيض. الزايرة هاشمية. كلثومة العرجاء بطلة وجهها الضحوك. سَمرة وأختها التوأم تَمرة وكانتا فلقنتين مفشوقتين من ثمرة واحدة وبعيون كبيرة مكحولة لَماعة.. ما أجملهما.

خالتي سعدية ضمتني إلى صدرها وشمّنتني بحنان فشمتت بها رائحة مسك كمسك فوطة أمي، وخالتي وهيبة بدت أكبر سناً من عمرها بوجهها المطرّز بالوشم ذلك الذي رأيت مثله في التلفزيون ذات مرة. حزينه وكثيبة لكنها تحاول أن تبتمس بوجهي.

تذكرت مرة قالت لي أمي فيها إن ابنها الوحيد استشهد في الحرب فجلّلها الحزن وافترسها كآبة الأمهات المفجوعات. أما خالتي جميلة فهي جميلة فعلاً بعمرها الثلاثيني. هادئة وأنيقة ووجها صافٍ مثل المرأة سوى نقطة واحدة خضراء تتوسط حنكها وجدتها غير ملائمة بصفاء وجهها الجميل.

عجوزان دبّتا إلينا وهنّ يصلين على الرسول وآل بيته ويتحسسن

طريقهنّ الينا، يقودهما صبي بدشداشة قصيرة مفتوحة الزيق وهو ينظر لي بتعجب.

نهضت والدتي واحتضنت العجوزين ونشجت معهما قليلاً.

نهضتُ وراءها وعانقت العجوزين من دون أن أعرفهما، وبجلوسهما أصبح المكان حلقة دائرية من نساء وبنات وصبيات وصبيان، وكانت أمي توزع التحيات على الجميع بشطارة محاولة أن لا تنسى أية امرأة وتناديها باسمها أو اسم ابنها الكبير.

كنتُ في موضع نظر الحلقة الدائرية التي تشكلت بسرعة غريبة. أنا ابنة بغداد التي تزور القرية وتعود الى أصلها وفصلها وجذرها الريفي القروي، بشعور جميل خنقني بالحب الجارف والفخر المفاجئ حتى كنتُ أغلب العبرات التي تجتاحني بين لحظة وأخرى وأنا أنظر الى الوجوه المحدقة بي بالرغم من أنني أشبه الكثير من البنات بالسمره ذاتها والطول المعتدل ونحافة الجسم ووزنه كما يبدو لي، لكن بنت بغداد تختلف عنهنّ بالكثير مما أعرفه ولا أعرفه.. وهذا أول إحساس داخلي راودني.

زحفت إلي صبية وسألتنني عن اسمي بخجل فلاعبتُ شعرها وقلت لها اسمي ريحانة فطارت الى صويحباتها كمن اكتشفت سرّاً مهماً، فيما انهمكت أمي بأحاديث جانبية مع بعض النساء اللواتي لا أعرفهنّ سوى خالاتي الثلاث.

(7)

على جرف النهر الوحيد تمشّط النساء شعورهنّ الطويلة ويسرّحنها

حتى ما بعد خصورهنّ ويضفرن جدائلهنّ بطريقة مريحة، فالنهر الذي يلتف على بيت خالتي سعدية تغطيه أشجار النبق والصفصاف والغرب ليترك مكاناً أشبه بالخيمة الغصنية التي تخفي النساء عن أعين الرجال، مع إنه لا يمكن لغريب أن يكون هنا، لكن هذه طبيعة المكان وسريته لنساء اعتزلن المدينة وبقين في القرية التي يتوفر كل شيء فيها من الكهرباء وأنابيب المياه والسيارات والتلفزيونات والموبايلات الحديثة التي يجلبونها من سوق قضاء القرية القريب.

لم أخرج كثيراً الى السوق سوى مرتين وبقية أيامي كانت في البستان العامر لزوج خالتي سعدية وضيافات متعددة بين البيوت وأنا مغمّطة بالحجاب الذي أغير ألوانه بين يوم وآخر وعباءتي الإسلامية الوحيدة اتسخت كثيراً بفعل تراب البستان في هذا الموسم الذي يزهر فيه المشمش والخوخ والعنجااص وفواكه البستان الكثيرة.

خالي حميد لم يكن كبيراً في السن، لكنه بدا مجهداً وبان التعب على غضون وجهه الشاحب. احتضن أمي وبكى وضممني اليه وقبلني على رأسي وسألني عن الخال طارق (العايق) كما سمّاه.. هذا الذي نسي ديرته واهله وناسه وعشيرته راكضاً وراء الأحزاب والمال الحرام.. سمعنا انه صار مسيحياً.. قبح الله وجهه وأخزاه في الدنيا والآخرة.

كان حزيناً وعاتباً، ولم يكن بوسعي أن أقول شيئاً سوى حشرجات خرجت غير مترابطة فخفتُ أن أقول شيئاً من دون إرادتي تعاطفاً مع الخال حميد فاكتفيت بأن هزرت رأسي.

أعمامي الاثنان ضيفانا الى البيت ليلتين بكرم كبير.

أحدهما وهو فهد كبير الشبه بوالدي المخطوف. الأنف الطويل  
والعينان الواسعتان والوجه الأسمر المدور.. عاتب أمي بحنان.. هنا  
أهلكم ودير تكم يا بديعة.. من يحميكم في بغداد.. شفتي كيف راح  
شاكر (ويقصد أبي).. بوله بشط؟؟

تنشج أمي بصمت ولا تقول شيئاً سوى: قِسمتنا يا فهد.. باقين بلكي  
يرجع فد يوم..!

يكظم عمي فهد غيظه ويستغفر الله وتخقه العبرات في موقف كان  
صعباً علينا، أما عمي الآخر أبو سجاد المتزوج من ثلاث نساء فهو شيخ  
في القرية.

رأيت ديوانه العامر المليء بالسجاجيد ومخدرات الصوف والمصايح  
الثلجية وصور علي ابن أبي طالب والحسين والعباس والسبايا  
المأخوذات الى بني أمية في الشام.

تعرفت على زوجاته الثلاث وأنا مندهشة للوفاق الذي شفته بينهنّ  
وكانهنّ أخوات، وسحرتني الزوجة الصغيرة بطفولتها وعمرها الذي لا  
يناسب عمي ذي الستين عاماً لكنها كانت سعيدة وتنتظر أن تحبل كما  
همست لي بخجل.. وكنت أقول لنفسي أنا أكبر منها بسبع سنوات ولو  
كنت في القرية لتزوجني أحدهم وأصبح عندي حتى هذا العمر ما لا يقل  
عن خمسة صبيان هههه

رجال آخرون سلمنا عليهم وكانوا يحبون أمي كثيراً ويسألون عن  
والدي المخطوف ويتألمون لنهايته الغامضة.. بغداد هي الجريمة.. أهل  
العمائم مجرمون.. الأحزاب جابتها أمريكا وكلهم عملاء.. ميليشيات  
وجيوش صغيرة تنهب الناس وتقتلهم.. حسبنا الله ونعم الوكيل.

أفحمني الجو الأليف وغمرني احساس بأني بين أهلي الحقيقتيين  
الذين افتقدتهم منذ زمنٍ طويلٍ وتفاقم الفقدان بضياح أبي حينما خطفته  
جماعة مسلحة وحتى اليوم لا نعرف مصيره.

القرية التي أعود إليها تشدني منذ أول لحظة فيكتسحني شعور  
بالجمال مثلما يأتيني شعور بأن بغداد مدينة مشوّهة لا روح فيها ولا  
حياة ولا أقارب ولا لهفة ناس ولا سؤال ولا جواب.

(8)

في الليل ننام على السطح بالرغم من وجود مبردات كافية لكن خالتي  
سعدية تفضل الخلوة على السطح، فالجو ربيع والفضاء بارد والهواء  
طيب وعليل، وترى إن هواء المبردات يكسر العظام ويحلحل الجسم.

كانت تجربة الليلة الأولى ثقيلة عليّ لكنها ممتعة وغفوت مع الفجر  
تحت برد الليل ورائحة حقول وبساتين منعشة وصوت النهر الجاري في  
القرية وأصوات الطيور المهاجرة فوق رأسي. وعلى امتداد الظلام سماء  
وفيرة بالنجوم لا عدّ لها. كثيرة وكثيرة جداً.

كانت خالتي سعدية تحكي كل شيء وعن أي شيء في كل ليلة وأمي  
تعيد الكثير من الماضي وتسال عن نساء ورجال وأحداث بعيدة.

مرة واحدة التحقت بنا الخالة جميلة لكن ابنها الرضيع شلّ حالها  
بالبكاء والإسهال ولم تنم حتى الصباح، وخالتي وهيبة تقعد معنا ساعة  
على السطح ثم تمضي الى بيتها القريب.

كانت خالتي سعدية تغلي شعري وتشم أصابعها بين لحظة وأخرى..

المشط.. كانت تسأل.. وكنت أهرّ رأسي.. انت وريشته يا بنت أختي  
الحضرية.. وكانت أمي تسألها.. هل بقيت واحدة في القرية تتذكر المشط؟  
تقول خالتي سعدية.. انه مشط العائلة وكلنا نتذكره وما يزال شعر  
نسائنا عطراً وناعماً يشبه الحرير.. ثم تشم شعري طويلاً وتهمهم.. انها  
الرائحة العطرة التي لا ننساها.. فأسألها وأنا أشعر بنمو الرائحة الغريبة:  
ما حكاية هذا المشط؟ ما سر الرائحة فيه يا خالتي..؟

تضحك الخالة سعدية وهي تمسّد شعري: لا توجد حكاية يا بنت  
أختي.. لكن توجد حكايات ورثناها عن السلف الصالح.. وكل مرة  
نسمع شيئاً عجيباً عن قصة المشط..

يتتابني الفضول وقلبي ينبض: أريد أعرف حكاية رائحته.. شنو قصة  
المشط؟ وقصة الرائحة الغريبة اللي فيه؟

تقول خالتي: حكي قديم.. كل مرة نسمع قصة لا تشبه الثانية..

لكني أبقى أصغي للخالة سعدية بصمت مترقب.. وخالتي سعدية تقول..  
كلام توارثناه نحن النساء من جيل الى آخر حتى وصل المشط اليك..

وبإصرار أقول.. أريد أعرف أي شيء خالتي.. لمن هذا المشط؟  
كيف تخرج رائحته؟

(9)

تدور خالتي سعدية الحكاية أكثر من مرة.

في الليل تجتمع صبايا الأسرة. ما شاء الله كثيرات ولا يمكن أن

أعرف هذه ابنة مَنْ أو تلك. تعرفت على كلثومة العرجاء بوجهها الضحوك والتوأم سَمرة وتَمرة اللتين تقتفیان أثري وتحرصان على الجلوس الى جانبي.

خالتي تقول شيئاً لتنساه بعد قليل وأمي تحوك الحكايات المختلفة بين الصبايا ومشطي يتنقل بين الأيدي ليستقر أخيراً في يد خالتي سعدية. - جدتي كانت تقول لنا عن جدتها إنه في وقت قديم كانت إحدى جداتنا القديمات واسمها نبعة يرحمها الله مشوهة الوجه بسبب الحصبة التي عانت منها في طفولتها وتحولت بفعل الزمن الى آثار تحفر وجهها كأثار الجدري، فكانت تعاني من نفور زوجها الذي ما كان يطيقها وبالكد تقبض منه على ليلة في السرير فقد كان مصراً على أن يتزوج على تلك الجدة بالرغم من طيبتها وحنانها وخدمتها له ولأهله.. لكن الله تعالى فرّج عن همّها وكربتها في آخر لحظة.

تطلعت اليها وكانت تحك رأسها كما لو تريد أن تتذكر شيئاً:

- في يوم من الأيام كانت تلك الجدة ومعها نسوان السلف يغسلن الملابس على جرف النهر.. هذا النهر نفسه يمكن.. مثل ما نغسل الآن ملابسنا، وكانت الجدة مهمومة وبالها منشغلاً بزوجها ووضعها.. ولما خلصت النسوان الغسل بقت لوحدها تبكي وتندب حظها لأنها كانت شابة وما عندها أطفال وزوجها ما يريد لها.

صفت قليلاً ثم استدركت:

- كانت نبعة تروح للشريعة في أوقات مختلفة من النهار وظلت تنزل عن النسوان لتبكي حتى تنشف دموعها قبل أن تعود للبيت حزينة.



كانت خالتي سعدية تقلب مشطي الصغير بين راحتها:

- مثل كل يوم راحت نبعة الى جرف الشط قبل الغروب وأخذت مكانها تحت صفصافة وهي تبكي نادبة جور الزمن عليها الذي جعلها ليست جميلة كبنات القرية بسبب الحصبة القديمة، وحينما انتهت من نوبة بكائها نهضت قبل مغيب الشمس بقليل وكان النهر ساكناً ودخان التناير يتصاعد برائحة الخبز، لكنها تعثرت بعد مسافة قليلة بسبب مد النهر وطين الجرف فوجدت أمامها هذا المشط..!

رفعت خالتي سعدية مشطي بين يديها أمام النساء والبنات وصبايا القرية المتكومات كشاهد قديم وهي تبسم وقالت:

- هذا مشط الحوريات اللي يطلعن من الشط وقت الغروب يسبحن ويتسامرن كل يوم ويمشطن شعورهن.. لكن حورية من الحوريات نستة قبل أن تغوص بالشط فصار من نصيب الجدة اليائسة التي أخذته من دون اهتمام ورجعت الى الصريفة قبل أن يتفقدوا زوجها.

وجدت خالتي الصمت معقوداً بيننا فأكملت:

- شافته مشط عجيب ما موجود مثله بين النسوان. شكله يشبه الكف وسنونه متساوية وعليه رسم من الصويين ما كانت تعرفه مال سنو.. فأخذته حتى تشوف سنو هذا المشط..

تنشط خالتي سعدية ذاكرتها:

- الجدة تعجبت لما المشط ظل يطلع ريحه تجنن.. ورد وعنبر ورازقي ومسك ملاً كل شعرها بالريحه.. فخلت الشغلة سرية بينها وبين

نفسها لكن زوجها كل ليلة يشم عطر غريب بشعرها وبجسمها.. عطر  
يملاً الصريفة والبيت وظل وين ما يروح يشتّمه فيعرف نبعة وين موجودة  
وبأي مكان.

تضحك وهي تكمل:

- نبعة يرحمها الله اكتشفت بالصدفة إن افضل طريقة لتمشيط  
شعرها من الأسفل وتصدده للأعلى. يعني خصلة خصلة حتى توصل  
لياfoxها.

- ليش..؟

انبرت إحدى الصبايا تساءل فأجابتها:

- صدفة.. ما نعرف ليش.. بس كلما تمشّط خصلة من الأسفل يتبلل  
الشعر بريحة طيبة.. مرة مسك ومرة عنبر ومرة زعفران ومرة قَدّاح ومرة  
جوري ومرة رازقي ومرة طلع ومرة حنّة ومرة مَحَلَب.. بس أكثر المرّات  
عطر ما موجود ببساتين القرية.

قالت الخالة سعيدة:

- زوجها ارتاح لهذا العطر وبدأ يشوفها شابة حلوة مو قاصرة..  
نفسيته تغيرت كثير.. وظل هو يمشط لها في الليالي ويشم العنبر والقَدّاح  
والزعفران.. ونبعة تغيرت وصارت أحلى.. وبصراحة قالت له هذا مشط  
حورية نستة على جرف النهر وهذي هبة من الله سبحانه وتعالى.

تضحك خالتي سعيدة بينما أمي تختتم:

- عاشت الجدة القديمة عيشة سعيدة وصار عندها اولاد وبنات  
وظلت لآخر حياتها معطرة بهذا المشط نفسه..!

زارتنا بعد ليلتين الحاجة أم صالح.

امراً عجوز بالكاد تحمل نفسها لكن كتتها الطويلة ذات العيون  
المكحولة تقودها بحرص حتى أجلستها بين أمي وخالتي سعدية.

لم أسأل إن كانت من بيتنا وعشيرتنا أم هي جارتنا، فالأمر لا يستوجب  
السؤال مادام الجميع يتجمعون في أي بيت، وبتعبير أمي «الدنيا ما تزال  
بخير.. عكس بغداد.. الجار ما يعرف جاره»

أم صالح حكاة بذاكرة عجيبة ومع إن عمرها الثمانيني جعلها تتنفس  
بصعوبة إلا إنها اعتادت عمرها وضيق تنفسها.

كنت أنظر الى وجهها الأسمر وغضونها الكثيرة ورسومات الوشم  
على كل وجهها حتى بدت لي كأن الوشم صورة مرسومة ومركبة على  
وجهها.

أعابت على أمي «بغداديتها» ووخزني بكلام عابر «لا تنسين  
أصلك وفصلك» وسألت عن مصير والدي وتحسرت ولعنت زمن  
العمامت وسمت بعض الشخصيات الدينية بأسمائها وصرفت معظم  
الوقت بالحديث عن كذبهم ودجلهم وخلصت الى أن هذا الزمن يشهد  
العلامات الصغرى ليوم القيامة.

نظرت الينا واحدة واحدة بعينها الكليلتين كما لو تفقد إحدانا وكان  
منخراها يتشممان المكان بطريقة انتبهنا لها كلنا، فمضى وقت قصير  
بالصمت حتى قالت: اشم ريحة زهرة يرحمها الله.

ضحكت خالتي سعيدة:

- مرة نبعة ومرة زهرة يا ام صالح.

- زهرة.. جدتك لجدتك.

- سمعت عنها.

فيما أصغت أُمي اليها وخالتي سعيدة وبعض البنات المتراصفات  
بهدهوء نادتنني أم صالح:

- تعالي يا بغدادية.. أنت شايله ريحة زهرة.

زحفتُ اليها بخجل والعيون تترصدني وربما كنت في موضع الحسد  
تلك اللحظة.

ضمتني اليها وشمّت شعري ومرّرت أصابعها بين نعومته:

- مرة لعنة ومرة خير..!

لم أفهم.

نظرت الى خالتي والعجوز تلاعب حرير شعري وهي تتمتم:

- زهرة قتلها مشط الكاولية..!

التقت عيوننا عليها واضطرب قلبي قليلاً.. لكنني لم أفهم من هي  
زهرة ولماذا قتلها المشط غير إن العجوز قالت وهي تنظر الى نقطة ثابتة  
أمامها:

- في كل وقت هناك خير وهناك شر. والمشط مرة يصير بالخير ومرة  
يصير بالشر.. مثل البشر مرة بهذا النجم ومرة بذاك.

تدخلت خالتي سعدية وهي تضحك فخففت بعض توتري:

- قصة الجدة زهرة عتيقة يا حاجة وما نظنها صحيحة.

وضعت الجدة أم صالح يدها بشكل قوس على أذنها اليمنى وهي تستمع الى الخالة سعدية:

- مثل قصة نبعة.. منو يقول صحيحة؟ كل زمن يا بنتي نسمع شكل.

كنت متشوقة لكن مرتابة من قصة زهرة ومرتابة من كلام العجوز ام صالح التي فرشت عباؤها امامها قليلاً ونظرت الى نقطة ثابتة في الأرض:

- بكل ربيع يجون الكاولية العَرَب ويمرون بينا.. يمكن من كم سنة ما ظلوا يجون. وكل ربيع نتظرهم نشترى منهم محابس ذهب وفضة وتراحي ونفانيف ويشترون من الديره دجاج وغنم وتمن وقماش بازه.. بس كانوا أهلنا يخوفونه منهم.. يقولون عنهم يسرقون الأطفال ويسوونهم كواولة مثلهم.. يرقصون ويسوون أشياء موزينة.. استغفر الله.

تضحك خالتي وامي ويستغفرن الله معها وكل واحدة ترفع زيقها بأصبعين تبصق به وتخضه كما لو تطرد شيئاً لا نراه، بينما تواصل العجوز:

- زهرة كانت صغيرة بس حلوة هواي. العيون سوده مثل عيون الغزالة والرقبة رقبة مهرة والشعر نازل لرجليها وجسمها ما شاء الله حتى الكبار يشتهونه.

تسكت الحاجة أم صالح وترفع عينها عن النقطة الوهمية أمامها  
وتنظر إلينا ونحن محتظات لاسيما انا التي تنتظر ما هو الشر في الجدة  
القديمة التي يسمونها زهرة.

- زهرة تركض ورا العَرَب وتبقى وقت طويل بخيمهم ومن ترجع  
للبيت تسولف لأمها شنو شافت من ذهب بسنون نسوانهم الحلوات  
وفضة ومعاضد وخراخيش ملونة بإيديهن.. وتحكي لأمها شلون يرقصن  
ويهزن خصورهن وحاطات على روسهن شراشيب وأصواتهن حلوة..  
وظلت على هاي الحالة مدة موقليلة ولا أب يردعها ولا أم تخاف عليها  
ولا أخ يروح وراها.. على أساس هي زغيره وما تفتهم وتلعب وباهم.

سكتت قليلاً وعيناه الكليلتان عادتا تنظران الى ذات النقطة أمامها  
وكلنا ساكتات نتخيل شكل الطفلة زهرة المرابطة في خيم العجر أو  
العَرَب كما تسميهم ام صالح:

- في يوم من الأيام جابت وباه مشط من خشب. ما شايفين مثله  
بالديره والسلف وكانت تمشط يم أمها وتكلها شمي شعري وأمها  
متعجبة بالريحة الطيبة والنعومة اللي مثل الحرير بشعرها..خبرتها  
ان شيخ الكاولية اعطاها المشط بلاش حتى يصير شعرها مثل شعر  
الكاوليات ناعم وطويل وكان المشط يتنقل من راس لراس بين بنات  
العشيرة وصار مَثَل للحلوات لكن زهرة لما حسّت ان المشط سواهن  
كلهن حلوات بريحة طيبة ضمّته عن البنات وظلت تمشط لوحدها  
والريحة تملي شعرها وجسمها قبل لا تروح لخيم الكاولية بالنهار..

كنت أتفس بصعوبة وأنا أستمع للحاجة أم صالح وفي ذهني تلك

الزهرة الشقية الأنانية التي لا تعطي المشط لغيرها من البنات وتريد أن  
تفرد بالحلاوة والعطر وحدها:

- فد يوم صار المغرب وما رجعت زهرة. وقبل لا يصير الليل راحت  
أمها شايطة لعيام الكاولية وما شافت ولا خيمة. سألت عنهم خبروها  
الناس ان الكاولية رحلوا من الظهر. لموا خيمهم وركبوا خيولهم  
وراحوا.. وزهرة وين؟ زهرة راحت وياهم. عشقها شيخ الكاولية  
وسرقها وأخذها.. ولما وصل الخبر للعشيرة صارت الفضيحة اللي ما  
بعدها فضيحة.

توقف قلبي عن الخفقان وجمدت في مكاني وأنا أستمع:

- ركبوا الزلم خيولهم وتبعوا الكاولية نهار وليل بس ما عشروا  
عليهم.. وظلت ام زهرة ليل ونهار تصرخ وتلوم بنفسها من ورا سالفة  
المشط والكاولية.

انبرت إحدى الصبايا:

- والمشط...؟

وكانت تتلفت لي وتنظر الى حقيتي الموضوععة الى جانبي كما لو  
تسأل كيف بقي المشط مادامت زهرة هربت مع العجرج؟

- في يوم من الأيام كانت أم زهرة تذهب الى مكان الخيم مال الكاولية  
وتشم ريحة زهرة وتبكي.. وهي تفتت بالمكان شافت المشط نص مدفون  
بمكان خيمة.. أخذته وضمته بزيقها وظلت كل الليالي تسهر وبه المشط  
وتبكي على زهرة.. ومرت سنين وسنين ونست الديره سالفة زهرة

وولدت ام زهرة بنت ثانية وثالثة ورابعة، وبقت أمها محتفظة بالمشط  
وخلته أمانة عند بنتها الكبيرة وقالت لها قبل لا تموت: هذا مشط زهرة..  
أمانة ووراثة لكل البنات.

تعبت ام صالح على ما يبدو وهي تروي:

- كل زمن وله مشطه يا بناتي!..!

استمر الليل بحكاية الحاجة ام صالح التي تقاطعت مع حكاية نبعة  
وبقيت سهرانة أفتش عن زهرة ونبعة بين امي وخالتي وجداتي الميتات  
مرددة في سري: كل زمن وله مشطه.. لكن أنا في أي زمن وأي مشط؟

(11)

أنا البغدادية الحلوة وريثة المشط الخشبي التاريخي والعائدة الى  
قريتها بزيارة قصيرة، المحملة بعار المشط الذي لا يعرفه أحد، ألمتني  
زهرة المسروقة التي سرقها العجري صانع العطر وصانع المشط. ربما  
لم يتوقع أن تكون الصبية زهرة بهذا الجمال والعطر الذي ملك قلبه  
وروحه فخطفها جأً وشوقاً وهياماً.

أفكر بطفولة:

ماذا فعلت زهرة كل سنوات غيابها عن أهلها؟ هل ولدت؟ هل  
أصبحت عجزية ترقص؟ كيف تخلّت عن مشطها وهي تهرب مع  
عجريها الذي عشقها؟ هل بقي العجري يعشقها بعد ضياع مشطها؟ هل  
صنع له مشطاً آخر؟ هل تمكنت من فك سحر العطور الغريبة وتعلمت  
صنعة الأمشاط لتسرق عقول وقلوب النساء في مكان آخر؟



أنا البغدادية الوريثة الوحيدة للخير والشر كما قالت الحاجة أم صالح  
استمع الى رواية أخرى من امرأة ثمانينية تلف رأسها بفوطة بيضاء وفي  
حضانها صغير نائم ويبدو أحد أحفادها الكثيرين:

- اللهم صل على محمد وآل محمد.

سيدة وقور تميزها عيناها الواسعتان على وجه أبيض مدور مثلما  
يميزها جسمها الثخين وهي تبرك على الزولية وتحتها مخدة صوف  
والصغير نائم في حضانها.

هرعت أمي اليها وعانقتها بحب وبؤستها من خديها وأعدت عناقتها  
وضمنتها كثيراً مرتحة بها والمرأة ترخب بأمي وتقابلها بعناقٍ أطول ثم  
تفكها وتنظر اليها بحنان:

- وأخيراً أعادت المهرة الى ديرتها.

خالتي قالت انها من بقايا مولدات القرية واستخرجت من بطون  
نسائها أجيالاً من الشباب والشابات، ويداها فيهما كل البركة وهي امرأة  
معروفة حتى في القرى المجاورة ويجلها الرجال والنساء.

سألته خالتي سعدية عرضاً عن حكاية المشط وهي تعرضه أمامها،  
فأخذته بيديها وهي تشمه وتبتسم ثم تعود تشمه من جديد كما لو تريد أن  
تأكد من ذكره البعيدة الموروثة في حكايات كثيرة لا تتشابه.

- يا سعدية.. هذا هو الشمشار الأصلي.

ضحكت خالتي سعدية وأشارت لي:

- هذا شمشار ريحانة دار في القرية عشرات ومئات السنين ثم انتقل

الى بغداد.

- حافظي عليه يا بنتي. هذا شمشار جدّاتك يرحمهن الله برحمته الواسعة.

هزرت رأسي وسحابة فرح وربما خجل غمرت وجهي وأنا أنظر للمشط الذي تقلّبه أصابع المولدة.

استدركتني خالتي بعدما وجدتي صافنة حينما سمعت اسم «الشمشار» من فم العجوز فهمست لي.

- الشمشار.. يعني المشط.. يمكن قديماً كانوا يسمونه.

قالت المولدة بصوت متحشرج:

- صدق هذا شمشار عجيب وغريب يا بناتي.. يختفي سنين ويظهر بعدين.

تدخلت خالتي وهيبة:

- شنو قصة هذا الشمشار..؟

انتبهت المرأة المولدة ونظرت إلينا أنا وخالتي وأمي وبنات القرية:

- هذا شمشار جدتنا وردة يرحمها الله برحمته الواسعة.

نظرت إلى خالتي سعيدة التي سارعت:

- يعني مو شمشار جدتنا نبعة ولا جدتنا زهرة..؟

- لا.

جزمت المرأة المولدة وهي تنظر إلى المشط وتعيد شمّه:

- سمعت انه شمشار الجدة وردة.. الله يرحمها

- وما قصته مع المرحومة جدتنا وردة..؟

تساءلت خالتي فيما بقيت المرأة تنظر الى المشط وتعيد شمّه كما لو  
تستطلع ماضياً بعيداً في حكايات السلف البعيد.

- في شبابها عشقت وردة واحد غريب مرّ بالديره وبات ليلة في  
مضيف الشيخ.. ما نعرف شلون شافته وردة يوم ثاني وهو يروح  
لديرته.. نسوان النهر يقولن شافته بالبستان وانعجبت بطوله وسّماره..  
ونسوان الزرع يقولن شافها وهي راجعه من النهر شايله كارة حشيش  
وانعجب بيها.

تركت المشط أمامها وحدثت أمي:

- تعرفين يا أم ريحانة السالفة قديمة وكل مرة نسمع شكل، سمعت  
بسالفة نبعة وزهرة.. بس سالفة وردة ظلت ببالي من ستين سنة يمكن..  
والشمشار يروح ويجي بين الحفيدات والسالفة نفسها ما تغيرت.

قالت امي:

- ريحانة تحيرني مرات من تسألني عن ريحة المشط وشلون صار  
ومنو جابه وشنو قصته.

واصلت المرأة:

- الغريب رجع بعد شهر يخطب وردة على ستّة الله ورسوله.. لكن  
كل غريب صعب يحصل مراده من بنت غريبة مو من عشيرته..بس هذا  
الرجال ظل يروح ويجي ويجيب أهله وشيوخه وعشيرته لكن أبو وردة  
ما قبل يعطيها للغريب.

تساءلت خالتي:

- وشنو كان راي وردة..؟

- عشقته وماتت عليه وما قبلت تزوج غيره.. بس الغريب كلما يجي يعرض مهر غالي.. هوش وجاموس وفضة وحلال هواي.  
سكتت المرأة حينما بدأ الصغير يتململ بحضنها فقلبتة على كتفه الآخر:

- فد يوم رجع وحده لأبو وردة وطلب من الشيخ وبعض الأجاويد من الديره أن يكونون حاضرين وقال هذي المرة الأخيرة اللي يتقدم لخطبة وردة على سّنة الله ورسوله..ولما اجتمعوا بالليل قام الشاب العاشق وأقسم بالله العليّ القدير عالم الغيب والشهادة إن مَهْر وردة الذي سيقدمه الليلة جاء من الله سبحانه وتعالى فهو الشاهد على حسن نيته وصفاء قلبه لهذا فكان يدعو الله ليل نهار أن تكون وردة من نصيبه فاستجاب الله سبحانه وتعالى له وأهداه مَهْر العروس...!

هممنا معاً وانفتحت عيوننا على قصة مفاجئة خاصة وإن الله تعالى هو الوسيط في هذا الزواج:

- أخرج العاشق من جيب دشداشته هذا الشمشار وخلاه أمام أبو وردة.. هذا مَهْرُ الله لوردة.. شمشار من السماء طيب العطر. ريحته ما تنتهي الى الأبد.. ريحته من الجنة.. والشيخ والأجاويد شهود على ما أقول.

صمت الشيخ ومَن معه وانعقد لسان أبو وردة وهو يشوف هذا الشمشار بينهم.. خاف الجميع من الله ووافق أبو وردة وقام واحتضن الشاب وقالوا انه بكى خشيةً من الله.. وهكذا تزوج وردة بمهر وهدية

من الله جلّ جلاله.. هو هذا اللي عند بتتنا ربحانة.. ومن يومها وشمشار  
الجددة وردة تتوارثه العائلة من البنات.. هذا شمشار من الله العلي  
القدير..!

هزنتي رعشة وانتابني خوف مفاجئ لا أعرف مصدره.

سكتنا جميعاً واتجهت أبصارنا الى مشط الله النازل من السماء الى  
الغريب العاشق.

كنت أرتجف بحق، مهزوزة القلب والروح حينما بدأت أتخيل إن الله  
سبحانه وتعالى كلّم العاشق الغريب وقال له: أنا معك.. لا تخف.. هذا  
مهر وردة.. مشط برائحة الجنة.

انعقد لساني ومثلي البنات اللواتي يقين يهمسن لبعضهن ويهمهن.  
حتى خالتي سعدية بهتت وأمي ظلت صافنة على المشط الصغير والمرأة  
تدير الحفيد- في حضنها- الى كتفه الآخر.

(12)

في بستان عمي فهد الذي يشبه أبي المخطوف كانت ليلتنا الأخيرة.  
زوجته فطومة مضيافة وكريمة وبناتها الثلاث لم يقعدن ولا لحظة  
واحدة مهيآت لخدمتنا في كل لحظة، لاسيما بتول المخطوبة من ابن  
عمها عبدالله والتي تنتقل بيننا كالنحلة وتشرف على كل صغيرة وكبيرة.  
زوجات عمي أبو سجاد الثلاث معنا وأطفالهن يتشرون كالقطط  
وخالاتي الثلاث سعيدات الى حد كبير عدا وهيبة التي تلازمها الكآبة

لفقدان ابنها البكر في الحرب، أما كلثومة العرجاء ذات الوجه الضحوك التي لا أعرف حتى الآن نسبها لي فأراها بين ليلة وأخرى وفي أي بيت نكون فيه.

سفرة وتمرة تسحراني بالتشابه بينهما. متلازمتان وهادتتان وتنظران لي دائماً، لكن الزايرة هاشمية صامته وكعادتھا تندمج في الجو الليلي كما في كل ليلة تمر سريعة بالحكايات والسوالف الكثيرة وآخرها حكاية المشط ورائحته الغربية التي بقيت بالرغم من مرور عشرات ومئات السنين ربما. وأكاد لا أصدق إن المشط الذي يروون عنه كل غريب وعجيب بحوزتي الآن وفي حقيقتي ورائحته الأزلية تمر بشعري كل يوم وتعطره بالعطور السماوية والأرضية.

وعلى غير العادة كان عمي فهد قد ترك مجلس الرجال وانضمّ إلينا بصحبة خالي حميد الذي بان التعب على وجهه وجسده كما لو كان مريضاً.

جلس قربي وضمني إليه بحنان وهمس لي:

- خالك العايق طارق ترك دينه وصار مع الكفار وغرقان بالفلوس والسوالف الموزينة.. قولي له الفلوس لا تصنع الرجال.. ولا نحتاجه لا هو ولا فلوسه.. خليه يرجع لدينه ومذهبه ويصير آدمي..

- اممممم

- والقرية أنظف من بغداد وأمريكا مئة مرة.. خلي تنفعه أمريكا.. راح

يموت هناك مثل الكلب.

حكّت خالتي جميلة عن المشط كما لو تستشير حافظة خالي وهي تشير اليه.

انتقل مشطي الأبيض لأكثر من يد حتى وصل الى عمي حميد الذي ركّز النظر عليه كثيراً وقلبه بين يديه وجهاً وقفاً.

- سمعنا حكايات كثيرة عن هذا المشط الأبيض وآخر عهدي به يوم كنت صغيراً حينما رأيته بيد إحدى الجدات المرحومات.. نعم.. هو هذا المشط الأبيض كما رأيته قبل خمسين سنة.. سبحان الله.. وكأنه روح حية تنتقل من جيل الى جيل.

سمّه الخال حميد وأخذ نفساً طويلاً ثم قال:

- سمعت أكثر من قصة له لكن من ذلك الوقت بقيت قصة الجدة بشيرة يرحمها الله في بالي وذاكرتي.

خالتي سعيدة تساءل:

- يعني مو الجدات نبعة ولا وردة ولا زهرة..؟

- لا.. قصة بشيرة هي الأكثر صدقاً.

- شنو قصتها..؟

تساءلتُ أنا من دون إرادة مني كما لو أريد أن أطرد القصة السماوية والغجرية من رأسي لأعرف ماذا في جعبة عمي عن الجدّة بشيرة.

فرك المشط بأصابعه وسمّه ثم تركه في حضنه ونظر الينا:

- كنت أسمع عن هذه القصة المؤلمة ونهاية بشيرة المسكينة والمشط

الذي ظلمها كما ظلمها أهلها في ذلك الزمان.. لكن الله وحده العارف  
بخفايا الصدور.

قرصني قلبي وأنا أتكؤم على نفسي وبدوت كما لو إني غير مستعدة  
نفسياً لسماع فاجعة الجدة بشيرة:

- العشق يقتل.

صمت وبقينا صامتات الا من حركة الصغار الطفيفة:

- جدتنا بشيرة عشقت ختيالا شابا من أولاد أعمامنا البعيدين، والعشق  
لا عيب ولا حرام. لكن العيب أن يصير العشق عارا وتصير الفضيحة لا  
راس لها ولا أساس، ولما يكون هذا المشط هو السبب هاي مصيبة ما  
جرت في عاداتنا ولا تقاليدنا من سابغ ظهر لليوم.

اختلج قلبي وارتعشت قليلاً أو كثيراً محاولة أن أطرد عني صورة  
الجدة بشيرة ولا أرسم لها ملامح في داخلي:

- ما نعرف كيف ورثت المشط من أي أم أو جدة، وكانت فرحانة  
بشعرها الطويل اللمّاع وريحته الطيبة وصارت كلام القرية بالحسن  
والجمال والعطر؛ لكن والدها الله يسلمه ما كان يرضى بزوجها لا  
للخيال ولا لغيره، وبشيرة تكبر ويكبر حسنهما معاها وتكبر ريحتها  
بالمشط والخيال يكبر عشقه لبشيرة.

هدأت حركة الأطفال وكانت رائحة المشط تنفتح بيننا بدلاً من  
الأنفاس الصامتة:

- ما تظل سالفة مخفية بين الناس خاصة بين النسوان.



- اممممم

تهمهم أكثر من امرأة خاصة زوجته فطومة التي أفعدتها سالفه الخال حميد الى جانبه كما لو تسمع الحكاية لأول مرة مثلما بدا على ملامح وجهها.

- شاعت بين الناس ان الخيال يلتقي بالجدة بشيرة الحلوة أم شعر الطويل.. يقولون يلتقيها ورا النهر لو بالبساتين البعيدة عن القرية ويقضي وياها ساعة لو أكثر.

بغموض يحيط بنا يتمهل العم من الإستطراد وهو يؤرث سيجارته:

- الحبة تصير كبة. والساعة تصير ساعتين. والكلام ما يرحم. لكن بشيرة والخيال نسوا أنفسهم وظلت الناس تتبع أثرهم من ريحة هذا المشط.. مرة بالبستان هذا ومرة بالبستان ذاك ومرة ورا النهر ومرة بالنهر ومرة بذاك الصوب ومرة بخرابات بعيدة ومرة يم الطاحونة ومرة بالمقبرة.. يمشون ورا العطر.. وانتن تعرفن الناس بيت بلاء والحبة تصير كبة.

دارت بتول - خطيبة ابن العم عبدالله - على الحاضرات توزع استكانات الشاي المهيل وامتلاً المكان بضجيج الملاعق المتسارعة قليلاً ثم هدأ كل شيء:

- مات الخيال.

خفق قلبي بعنف لهول المفاجأة:

- ما أتذكر شنو السبب. بس على الأكثر إنقتل غدر في مشكلة

عشائرية وهو رايع يشوف بشيرة ورا النهر بين البساتين.. مات الخيال  
مغدور.. وماتت روح بشيرة وراه.

- ماتت..؟

فزت إحدى النساء متسائلة غير إنه مضى في الرواية:

- ماتت روحها وصارت أضعف من الصفصافة.. تمرضت بشيرة  
وصار وجهها أصفر ويوم بعد يوم وهي تموت شوية شوية..الى أن  
وصلت لنهايتها وفضيحتها.

تلبت وجهي بالغم قبل أن ينطق عمي حميد ورا صمت أكثر من أي  
صمت يمكن لي أن أصغي اليه.

رفع المشط من حضنه وأمسكه بيده يتأمله وأكمل:

- انتحرت بشيرة ورا ما مات الخيال بأيام قليلة.. عثروا عليها بالبستان  
ميتة.. قاطعه وريدها بالمنجل ويمها هذا المشط.

اضطرب قلبي واختنق بي المكان المتراصف بأكتاف القريبات، لكن  
خالتي سعدية تساءلت فقطعت الصمت الذي أخافني:

- ليش انتحرت..؟

- الفضيحة خلتها تنتحر!

هزت سعدية رأسها ووجهها مكظوم.

خرج عمي الى مجلس الرجال وتبعه خالي الذي كان صامتاً كل  
الوقت وبقيت النساء ساكاتات للحظات بدت طويلة ومرتبكة علي.

خرجتُ من دائرة النساء الى حديقة البيت وأنا أشعر بصعوبة في  
التنفس كما لو ضاق هواء القرية بصدري.

(13)

لازمتني نوبة قلق وخوف شلت رأسي عن التفكير وانشغلت بي أمي  
كثيراً وهي تراني مجهدة لكنني كنتُ أقول لها لنعد الى بغداد.. لا أتحمل  
القرية.. بغداد غير القرية.. في بغداد يضع الكذب بالكذب.. وهنا في  
القرية لا يوجد غير الصدق حتى ولو كان كذبا.

كنت أتحمس المشط الرباني وأتذكر زهرة التي أصبحت غجرية  
ونبعة التي ورثت المشط من حورية نسته على جرف النهر، لكن وردة  
أخافتني وهي تقبض على مهر الله هذا.. المشط الذي يميني الآن.. إنه  
من الله سبحانه وتعالى. غير إن بشيرة قلبت أفكاري كلها.. كنت أشعر  
إنها أنا.. فتاة الفضيحة المتحرة..!

تعرفت ليلتها كثيراً وحلمت بوردة التي أهداها الله المشط العجيب  
مهراً لزواجها من الرجل الغريب، مثلما حلمت بزهرة التي هربت مع  
العجر من أجل غجري يصنع الأمشاط المعطرة من خشب ربما لا يعرفه  
أحد.. لكن وردة فازت برضا الله وتزوجت الغريب الذي عشقها مصادفة،  
وعلى عكسهنّ بشيرة التي ضحّت بسمعتها وشبابها حينما كانت تختلي  
بالخيال أكثر من مرة ونسيت أنّ راثحتها دليل عليها.. إنه المشط ذاته  
الذي تنقل عبر الأجيال بأسنانه المصفوفة ورسومه المتغيرة.. مرة من  
حورية... ومرة من غجري.. ومرة من عاشقة... ومرة من الله..!

وأنا في طريق العودة الى بغداد كنت أعيد الحكايات التي سمعتها.  
ذهبت الى القرية بحكاية واحدة في رأسي وعدتُ بأربع حكايات  
عن مشط إلهي أو غجري، لكن بالرائحة ذاتها. ما زلت أشمّها الآن.  
إنها رائحة الجنة تنسرب من حقيبي وأنا غافية أحلم بالغجر الرحالين  
وأحلم بالله في سماواته العليا كما أحلم بالهوريات السابحات في  
نهر القرية على مر الأزمان مثلما أحلم بكل عاشقة فتحت أجنحتها  
تحت ظلال الأشجار في البساتين المهجورة من أجل لحظة عشق  
يتبعها موت محتوم.

## الْحُلْمَة

رَنّ هاتفي مرة واحدة.

كنت أظنها بديعة أو ريحانة.

اتصلت بهما أكثر من مرة الى القرية لكن هاتفيهما كانا مغلقين  
وخارج نطاق الخدمة.

كان بي شوق اليهما مفقداً دفء البيت وحميميته حينما وجدت  
نفسي مطوقاً في السفارة وأعمالها الكثيرة وحصار المنطقة الخضراء  
وخروحي القليل منها في أجواء أمنية ليست سليمة.

لم أعتد غيابهما كل الفترة الماضية وتشكّل عندي شعور ليس عابراً  
في الأحوال كلها بأنني أفتقدتهما فعلاً وأنّ البيت يمنحني الكثير من  
الأمان والهدوء وراحة البال بالرغم من وجود روني الذي يعذبني بنباحه  
وتكشيرته الشريرة.

شاشة الهاتف أوردت لي اسم (زهور - الخضراء) بعد رنين سريع،  
لحظتها كنت أستعيد شكل البنت في ليلة المعمم الأربعيني الذي شرب  
النيذ وغمّي بريفيته المحبوسة في صدره بطريقة ظريفة، كما استعدتُ  
لحظات التماس الخفيفة مع جسد زهور البض.

وجدت في الاتصال المقطوع نداءً خفياً أو هكذا تراءى لي لفتاة الليلة  
الوحيدة وصورها المثيرة التي عرضتها لي في الآي فون.  
أعدت الإتصال بها بعد إن أغلقت باب المكتب.

### صفيير خاص . الصفيير الثالث

1- صباحو زهور

2- صباحو سيد مارك.

3- كيف الحال؟

4- مشتاقة.

5- وين أنتِ؟

6- بالبيت.. وحدي!

أظن كان صوتها يرتعش قليلاً غير إنها أغلقت الخط بطريقة  
أشعرتني إنها كانت مكشوفة الرغبة أو هكذا حللها عقلي بشكل  
سريع فأعدت الاتصال.

7- زهور مين معاك بالبيت؟

8- بابا مسافر الى دبي من يومين.. وماما في مول المنصور.

9- هل تودين زيارتك؟

10- مम्मمم...

11- أكيد ضيافتك ستكون رائعة.

12- سأنتظرك سيد مارك..الآن..!

إنغلق الخط من جديد وهدأت الغرفة من صوتي مثلما كَفَّ الصوت  
الأخر في الطرف الآخر وبقيت لحظات لا تحتاج الى تفكير عميق ولا

قرار مع إنني بقيت صافناً متخيلاً شكل اللقاء المتوقع لصبية في عمر وردة صغيرة تفتح بهدوء، فانشغل جسمي كله بخيال طفيف ونسيت شراييني المتعبة فمثلي لا يقوى على مقاومة إغراء الصبايا فإنهنّ الأناث الحقيقيات والحليب النقي الرائع.

أبلغت مستر يونان بذهابي الى بيت المعمم لبعض الأشغال التي تخص توريد بعض المواد لكنه لم يفاجئني حينما قال وهو يضحك:

- صديقك المعمم في دبي منذ يومين وقيم في جُميرا في فندق المَوْجَة.. خذ بالك من شرايئك وقلبك سيد مارك ههههه

خرجتُ الى بيت المعمم تستيقظ بي رغبة جامحة للقاء هذه الصبية التي كنت أتوقع إن عمامة السيد ستمنع الخروقات التي رسمتها في بالي منذ ليلة النيذ الوحيدة، لكن يبدو فعلاً إن لا علاقة للعمامة برغبات الحياة وانفتاحها السرية؛ فالعمامة شكل خارجي فقد بريقه كثيراً وما عادت لها هيبتها التي كنت أتوقعها.

في الطريق الى زهور وهي مسافة غير بعيدة داخل المنطقة الخضراء مرّت صبايا كثيرات في رأسي وانفتح وجه ريحانة أمامي بكل طفولته لكنني استبعدته، مثلما مرت وجوه صبايا كثيرة في الشقق والحانات الليلية في ذلك الولع الذي ورثته بعد إن طردتني أو خاننتني كاثرين مع صديقي جورج، وهذه قصة أنساها ولا أنساها لكنها لم تعد مصدراً للألم كما أعتقد، فالحياة ليست امرأة واحدة ترهل في نهاية الشوط، إنما هي صبية تلو صبية لتبقى الروح مرنة وطيبة وسعيدة؛ وهذه فلسفة تعلمتها من صدور الصبايا وعطورهن وأنوثتهنّ المتفتحة كورود المانوليا، غير

إنني أشم رائحة زهور الآن وأعيد تشكيل جسدها من جديد واستحضر ليلة النبيذ وسلوكها معي ومزاتها وشرائح الغنم التي تشبه أصابعها المصقولة بترافتها.

قطعت الطريق السهل في المنطقة الخضراء وتيقنت من الباب الحديدي الأزرق المزخرف بأقواس بيضاء.

فتحت الباب ووجهها يحاول أن يُخفي ابتسامة خجولة على وجهها وسارعت الى إغلاقه بإحكام وهي تتعثر أمامي الى الصالة بجسدها الصغير وعطرها النفاذ الذي ملأ المكان وأنا أخطو وراءها متفتح الحواس.

ليس هناك ما يربك اللحظة الأولى سوى نوع الدخول اليها وهذا ما أعرفه بتجربة طويلة مع صبايا الشقق والحانات والطرق، وقتها اختلط علي واقع البنت المرتبكة كثيراً مما أثارت بي قلقاً عابراً وأنا أجلسها قريبة مني وعيناها لا تفارقان عينيها.

### صفيير خاص . الصفيير الرابع

1 - كان وجهها متورداً لكنها ترتعش ويدي على كتفها المصقول: أنت جميلة.

2- صحيح...؟

3- فرصتُ خدما فازدادت ارتعاشاً وانكمشت.

4- صارت أصغر من جسدها وهي تدخل في فستانها بطريقة غريبة.

5- تعالي..



6- وين..؟!!

7- أمسكت يديها بخفة وسحبها الى صدري دفعة واحدة.

8 - ارتطمت بصدري كلها وكانت خفيفة كريشة لكنها تبعثرت فجأة وهي تغمض عينيها.

9 - ثم استكانت من دون مقاومة كما لو تنتظر مني هذه الحركة لكنها أخذت تموء على صدري.. آه سيد مارك.

10 - قبلتها قبلة خفيفة لأنترع شفيتها المضمومتين..مسستها بأطراف شفتي

11 - التهمت شفيتها اللتين خرجتا طريتين ومصصت لسانها بشكل تركت شفيتها مفتوحتين.

12 - وأخذتها وهي معلقة على صدري الى أقرب غرفة أمامي.

13 - انت رجل سيد مارك..آآه

14 - دفنت وجهي في صدرها الناهض وشممت عطره الباذخ..عطر وردة خرجت لتوها من المطر.

15 - لم تكن ترتدي حمالة الصدر.

16 - أغرقتني فيها الآن على سرير فراشه ناعم جداً كأنه الريش.

17 - وأكثر من آه طفولية تنغرز في صدري وتمرق بين أطرافي بلسان

الفرولة الذي تحرر وأصبح أكثر سخونة كأنه مقص يقص وسطي

18 - وكما لو أنّ شفيتها مدربتان وأصابها متمرسة وجسدها الناعم يضح العبير والشهوة بي.

19 - جسدها المثير تحول الى كتلة نارية سيطرت عليّ بطريقة مذهلة.

20 - فأيقنت ان البنت تطبّق خيالاً مدمراً سبق وإن مارسته في خلواتها

مع رجل مثلي أو يشبهني يحملها الى السرير ويمص ويعض شفيتها  
وحلمتها وهي تتأوه متمنعة.

21- تسلقتني بطراوة حينما تمزق ثوبها كقشرة شفاقة،

22- وجسدي يتصاعد وينتفخ على غير العادة، فتفتح زهور معي كزهرة  
برية كانت تحيطها صحراء سوداء

23- استولى عليّ صدرها الصغير النابض.

24- دخلت حلمتها الرمانية بين شفتيّ منتصبه كبرعم صلب شقّ الأرض

25- وهاجم لهاثي حتى اصطكت اسناني عليه لحلاوته ولذته.

26- انتظمت أنفاسي في حلمتها الترفة،

27- غير إن حلاوة الحلمة ولذتها كانت أكثر مما يجب.

28- ظلت تتأوه بصوت عالٍ.. آه آه سيد مارك

29- وكنت مغمض العينين ذائباً في لحظتي،

30- حتى انطبقت أسناني على حلمة الفراولة المنتصبه.

31- وأنا أقضم نواءً ليناً كأنه ماء أو هواء أو رحيق

32- وتحولت اللحظة الى فزع لا يمكن احتماله.

33- صرخت كقطعة ملدوغة بناب أفعى سامة.

34- حاولت أن أنتزع حلمتها من بين أسناني

35- آآآه سيد مارك لالالا

36- ثم توتر كل شيء بصرخة مفزعة من دون أن أشعر بشيء سوى  
رحيق يتدفق في فمي.

37- كان قلبي يطير مني في هذه اللحظة الثمينة،

38- لكنّ الحلمة المفرومة بين أسناني أفرعتني

- 39- ولم أستطع الدخول في بيت العسل
- 40 - وقد كنتُ مهياً الى آخر لحظة من الإختراق العظيم في مسمشتها  
الناعمة التي وجدتها مبللة.
- 41 - لكنها أفزعتني بشكل جعلني أفقر
- 42 - كما لو كنت ملسوفاً في فمي.
- 43 - صرخة وحيدة ترددت كثيراً في قلبي وأيقظت خوفاً كنت لا أعرفه  
في حياتي
- 44 - وأسناني مبللة بلزوجة دم.
- 45 - كنت أنظر كالأبله الى الصرخة من دون غيرها.

## الضابط

عانقتني أم عادل بأمومة في ممر يقود الى مكتب المدير العام.  
ضممتني وهي تشمني بعمق كما لو تستعيد رائحتي التي فارقتها أكثر  
من ثلاثة أسابيع.

- ما شاء الله الحلوة صايرة أحلى.. مكانك خالي.. كيف القرية؟  
- رائعة.

- القرية أحلى أكيد.

- أحلى وأحلى من أي مكان في العالم.

قالت بعتاب:

- اتصلت بك أكثر من مرة لكن تلفونك مغلق.. يمكن الشبكة ما  
واصلة للقرية.

- أنا آسفة.. أغلقت التلفون أول ما وصلت.. ردت أبعد عن بغداد

ههههه

وقبل أن تذهب الى مكتبها قالت وهي تتأملني بينظلون الجينز الأزرق  
الذي ألبسه هذا الصباح بعد غياب طويل عن الدائرة:

- أريدك بعدين.. أكملني أشغالك وشوفي البنات.

- اوكي .

كنت هادئة وخفيفة كريشة بعد عودتي من القرية التي منحنتني الكثير من الصفاء والمصالحة مع نفسي المرتبكة ونبهتني الى سحر الحياة وبساطتها هناك، لكن لم تدم هذه النشوة التي حاولتُ أن أحتفظ بها أطول وقت حينما التقنتي الست سراب بتوقيت غير مناسب فهرعت تعانقني:

- قمر.. والله قمر.. صباحك نور.. مشتاقه حياتي.. قلبي ظل يلوب عليك وتلفونك مغلق.. الحمد لله على السلامة.

تلبّدت سحتني على الفور واكتسى وجهي بانفعال واضح وقبل أن أتركها أمسكت كفتي ووجهها الممكيج يريني صورة امرأة غير طبيعية وحاولت أن تقبلني فتملصت منها بسرعة ووجهي محتقن وقلبي يخفق بخوف.

دخلتُ المكتب بوجهٍ عابس وجسدٍ يرتعش فهبت المنقبة تستقبلني وعانقتني كأنها تعرفني منذ سنوات فشممت بها رائحة بخور معتق:

- الحمد لله على السلامة.. كيف سفرتك؟

- الحمد لله.

- شلون القرية؟

- جميلة طبعاً.

كانت عيناها وراء النقاب كزرّين مختفين مثل عيني قطة محبوسة في أنبوب ولم أكن أشتهي أن أجالسها أو أحتسي فنجان قهوة أو أسمع شيئاً آخر منها، فهي معقدة فعلاً ولا أنتمي لأفكارها الطائفية التي أول ما

يمثلها النقاب وطريقة استعراضها لمفاهيمها البايخة وتشبثها بخرافات  
البخور التي تخنقنا رائحته كل صباح.

- عندي استفسار بسيط قبل لا تخرجي..

قالت بطريقة مفاجئة قبل أن أخرج فأكملت وأنا أرى شفيتها تتحركان  
من وراء النقاب:

- قبل شهر تقريباً.. هذي الهبلة سراب سوّت حفلة عيد ميلاد.

- اي.

- انت رحتي..؟

رأيت عينيها الطالعتين من زري النقاب تلمعان بيريق غريب جعلني  
محتارة في لحظة الاستجواب غير المتوقعة، وكانت مثل عيني شيطان  
مخنوق:

- مجرد سؤال.. البنات يقولون ما شفناها وسراب تقول كانت عندي  
وأخذنا صوراً!

جلست من دون أن أقول شيئاً ناظرة لثقبي النقاب الذي تحول فيهما  
البريق الى لغة لا أدركها وكأنهما فخان يتربصان بي:

- كان الوقت مبكراً شوية.

- أي وقت..!

- الحفلة مساء وظننتها ظهراً.. اختلط علي الوقت.

وأضفت كمن أبرر:

- في المساء لا استطيع الخروج وحدي.. لذا فضلت الذهاب ظهراً  
وتقديم هدية مناسبة لها.

- امممم

- ليش؟

- لخبطة.. البنات يقولوا ما شفنا ريحانة.. وسراب تقول انت اول واحدة تهنتها وتقول صوّرتكِ معها..!

خرجتُ بنبض مضطرب وذهنٍ شرد الى ذلك النهار الكارثي وما تزال عينا المنقبة تثقبان قلبي بأسئلة لم أعتدها ولم أتوقعها ولم أفهم القصد فطار صفاء رأسي ونشوة القرية وأيامها البسيطة الرائعة وعدتُ الى كآبة بغداد ونفاقها ووظيفتها التي عليّ أن أتقنها من جديد وبطريقة أخرى.

حاولتُ أن أكون طبيعية بعدما كلمتني أم عادل عبر الهاتف الداخلي وكنتُ مخطوفة الوجه ومرتبكة ولست على ما يرام.

- أهلا ريحانة.

فاجأني وجود الملازم أول عادل ضابط مكافحة الإرهاب الذي نهض وصافحني وضغط قليلاً على أصابعي ويبدو أنه دخل الدائرة قبل قليل.

جلست أمامه أتطلع اليه وابتسامة غير كاملة على وجهي.

- الحمد لله على السلامة.

لأول مرة أنظر اليه كأنما أريد مطابقة صورته الفيسبوكية بما أراه أمامي الآن فوجدته واحداً في الحالتين وزادت ابتسامتي من دون أن اقصد ذلك.

أحبُّ أن أواصل الحديث مع عادل لكنّ ظرف الدائرة الملبدة بالنفاق والقييل والقال يجعلني أجلس على أعصابي في كل مرة.

هذه أول مرة تعتريني الرغبة أن أتحدث معه لكن لسوء الحظ لا أشعر بالأمان والراحة فلحظتي مرتبكة..المنقبة وأسئلتها الغامضة..سراب السحاقية..نظرات الأخریات لی فی دعوة عامة لم أكن موجودة يومها لكنني كنت موجودة قبلهن بوقت طويل..

قطعت ام عادل شرودي:

- انت مثل ابنتي وأحبك وأنت تعرفين هذا.

دارت بعينها بين الضابط الذي ينظر اليها وبين السيدة التي نهضت من كرسيها وجلست أمامها مباشرة:

- الله سبحانه وتعالى أوصى بالحلال والستري بنتي..والحلال فيه البركة والنعمة والرزق والذرية الصالحة.

أوقفت عيني على عيني سيدة القسم:

- أجيك من الآخر.

يكاد قلبي يقفز من صدري:

- هذا عادل.

أشارت بيدها الى ضابط مكافحة الإرهاب الذي ينقل عينيه بين أمه وبيني.

- يريدك على سة الله ورسوله.

واستطردت بثقة:

- منذ إن رآك وهو يكلمني عنك.



وأضافت مؤكدة:

- حتى وهو في الجبهة يتصل بي ويذكرك.

تضرج وجهي أكثر وشعرت بأني ممغنطة من كل جانب وتدفق نبضي  
مرة واحدة حتى خُيِّل لي إنه سيتوقف في أية لحظة.

- عادل ملتزم والحمد لله .. وأنا تعرفيني.

اختلط علي وقع المفاجأة في توقيت وجدته غير مناسب فاحتبس  
الكلام وشعرت إنني في فخ جديد لا أعرف كيف أخرج منه.

- لك الوقت بتي.. وأنت حرة.. ولا تتحرجي من أي جواب.

### صفير الحب . الصفير الثاني

1- تدخل عادل وربما كان يستشعر الإحراج الذي كنت فيه: الآن أصبحنا

أصدقاء مرتين.. مرة هنا ومرة في الفيسبوك هههههه

2 - فلتت مني ابتسامة وحاولت أن أجزّب صوتي من جديد: أتشرف  
عادل..

3- تلفظتُ اسمه بارتياح كما بدا لكنني عضضت على شفتي السفلى كما  
لو وشيتُ بسر لا أريد لأحد أن يعرفه.

5 - مثل ما قالت الوالدة.. لك الوقت الكافي لتحسبي الموضوع من  
كل الوجوه.. وأنا سعيد بك وما لم نستطع قوله هنا سنقله على  
الفيسبوك

6- ممممممم

7- تجرأ قائلاً: أنت تعجبيني.

8- نظرتُ بعينيه الصافيتين ثم خطفت نجمتاه الفضيتان بعيني

9- وراى صمت قصير قطعه السيده:

10 - سأكلم أمك ما إن تتعافى وتتشافى بإذن الله لو أعطيتني إشارة الموافقة.

11 - ضغطتُ من جديد على شفتي التي أحسستُ بها وقد توارت في فمي.

12 - قلت بتلعثم: خليني أفكر...!

## البطريق

نزع الأربعيني عمامته وكومها الى جانبه فبدا مثل طائر البطريق منزوع الرأس وقال ضاحكاً:

- ما تصير العمامة مع الفلوس هههههه

كنت قد أعددت له حصته من أحد المشاريع التي يشاركنا بها لحساب زمرته كوسيط ورزمتها بشكل جيد؛ وهي الحصة التي تأخذ مراحل وهمية على ما يبدو في الكتب الرسمية وتعود بتوقيع جهات لا أعرفها، ثم يتدفق المال بطريقة سهلة على شكل رزم دولارية وأحياناً رزم عراقية حمراء وأيضاً بمراحل لا تطول بتقديرات الشراء الخارجي والتحويلات المصرفية السلسة؛ لكنني كنت قلقاً من صرخة زهور الخائرة بين أسناني وفزعها الطفولي وحلمتها المهروسة بين أسناني في ذلك الصباح التعيس.

لهذا كنت أطيل النظر بعينيه وأحسب ردود أفعاله معي؛ فوجدته طبيعياً وفهمت إن حلمة زهور المقضومة في طي الكتمان حتى اللحظة، لذلك صرفت النظر عن القصة التي أرقنتني بضعة أيام لم تتصل زهور بها حتى اليوم وبدوري بقيت أنتظر قلقاً وما زلت.

هذا المعمم لا يثق بالشيكات المصرفية ويريد حصته (كاش) كما في كل مرة لأنه في شك من مصارف بغداد الحكومية والأهلية ودائماً يشبهها بالبالوعات التي تشفط كل ما يودع فيها ولا يثق بها مطلقاً.

مرة قال لي:

- لا تودع شيئاً من مالك في مصارف بغداد لأنها تتسرب الى الخارج بمشاريع أخرى وتحويلات مزورة ولا تقبض شيئاً.

يقول لي الآن وعينه غارقتان في اخضرار رزم الدولارات:

- لي ثقة بك.. لكن نحسب الشدات ورقة ورقة حتى لا يكون هناك خطأ.

- براحتك مولاي.. لكن حساب الصين لم نجرده بعد. نهاية الشهر ستكون حصة الجماعة جاهزة إن شاء الله.

انهمك الأربعيني بترتيب الرزم الدولارية وتأكد من عددها ثم شرع بحلّ الرزم وهو يعدّها مرة ومرتين محني الرأس، شاردأ مع انفاسه الخضراء التي تلهث وراء أصابعه النحيلة وهي تتوالى ساحبة الأوراق الخضراء بمهارة فذة كلسان ماكنة حسابية سريعة.

كنت أمرر الوقت مع صفحتي الفيسبوكية في الهاتفف وأتجنب التحوار في الشات مع الآخرين، لكن رينا التقطتني وفتحت الماسنجر معي فوجدته تصريحاً للوقت مع الأربعيني منزوع العمامة بدلاً من رائحته ورائحة نقوده الكثيرة:

- أهلاً ريتا.. كيف الحال يا قمر.. أنا منيح.. بيروت after اسطنبول..

كيفك أنت.. اشتتلك يا صبية.. لساتك حلوة؟ هههه.. والله مشتاق  
لأمورتي ريتا...لالالا كيف أنساك يا روعي..هههههههه..طيب..  
أخبرك قبل لا أجي.. أكيد في جونية.. لو بدك بالجبل ما في مانع....  
ههههه أكيد.. ريتا أنت عسل ما أشبع منك..ههههه.. لسه بشبابي يا  
حلوة.. الصبايا هنّ النساء.. ههههه.. هن الشجرة الخضراء في أرواح  
الخيارية... أنت ملعونة بس تبقين حبيبة ألبى.. حياتي أنت..ok..  
اموااa

كان الأربعيني ما يزال منهمكاً بعدّ الأوراق النقدية بأصابع تدور  
كالفرّارة وشفته تتمتان وعينه غارقتان بالإخضرار المتخاطف أمامه  
والى جانبه دفتر صغير يدوّن فيه الحساب وكان يتعرق بلا ملل ومن دون  
أن ينتبه الى نفسه حتى تحول الى كائن لا علاقة له به أو بي سوى إنه  
يرتب أكداً الرزم أمامه، حتى بدأ يقيسها بالأشبار ليتأكد من السقف  
الذي تحقق له في صفقة جديدة.

- أوكي سيد مارك.. الحساب مضبوط.

- حساب الصين لسه.. على نهاية الشهر.

- إن شاء الله خير.

## العاشق

### صفير الحب . الصفير الثالث

- 1- قبل أن تنتهي إجازتي بقيت كثير التردد على صفحتها الفيسبوكية.
- 2- كنت أقرأ بوستاتها القديمة ولوعتها عن أب غائب.
- 3- في صفحتها أصدقاء وصديقات قليلون جداً.
- 4- وفيها صور وأفلام عن الطبيعة والطيور والفرشات والأزهار.
- 5- نشرها متباعد زمنياً ويبدو إنه لا تحفل بصفحتها كثيراً.
- 6- كل بوست يبقى أكثر من شهر.
- 7- دائما هناك بوستات عن رجل غائب بملامح ثابتة وصور كثيرة متغيرة.
- 8- تناغيه ابنة موجهة وتنتظره مع المواسم الباردة والحارة.
- 9- آخر بوست كتبته فيه:
- 10 - أبي الغائب الذي سيعود.. ما زلنا ننتظرك أنا وماما كل يوم.. لما تصل أخبرنا ساكون أول من يستقبلك.. انا أول واحدة يجب أن أراك واحتضنك فأنت أبي الجميل الذي أحبه.
- 11 - وخزني هذا النداء وأنا أمعن النظر بصورة ثابتة لأب غائب تتكرر دائما بكلمات فقدان تختلف لكنها موجهة بشكل واضح.
- 12 - قرأت بوستا آخر:

13- انا وحيدة وحزينة بابا.. بعدك تاهت أقدامي في الطريق وهاجمتني الكلاب من كل مكان.. عضتني كثيرا لكنني أصحو وأقاوم وأبكي وأنتظرك.

14- وفي بوست مقارب للتاريخ قرأتُ:

15 - عندما تغيب عني لا أعرف أسير في الطريق.. الجميع ينظرون لي ويقولون هذه بنت وحيدة.

دخلت أُمي متممة وهي لا تخفي ابتسامة عريضة:

- اشوفك مخبوص.

رفعت رأسي من الشاشة:

- اي والله مخبوص.. ريحانة ناعمة ولطيفة وصغيرة وحلوة.

- باين عليك عاشق..!

تساءلتُ بظرافة:

- هو هذا العشق؟

- يمكن... ههههههه

ثم قلت بجديّة كأنني اخبرها بأمرٍ عظيم:

- أفكر بيها دائما.. بس أحسها مخنوقة وما تقدر تعطي كلمة.

- حقها.. أبوها مصيره مجهول وهي الوحيدة لا أخ ولا أخت وتعتقد

ان والدها يرجع ذات يوم وعائشه على هذا الأمل.

- اللعنة عليهم.. ليش هو والدها شنو؟ تاجر لو سياسي مثلا؟

- من أهل الله.. رجل بسيط.. لكن شغلة الطائفية راح بيها الأخضر

والأحمر. خطفوه من أربع سنوات ومصيره مجهول.

## المجنس

في كل مرة أضع بعض المال في أكياس سوداء وأودعه في بيت بديعة فلا أستطيع توفيره في مصارف بغداد الوهمية لا لأن المعمم نزع الثقة من الوضع العام بل لأنني أعرف بيقين أكيد إن الفوضى المصرفية في البلد لا آخر لها، ومن المحتمل أن يضيع أي حساب وهذا متوقع، وما أرسله لحسابي الشخصي في أميركا وعمان ودبي أصبح جيداً الآن وأكثر مما أتوقع.

بديعة قلقة من إن عندي كل هذا المال لكنها خائفة من انفلات المجتمع، ودائماً تخشى اللصوص لكني أطمئنتها إن كل شيء على ما يرام ولا أحد ينتبه الى هذه الأكداس.

أقول لها إن روني حارس جيد مع إنني لا أطيعه، وأعدّها دائماً بتحويلها الى دولارات ليقبل حجمها كثيراً؛ لكنني في الحالات كلها سعيد أن أأتمنها كل هذه الثروة المجانية التي لا جهد لي فيها سوى التنسيق مع المعمم الهلفوت وابو الحارث والبرلماني ابو صابرين والجنرال آلن الذي يزور بغداد كلما سنحت الفرصة له.

أعتقد إن بديعة قلقة بعض الشيء بسبب وجودي الدائم عندها؛ فأنا أميركي كنت أعمل مع المارينز والآن موظف في السفارة وسيارتي



السوداء مميزة تلفت الأنظار وتسبب تساؤلات حرجة لها، ووجود  
أكياس المال ضاعفت من قلقها وخوفها من الاحتمالات السيئة، لكنني  
بين فترة وأخرى أذهب للصيرفة بنفسني وأحوّل الملايين العراقية الى  
دولارات خفيفة فيقل ثقل الأكياس عليها.

وحينما أنقطع عن زيارتها لبضعة أيام امتصاصاً لقلقها من تواجدي  
المستمر في بيتها تتصل كثيراً وتعاتبني وتذكرني بغداء التشريب أو  
السّمك المسقوف أو مرقة الباقلاء وترقق قلبي حينما تقول إن ريحانة  
تفتقدك وتساءل عنك، لكنني أعرف إن ريحانة كفت عن السؤال منذ وقت  
غير قصير ومنذ أن كبرت في هذه السنوات السريعة ونضج خوفها كثيراً  
وبقيت تنظر للمشكلة من زاوية حرجة لا تستطيع البوح بها لكنها بقيت  
تقلقني وبتُّ أخافها وأخاف عليه.

في ليالي البرد والمطر أشعر بدفء غريب في هذا البيت.

تستقدم بديعة كل شيء وأي شيء حتى أبقى يقظاً لتستحث ذاكرتي  
وتجلو عنها غبار ثلاثين سنة مضت فأقول لها كاليائس:

- ذاكرتي صفر.. نسيت كل شيء.

- عليك أن تزور القرية وترى الأهل.

- لا وقت عندي..

أجيب بحزم كما لو أ منع إشراقات روحية تضيء روعي الملبّدة  
بالرماد.

- يعرفون انك موجود في بغداد والقرية ليست بعيدة.

- نسيت كل شيء والله ..

- سألوا عنك كثيراً أثناء وجودي عندهم قبل فترة.

أنظر لعينيها الوديعتين المغمورتين بالحزن وهي تقول:

- أخوتك يتصلون ويسألون عنك .. العشرة تريد رؤية طارق الصغير

الذي هرب من العسكرية في زمن صدام وخلص نفسه من الموت.

أذكر خطوات الهرب وأذكر خطوات العودة الآن فقلت حقيقة

أدهشتني الآن وأنا أعيد الزمن سريعاً:

- هربت من الحرب الى أميركا وعدت مع أميركا الى الحرب .. شيء

لم يخطر على بالي من قبل.

كنت صافناً وهي ترد:

- بين حربٍ وحربٍ يكتب الله الحياة لمن يريد.

كانت بديعة محقة حينما جعلتني أنتبه اليّ قليلاً:

- يبدو إن كل حياتي حرب والفاصلة ثلاثون سنة بدأت بحرب

وانتهت بحرب. اللعنة عليك يا طارق.

استشعرت بديعة جزعي من هذه الحقيقة:

- هل نسيت كل شيء هناك .. ألم تتذكرونا ..؟

- انغمست في الحياة كثيراً.

- ونسيتنا ..؟

- جعت وعطشت وسرقت وسجنت وعشقت وتزوجت وطلقت

وُخِدت ..

- إنها تجربة.

- لكنها مُرة ومريرة.. ضاع عمري بها.

- عدت في نهاية الأمر.

كانت ريحانة تذهب الى غرفتها وتأتي لتجلس قليلاً تستمع الى الحديث بتوتر وتنهض من دون أن تتكلم.. وهكذا..

- اضطررت للعودة.. لا يمكن لمجنس أميركي مثلي يرفض العرض الشهري في هذه الحرب.. كنت جائعا ومهموماً كنت ضائعاً بالفعل.. ثلاثون سنة من الضياع الأميركي.

- لا تعد بعد وابق هنا.. ما لديك الآن يكفيك عمرك كله.

قلت بحزم:

- هذا الوطن ليس فيه مستقبل.. واضح إنه يسير الى الخراب.

- مسألة وقت وتعود الحياة الى طبيعتها.

- لا.. سيقسمونه الى ثلاث قطع شوكولاتة وكل قطعة تأكل أختها الأخرى.

تأفتت وهي تشيح النظر الى النافذة:

- نسمع هكذا.. لكن العراقيين ليسوا كغيرهم.

قلت بإصرار لتعزيز فكرة قطع الشوكولاتة:

- العراقيون هم من قتلوا زوجك.. لم يقتله بشر من المريح.. قادرون على قتلك وقتل ريحانة لنفس اللا سبب وفي أي وقت.

لمعت عينهاها:

- انها محنة.

- القتل الطائفي صار موضة العاطلين عن العمل والأحزاب العاملة في الساحة العراقية مجموعة لصوص وقتلة وأعرف الكثر عن تواريخهم الشخصية.. لهذا لا أبقى كثيراً.. في أي لحظة ممكن أن أستقيل وأعود.. صار لدي مال كثير وسأعوض حياتي.

تغير أختي الحديث:

- اشترى بيتاً هنا وتزوج.

- لا لا هذا مستحيل.

- هل تكره العراق؟

- yes.

- وطنك.

- لا وطن لي.

- انت غائب عن نفسك يا أخي.

yes -

- ألم تفكر بزيارة القرية..؟

no -

- نذهب أنا وأنت وريحانة.

- no.. لا أعرف أحداً.

- اخوتك يسألون عنك.

- .. نسيتهم.

- هههه انت تمزح .. نذهب الى القرية.

- وماذا في القرية..؟

- الأهل كلهم.. الأخوة والأخوات والأعمام والأخوال والعمات والخالات.

- اعتقد اني غير مناسب للقرية الآن.

- انت ابنها القديم.

- لأنني قديم فلا أصلح لها.

- ما تزال القرية قديمة ولم تلوث كبغداد.. لسه نقيه.

- أنا تغيرت كثيراً ولم تعد القرية تعني شيئاً بالنسبة لي.. أنا أميركي يا بديعة.

تشعر بالضجر من كلامي.

تنادي على ريحانة وتطلب منها عمل شاي «خالك ناسي حتى الشاي العراقي»

في الخارج ثمة هواء بارد يدخل من النافذة يشي باعتدال المناخ المقبل على الربيع.

في كل مرة تعيد أختي سيرة القرية وأهلي وأخوتي وعشيرتي، وعقلي لا يستجيب كثيراً أو قليلاً.

لا كلام لها غير هذا تبدد الوقت كلما أكون عندها في البيت محاولة  
أن تزرع بي ذكرى القرية من جديد، وريحانة قليلة الحضور بيننا منشغلة  
بالفيسبوك أو موسيقى النايات الحزينة التي تطال قلبي وروحي المفتتة.  
أحياناً تعزف فيتسلل صوت الناي من غرفتها هادئاً وحزيناً كأنه روح  
جريحة تتكى على عكازة.

تقول بديعة:

- بعد خطف أبو ريحانة لابد من العودة الى القرية. نحن غرباء هنا  
وأخاف على ريحانة.. نحن وحدنا يا طارق في العاصمة.

- لك الحق.. لكنك ستسجنين نفسك في القرية وتسجنين ريحانة  
معك الى الأبد.

- عندما تأتي قسمتها وتزوج لا أقلق ولا أخاف.

- انت متشائمة جداً وما زلتِ أنثى جميلة يمكنك الزواج وعيشي  
حياتك من جديد.

نظرت لي كالمعاقبة حينما انفتحت عيناها وهما تنظران لي:

- كيف تقول هذا وأنت أخي...!

- ما قلت الا الحقيقة.. ليس صحيحاً أن تقتلي نفسك من أجل زوج  
مات.

- كف عن هذا الكلام. زوجي وإن مات فإنه يراني كل لحظة.

- سيقتلكم كلام الغيب هذا وأنت المعلمة المتعلمة.. أعجب لشعب

يمارس على نفسه كل أشكال العنف الروحي والجسدي ويريد الحياة أيضاً.

- زوجي أمانة في عنقي حتى وهو في القبر.

- هذا كلام فاضي.. أنت تقتلين نفسك بلا معنى.

- هكذا ربنتي القرية.

- ومن قال إن القرية تربي بشكل صحيح.

- القرية هي الناموس.

- هذا كابوس ورعب.. قتل بطيء لا معنى له.

- ولدنا أجيالاً بعد أجيال على هذا.

- لهذا بقيتم متخلفين.

- لا.. إنه شرف ونفخر به.

- أي شرف هذا وأنت تقتلين نفسك وجسدك وروحك من أجل

رجل مات.

- إنه زوجي وأنا وقيّة لغيابه مهما طال.

- أنت حمقاء.. ابو ريحانة لن يعود لأنه مات يا أختي.

- هذا طبعنا ولا يتغير.

- لا تتغيرون أكيد.. لهذا فرض الأمريكان عليكم مجموعة زعران

طائفين أفضلهم كيشواني في السيدة زينب أو بائع طماطة في حارات

لندن العتيقة أو قواد في أي مكان أوربي.

- أفضل من دكتاتور أرعن جعلك تهرب من البلاد ثلاثين سنة.

- وستهربون كلكم من هؤلاء.. هؤلاء قتلوا زوجك وسيخطفون ريحانة وانت صامته لا تملكين الا البكاء والحزن طول عمرك.  
- نأمل أن تستعيد البلاد عافيتها.

- لن يحصل مثل هذا.. وزوجك المخطوف والمقتول دليل يعيش معك كل يوم.  
- قد تكون فورة وتنتهي إن شاء الله.

- ما هكذا تُحسب الأمور في البلدان الذكية. خطفُ زوجك ليس حادثاً عرضياً.. كم زوجاً أختطفوه وكم إبناً وبناتاً ضاعوا في موجات العنف والخطف والقتل؟ هذه ليست فورة وتنتهي.. هذا ناتج من نواتج شعب أمي وطائفي والجماعة الطائفية يغذونه كل هذه السنوات حتى أينع وأثمر وصار شجراً يطال الجميع.  
- الله فوق الجميع.



## الكاميرات

وضعي ليس على مايرام.

أختنق وأتنفس بصعوبة وأعلى صدري مضغوط الى حد كبير.

كنت أهرب من المنطقة الخضراء المكبوسة بالإسمنت والسياسيين الى بديعة لأقضي بعض الوقت في بيتها الصغير الدافئ واستذكار القرية ورؤية ريحانة التي شكّلت بي روحاً جميلة لم يعد بمقدوري فراق طيفها وشكلها الطفولي الذي لا يكبر بداخلي.

لم تنس بديعة لا شاردة ولا واردة من طفولتي القديمة، فتعيدني بحميمية الى تلك الأجواء التي غابت مني في هجرة الثلاثين سنة، وتضحكني بالكثير مما تستذكره من شيطنتي الطفولية ووقاحتي وتحاول إن تقنعني بجدوى أن أكون طارق العراقي فلا ينفع أن أبقى مارك الأميركي وتعيب عليّ أنني صرت مسيحياً وتركتُ اسلامي.

تعيدني الى سيرة القرية:

- لا تبقَ أمريكياً ولا مسيحياً.. قرينك لازم تبقى في روحك يا أخي.

كمن تعلمني سيرتي الأولى وكما لو إنها ليست الطفلة الصغيرة التي كانت تتعلق بظهري وانا أعبر الشط بها الى الضفة الأخرى ولا كإنها

كانت تحتمي بذيل دشداشتي حينما تنبح علينا كلاب القرية.. ههههه..  
إنك تنشطين ذاكرتي بالتدرج.

أترك بعض الوقت مبنى السفارة الأميركية فالحياة فيها خلية من أوامر  
وشفرات وخرائط وأوامر واتصالات ومتغيرات وغموض كبير كما  
لو انتهى لمعركة بين دقيقة وأخرى. لكنني ما أزال أختنق وأشعر بأعباء  
السفارة وثبات العمل في ترجمة التقارير المتشابهة التي ترد الى السفارة  
بشكل مستمر.

لم أكن على ما يرام حينما اتصل بي الأربعيني المعمم وقال أريدك  
لموضوع مهم. طلبت منه تأجيل اللقاء لأن صحتي ليست جيدة وإني لا  
أتواجد كثيراً بالمنطقة الخضراء هذه الفترة.

أعاد الاتصال بعد دقائق فأخبرته إني مروجع ولا يمكن أن نلتقي.

كرر بشكل استفزازي: الأمر مهم جداً.

لكنني لم أحفل به مع إني كنت أعرف إن الأمر مهم جداً ولا يحتمل  
التأجيل.

قال: آتيك الى السفارة لو شئت..

فوبخته بطريقة فلتت فيها أعصابي فقلبي يؤلمني منذ بضعة أيام  
وشراييني مسدودة وعمليات الماضي يبدو لم تعد مجدبة كثيراً وربما  
أحتاج الى قسطرة جديدة.

لكن مسجاً من زهور جعلني أستيقظ وأدرك حجم الورطة: سيد مارك..  
أبي عرف بما حصل بيننا ذلك الصباح عن طريق الكاميرات التي نسبتُ

إنها موجودة في البيت كله.. أمي اكتشفت ذلك وأخبرت أبي.. صدري يؤلمني.. أنت أكلت حلمتي يا سيد مارك.. أنا فتاة بلا حلمة الآن.. صدري متورم.. أبي غاضب عليّ وعليك.. سارع الى حل المشكلة.. احبك سيد مارك.. أنت رجل فعلاً.. تذكر إني فتاة بحلمة واحدة..

حيات نفسي لهذا اللقاء التعيس وفي رأسي أكثر من حل أوله المال وآخره المال، فأنا أعرف هذا النوع الذي يغرق في مستنقع المال في ظروف البلاد الجديدة بصعود الهوامش الى متن البلاد بطريقة التسلق وحرق المراحل، وهذا المعمم هو أقل من هامش لكن هذا ما حصل أن يكون سيد المال والوسيط الغامض لمجموعته في الحكومة والبرلمان. حرصت على أن ألتقيه في السفارة بمكتبي كعامل نفسي ضاغط عليه وكانت عيناه شريرتين الى حد أفهمه ووجهه يشي بغضب بين وفي عموم ملامحه ثورة لم يعد بإمكانه إخفاؤها.

- سيد مارك أنت خنت زادي وملحي.

كنت أتوقع مواجهة هذا الرجل في أية لحظة لاسيما بعدما أعلمتني زهور إن والدتها كشفت لقاءنا في الكاميرات الصغيرة المتوزعة في أرجاء البيت وكانت غافلة عنها.

1- على نحو متأمل فكرت إن هذه لعبة سمجة أوقعتني فيها الفتاة بترتيب منه،

2- لكنني استبعدت ذلك،

3- فما حصل كان خارج أية لعبة محتملة.

4- ربما هناك شيء لا أعرفه.

- 5- وقد تكون لعبة تسقيط من أجل ابتزازي أو تمرير صفقات رهيبه عبر السفارة وبواسطتي أو لا تكون.
- لم أتقصد أن أجيبه ببرود لكنني قلت ببرود فعلاً:
- ما حصل قد حصل يا سيد.
- ليس بهذه الصورة سيد مارك. هذه مثل ابنتك.
- كنتُ ثملاً وتوقعتُ أن أجذك في البيت.
- وحينما لا تجدني يجب أن لا تدخل البيت أصلاً.. هذا عُرفنا الاجتماعي والديني.
- الذي حصل إنني دخلت.
- وحاولت أن أكون مرناً فالأمر يتطلب هدوء الأعصاب كثيراً:
- أنا حاضر سيدي لكل تعويض.
- هذا شرف سيد مارك ولا يُعوّض بالمال.
- رقبتني أمامك سيد.
- ظل يديم النظر لي مختلج الأوصال لا يعرف ماذا يقول فمثلت عليه دور الضحية الضعيفة عارضاً أمامه كل شيء من دون تردد وخجل.
- أمسك رأسه بين يديه حائراً ثم رفعه كأنما وجد الحل:
- سيد مارك أنت انتهكت حرمة بيتي وشرف ابنتي.
- سيتعوض كل شيء سيدي.. الطب الحديث صنّع قطع غيار للإنسان.
- لكنها خيانة سيد مارك.. أنت ارتكبت خيانة.
- لم أكن على وعيي صديقي.

- انت رجل في الستين من عمرك.

- ممكن نحل الموضوع بكل طريقة تريدها وترضيك.

كان حائراً فعلاً وأجوبتي لا تفتح منفذاً ولو بسيطاً له:

- سأخذها الى أميركا.. هناك يضعون لها حلمة طرية ويعيدون

صدرها لوضعها الطبيعي.

استفز نفسه بطريقة هجومية مباغته:

- أنت وحش مستر مارك.. سأقاضيك وعليك أن تتحمل نتائج هذا

السلوك الوحشي.

خبرته بين السفر الى أميركا أو أي بلد يراه مناسباً أو أدفع له مالاً

تعويضياً مناسباً لكنه عاد يغلق منافذ الحل من دون أن يدري:

- زهور وحيدتي ومدلتي.. ولو عرف أعمامها وأخوالها بالأمر لسدوا

عليك منافذ بغداد كلها.. وأنت تعرف وضعي في الحزب والحكومة.

- لك الحق سيدي. سأعترف انه تجاوز مني لكن مثل هذا يحدث

كثيراً في أي مكان.

- زهور ستعرض للقتل من أعمامها وأخوالها لو عرفوا.. هذا أمر

مستحيل لدينا وعليك أن تفهم صيغة مجتمعنا وأخلاقه.

حاصرني في هذه الزاوية القبيحة.

أكره هذا المجتمع ولا يمكن أن أطيقه غير إنه كان يلقي علي الحجاج

التي عليّ أن أستوعبها وأحفظها وأجاره فيها.

كنت أتساءل في نفسي: ريحانة ليس لديها أب. ريحانة مسكينة.

ضحيتي الصامته.. من يدافع عنها إذن؟

يختلج قلبي ويتضاعف نبضي وأنا أرى في هذا الرجل الذي جاءني  
بعمامته الكاذبة شخصاً آخر لا يمكن إختراقه كما توقعت؛ غير إنني  
بطبيعة عملي هذه السنوات في السفارة أدرك إن للسياسة أبواباً ونوافذ  
ومفاتيح كثيرة وإن للمشاكل مثلها من الحلول.

بقيت قلقاً من فضيحة الحلمة المحتملة والسيد يزيد من تهديده لي:

- سأقاضيك مستر مارك فأنت صديق خائن وتجاوزت على حرمة  
بيتي وأكلت حلمة ابنتي الوحيدة.

لا أعرف ماذا أقول سوى إنني ألوح له بالمال الكثير:

- سأضاعف لك المال على طريقتكم في حل هذه الأمور وأرجو أن  
تفهم إنني رجل قدمٌ هنا وقدم هناك في أية لحظة.

قال بإصرار:

- سأبلغ السفير بتجاوزك على ابنتي وحرمة بيتي أولاً قبل أن ألبأ  
الى القضاء.

- طوّل بالك يا سيدي. إن كنت تريد أن تضعني في زاوية حرجة مع  
السفارة فأنا لا أملك غير حقيبة صغيرة أحملها وأطير بلمح البصر فلا  
بغداد تلزمني بالبقاء ولا حضرتك أيضاً.

انفتحت عيناه أكثر مما يجب:

- لن تهرب بهذه السهولة. لا تتصورني غشيماً سيد مارك فأنت  
العراقي القديم ومهما صرت أمريكياً ولذت بالسفارة فلن أتركك تطير  
بمثل ما تتصور.

ثم أضاف بخبث أوجعني حقاً:

- حتى لو طرت بغفلةٍ مني.. ستبقى أختك وابنتها الحلوة.. فهمتي؟؟

فرشت يدي أمام وجهه محاصراً وتصنعت اللامبالاة:

- طيب سيدي.. أنا أمامك وأعترف بالخطأ. قل لي كيف أرضيك؟

رد بحزم:

- القانون أماننا أولاً ومن ثم قانون العشائر.

- أترى بهذه القوانين تحلّ المشكلة؟

- لتعرف إن هناك أكثر من طريقة.

اشتغلت عندي حاسة أخرى كنت أؤجلها لحين ما أرى ماذا يخطط

هذا الكائن وماذا يجول بعقله:

- مرة أخرى أقول لك الحق يا سيد. ومرة أخرى أعترف إنني أخطأت..

لكن ألا ترى إنك ستوقع نفسك بفضيحة.. وتوقعني معك..؟

نظر لي باستهجان.

وجدت قلقاً في عينيه ووجهه الذي اكتسى برجفة كان عليّ أن أراها

بوضوح مهما حاول أن يخفيها لكنه وجه لي سهماً قاتلاً:

- أحب أن أبلغك إن ابنة أختك.. الحلوة ريحانة ليست بعيدة عن

متناول يدي..!

## السفر

حينما دخلت المرأة على نحو مفاجئ لم تكف عن البكاء وكان روني يطوّقها بذراعيه.

نظرت اليها مخذولة كمن تستنجد بها في لحظة اليأس..أمي.  
حضنتها بشفقة وهي تراها ذابلة ومنكسرة:

- خير؟

- لا شيء.. مزعوجة من نفسي.

- طارق قال سيأخذك معه الى إسطنبول للعلاج.

-اي.

بقيت تنشج دافنة رأسها في صدر أمها والأخيرة تسرح شعرها وتطمئننها وتشفق عليها.

- اتصلت أم عادل في الظهر.

رفعت رأسها وهي تمسح عينيها وتفر كهما.

- كلمتني.

لفتت المرأة المرأة المكسورة منذ أيام.

- سأوصي خالك ليشتري لك مرآة غير هذه.



- لا.. خليها.

- المرأة المكسورة نحس بالبيت.

- خليها.. أريد أشوف نفسي من كل زاوية.

- انت ريحانة واحدة.

- انا.. ريحانة.. واحدة.. لكن هذي المرأة تخليني أشوف نفسي

بأكثر من ريحانة. كل جزء منكسر في المرأة هو جزء من ريحانة.

- اسم الله عليك.. لا تفكري بهاي الطريقة.. مجنونة.

أخرج المرأة رنين هاتفها المتروك في الصالة وسمعتها ريحانة:

- اهلا طارق

.....-

- الحمد لله بخير

.....-

- اي تروح معاك

.....-

- بس تاخذ إجازة كم يوم؟

.....-

- خلينا نشوف رئيسة شعبتها وتندبر الإجازة حتى لو بلا راتب.

.....-

نبهتها الحاسبة برنين خفيف الى وجود رسالة فيسبوكية.

نظرت الى الإشارة الحمراء وتناقلت لفتحها لكن الإشارة تكررت ثم

مرة ثالثة فخشيت أن تكون سراب.

رف قلبها وهي تشعر بضعفها الكبير كما لو إنها وقعت في حفرة عميقة وتبعثر صوتها في عمقها الغائر في روحها.

اقتربت من الشاشة وعن طريق الخفاء الذي هي عليه فتحت الرسالة فطالعتها صورة الضابط الذي تراه ولا تراه في يقظتها دائماً.

غمرها إحساس لم تستطع فهمه وهي تقرأ:

- الوو.. ريحانة.. موجودة؟

ترددت للحظة وهي تقرأ النداء وقلبها يعتصر وجسدها يخنض وهي ترى في الضابط صورة قريبة من شيء ما في قلبها، لكنها تشعر بالتخاذل والضعف والألم فاستعادت على نحوٍ سريع اللقاء الأخير وتمكنت من أن تحصي لحظات هدوئه وهو ينظر إليها بإعجاب وكانت عيناه تتكلمان ووجهه لا يشي بالكتمان.

### صفير الحب. الصفير الرابع

1- أهلا عادل

2- مساء النور كيف الحال؟

3- بخير الحمد لله

4- آسف دخلت عليك بغير موعد

5- ولا يهمك

6- أخشى أن تكوني نائمة

7- لالسه

8- كيف مساؤك

- 9- عادي
- 10- ... أفكر بك كثيراً
- 11- .....
- 12- بودي.. بودي أن تكوني معي.. أنت شابة لطيفة ..
- 13- .....
- 14- عجبتيني ريحانة.
- 15- شكراً عادل.
- 16- مثل ما قالت لك الوالدة.. لك كل الوقت.. لكنني أريد أن أطمئن وإجازاتني قصيرة.
- 17- تروح وتجي بالسلامة.. أنت انسان لطيف عادل.. لكن شوية ظروف عندي.
- 18- كلنا لدينا ظروف لكن يمكن أن نتغلب عليها.
- 19- صح.. لكن ظرفي..
- 20- كلمتني الوالدة عن ظرفك واختطاف والدك وما تركه من أثر في نفسيتك.
- 21- اي..
- 22- قلبي معك.
- 23- عادل.. يمكن أسافر مع خالي الى اسطنبول هذا الاسبوع
- 24- نفسيتي تعبانة كثير.

## الذبول

أقلقتني تهديد المعمم.

هذه أول مرة أشعر بالضعف.. وضعفي ريحانة لا غيرها.

وجدت نفسي في خانق ضيق أزعجني كثيراً كما لو فقدت خيارات المواجهة في لحظة هي أكثر من الضعف شلّنتني حقاً، فخفت أن تكبر بي وتستنزف طاقتي بالتفكير ويفعلها هذا المعمم كرد اعتبار يوجعني ويقضي علي.

اضطرت أن أخبر مستر Jeem بطريقة ما ونقلت له مخاوفي من أن يكون هذا القزم يخطط لاختطاف ريحانة أو يفعل شيئاً يجعلني نادماً عليه فزاد من قلقي حينما ردّ: هذه أمور شخصية مستر مارك يمكنك معالجتها مع الرجل.

كتبت الى زهور عبر الهاتف «بماذا يفكر والدك..»

لم تجبني نهائياً كاملاً لكنها أجابت بعد منتصف الليل «لا أعرف. إنه متوتر منك. خلصني سيد مارك. أحبك»

- 1- لزهور أبّ يدافع عنها بشراسة وريحانة لا أب لها.
- 2- يوماً أنظر الى عيني بديعة الحزيتين فينتابني القلق.

3- هذه المرأة لا تتحمل صدمة أخرى.. ستنفجر وتموت.

تطوف في رأسي احتمالات سيئة كثيرة لا أقوى على صدها  
ومعالجتها فكنت أنادي على ريحانة لا لشيء إلا لأنني أريد أن أراها كما  
لو أحميها من أي طارئ الآن.

كانت عيناها حزيتين كعيني بديعة لكنهما جميلتان باللون الزيتوني  
المتحول فيهما، لكنني أهرب خائفاً وخجلاً لتلافي ذلك الإشعاع  
المميت فيها.

بدأت أراها وردة في حديقة كلها نسور وضباع وهي داخل الأسوار لا  
تقوى حتى على الصراخ.

لا أب لريحانة التي عشقتها وحلقتُ معها في لبنان فبقيت وردة  
متروكة أخشى أن يقطفها المعمم وعصابته الملتحية.

كررت زيارتي للبيت وتعلمت البقاء فيه حتى الصباح بإحساسٍ  
مسؤول لم أستطع مقاومته من أجل بديعة وريحانة، ويبدو لي إن روني  
هدأ بعض الشيء وقلل من تكشير أنيابه علي ونباحه المخيف، لكنني  
بقيتُ في حذر منه وبديعة توبخه كثيراً وريحانة تستدرجه اليها وتلاعبه  
كطفل ووجدته بالفعل أهدأ وظل يزيد من هدوئه كل يوم حتى كفّ عن  
النباح تقريباً عندما أدخل وأبقى الى الصباح.

أستطلع روحين وحيدتين في أيام مثقلة بالذكريات عليهما وكنت  
أشعر بهذا الثقل الموجه، وما يزيد من ثقله هو وضعي الصحي وارتكابي  
لحماقات طويلة بدأت اعني حجمها وخطورتها.

ريحانة.. أنا خالك طارق.. سأترك مارك.. أريد أن أكون قوياً بطارق  
وليس غيره.

- 1- ذبلت روحي بالتدريج وصرت أرى ريحانة بشكل آخر.
- 2- لا أب يحميها كالمعمم الهلפות.
- 3- كانت ترى بي أشياء كثيرة لكنني قتلت كل روح بيننا.
- 4- زهور التي قصمت كل شيء ونبهتني الى كل شيء.
- 5- فتاة بلا حلمة وريحانة بلا غشاء بكارة.
- 6- كلاهما شرف متتهك والجاني واحد.
- 7- لزهور أب سيبذل كل جهده لرد اعتبارها
- 8- ولريحانة الخوف من المجهول والصمت الطويل.

تستدرجني بديعة كل ليلة الى وكر القرية محاولة أن تستعيد ذاكرتي  
في حكايات القرية الظريفة وأرجع الى ذلك الصبي قبل هربه من الحياة  
القروية في رحلة شاقة الى أميركا متخلياً عن كل دين وصلة وذكرى  
كابوسية من الحرب.

## الفريقة

اتصلت منذ الصباح بمستر Jeem وأبلغته بعدم استطاعتي أن أكون في السفارة لأسباب صحية، والرجل يتفهم حالتي الى حد جيد ويعرف أن لي أختاً في بغداد أتواصل معها بين وقتٍ وآخر كما يعرف أن زوجها مخطوف منذ أربع سنوات.

روني صار وديعاً معي ولم يعد ينبح كثيراً علي وأخفى تكشيراته المخيفة عني وصار يدور حولي ويتشممني بطريقة هادئة مع توتري الطفيف منه في بعض الأحيان، لكنّ بديعة تطمئنني بأن روني (أخذ عليك) ومرة واحدة قالت ريحانة (روني يعرف ما في القلوب) ولم أفهم قليلاً أو كثيراً هذا التلميح المفاجئ غير إنني تناسيته مادام روني صار ولداً عاقلاً معي.

ليلة أخرى في بيت بديعة بكهرباء مقطوعة وهو الأمر الذي حقزني في اليوم التالي لشراء مولدة صغيرة تكفي لإضاءة البيت.

بديعة مصرّة على أن تقرب صورة القرية وأهلها وكانت تتحدث ووهج المدفأة النفطية يعكس ملامحها بوضوح:

- يفترض بأنك أكبر مني وتذكر كل شيء.

- لم يعد رأسي في القرية.

جلست ريحانة وبدا انها مستعدة لسماع حكايات القرية القديمة التي تحفظها بديعة وتشعر بالطمأنينة حين ترويها:

- أتذكر نهر القرية..؟

تأبيني أنهارٌ كثيرة في رأسي ولا أستطيع أن أفرز منها نهر القرية:

- يعني.. أذكره الى حد ما.

كنت أصغي اليها وابتسامة صغيرة لا تفارق وجهي:

- كنا نسبح فيه كل يوم.. بنات وصبيان ورجال.. نحن البنات كنا نسبح

بالدشاديش وانتم الصبيان عرايا ههههه

- ههههه كيف تتذكرين ذلك..!

ضحكت من ذلك وأنا أتخيل نفسي عارياً في ظهيرة القرية الساخنة

بلا شك.

- لا أنسى أي شيء.. أنا بنت القرية.

- لهذا بنات القرية حلوات.. ههههه

- كل الصيف نسبح في النهر.. انتم الصبيان تتسابقون لعبوره.. ونحن

البنات نتسابق في الغطس ومن تبقى تحت الماء وقتاً أطول فهي الفائزة..

- ربما يأتي ذلك على بالي قليلاً.

- عليك أن تتذكر وحيدة ابنة العم مرتضى التي غطست ولم تخرج..!

- لا أتذكر.

- وحيدة صبية مثلنا. كانت ماهرة في الغطس ونفسها طويل ودائماً



تفوز علينا نحن البنات..

- البنات كثيرات ولا أُمَيِّرُ بينهنّ.

- في تلك المرة غطست وكنا نعد لها 1 2 3 4 5 6 7 8 9... تبقى كثيراً حتى العد العشرين وربما أكثر.. لكنها حتى العد 30 لم تخرج.

انتبهت وأنا استحث ذاكرتي بشكل بسيط:

- بقينا ننتظر خروجها لكنها لم تخرج..

عينا بديعة تحثاني على التذكّر:

- غطسنا وراءها وفتحنا عيوننا تحت الماء لكن لم نجد غير سيقان النباتات والشمبلان.. صرخنا عليكم بأنّ وحيدة غرقت فأسرعتم كلكم..  
انت كنتِ السباق بين الصبيان.

سكتت قليلاً كما لو تريد تقريب الحادثة القديمة الى ذاكرتي ومخيلتي:

- أتذكر كان نَفَسُك طويلاً. غطستَ قبل الجميع في مكان اختفائها لكنك لم تجدها.. كنتَ أكثر من غيرك قلقاً.. كنتَ تسألنا كل لحظة أين مكان غطسها وكنا نشير الى المكان الذي نتواجد فيه. ساعدك الصبيان والرجال والتمّت القرية كلها وغطسنا كلنا في النهر نبحت عن وحيدة التي ابتلعها الجن بقدرة قادر.

كنتُ أتمثل الصورة التي ترسمها لي بديعة وكان شيء ما ينبثق من تلك الطفولة.. النهر والزرع والنخل والماء الجاري وصراخ القرية عن وحيدة.

- فص ملح وذابت وحيدة.. سبحان الله.

تساءلتُ مستفسراً:

- وما عثرنا عليها..!

- هبت كل القرية.. بعض النساء يصرخن على جرف النهر وقسم من الرجال غطسوا الى مسافات بعيدة مع الماء الجاري وقسم آخر جاء بشباك الصيد لعلها عالقة في أسفل الماء مع الشمبلان والنباتات.. لكن مرت أكثر من ساعة ووحيدة ابتلعها النهر.

- مسكينة.. تمتمتُ وأنا أقرب من خيال النهر الجاري الذي أغرق البنت.

- ما أزال أتذكر صراخ أمها على جرف النهر.. ما أزال أتذكر كيف شقت زيقها وهي تنادي وحيدة التي غرقت بلحظة سريعة من دون أن نعرف كيف غرقت وهي الغطاسة ذات النفس الطويل بين بنات القرية.

- غرقت..؟ تساءلتُ كالأبله

أكملت أختي وهي تتألم:

- وجدها الأولاد والصبيان بعد ساعات طافية في قرية ثانية مجاورة لقريتنا وعالقة بين جذور الصفصاف.

- كيف؟

- وجدها الصبيان الذين ظلوا يبحثون عنها كل النهار.. لكنها ميتة يرحمها الله.. لم أشاهد جثتها.. قالوا إنها منتفخة وإن أبو الزمير بقّر وجهها الحلو.

- ولكن كيف غرقت وهي الغطاسة الجيدة كما تقولين..؟

- لا أحد يعرف.. لكن الذي شاع إن حية كانت خاتلة بين الشمبلان لدغتها وقتلتها لفورها ثم سحبها الماء بعيداً قبل أن تطفو غريقة.

بقيتُ ساكناً أحاول استذكار النهر ومشابغتنا اليومية فيه نحن شلة الصبيان، فلم يظهر كثيراً ذلك النهر الذي أغرق وحيدة سوى ومضات بسيطة ركبتُها على أكثر من نهر رأيتُه في طوافي الهارب على مدار ثلاثة عقود.

كانت ربحانة صامته وتنظر الى شفتي أمها وهي تروي حادثة وحيدة.

## الحل

بقينا أنا والمعمم الأربيعيني معلقين بضعة أيام لم نتصل ببعضنا مع إن  
البنزس الذي يجمعنا يستوجب اللقاء في نهاية الشهر.

كنت قلقاً بعض الشيء، فقد يتحول المعمم الأربيعيني الى رجل  
أحمق في أية لحظة ولو أنّ مصيره المالي مرتبط بي كلياً وأتوقع أن لا  
يفرّط بهذه الشراكة المفيدة، لكنني في الأحوال كلها عليّ أن أحذره  
وأتحاشاه قدر الإمكان وأسوّي القضية بيننا بأية طريقة ممكنة.

كانت زهور تبث مخاوفها بين يوم وآخر بمسجات سريعة تتلاحق  
فتزيدني حيرة وقلقاً فكنْتُ أعيد قراءتها بدقة وإمعان:

«والدي غاضب جداً سيد مارك حاول أن تصالحه وترضيه»

«صدري يوجعني»

«أنا زهورك بلا حلمة يا سيدي.. سارع للحل»

«نهدي الأيسر مشوّه سيد مارك لأنه بلا حلمة»

«ادفع لوالدي واقنعه بأن العلاج ممكن..»

«أمي غاضبة عليّ وعليك وتوعدك..»

«أمي زعلانة عليّ ولا تكلمني..»

«أنت رجل سيد مارك.. ما زلت أحلم بك..»

«إن لم تستطع فالحل هو أن تأخذني بعيداً عن المنطقة الخضراء»

اتصلت به بعد الظهيرة على مفضض ولم أستطع إخفاء قلقي وارتياحي وأنا أفكر في كيفية وقوعي في فخ الصبية زهور، فهناك موعد مالي بيننا قد حلّ ولم أستطع إخفاء ارتباكي من لقائه وأنا أتصل به:

- يسعد صباحك سيد.. موعدنا اليوم خارج السفارة في الطابق الأرضي من نفس المطعم.. حول موضوع النسبة المالية لحضرتكم.

تمكنت الى حد ما من إخفاء ارتجافات صوتي وتصورته هادئاً الى حد جيد ووعدني أنه سيكون في الوقت المحدد، وتحوطاً لكل احتمال أخبرت مستر Jeem بأني سأكون هناك قبل المساء ولمدة ساعة واحدة للقاء السيد فعلق بخبث:

- السيد لديه مشوار الى إيران لكن بعد أسبوع ههههه

كان وجه السيد الذي جاء في تمام مواعده ملبداً ومتكدرأً وكان يحاول أن لا ينظر لي.

جاء ببدلة سوداء فضفاضة كالعادة وقميص أخضر ياقته عريضة وغير مكوية.

كنت أكثر هدوءاً منه محاولاً أن أنهي كل شيء في هذا الجلسة، فالمال يفرّخ المال ويطيّب الخواطر ويمهد الطريق الى تسويات كثيرة. لهذا رفعت مظروف الدولارات الأبيض الثخين ووضعت بيننا.

- صديقي العزيز.. هذه حصتك الشخصية كما هو مقرر كدفعة ثالثة على أن تأتيك البقية تبعاً في مواعيدها المتفق عليها والمواعيد المتبقية أقل من شهر كما تعرف.

أدنيتُ المظروف المنتفخ ووضعتُه بين يديه منتظراً ردة فعله.

أمسكه كما لو يخشى أن يختطفه أحد وكان يوزع نظراته في المكان الهادئ وبدالي إنه ينتظر شيئاً مني أو هكذا خامرني شعور آني.

- الآن أنصرف إن لم يكن لديك ما تقوله.

بدوتُ أكثر حميمية وأنا أقول باسترخاء:

- أنت صديقي وأخي وقد ربطتنا مصالح مشتركة والحمد لله الأمور جيدة وستكون أفضل مستقبلاً..

كانت عيناه تتحركان الى أكثر من اتجاه:

- وما حصل لم يكن مقصوداً لكنها.. لكنها نزوة على كل حال وأنا جاهز للتعويض بكل طريقة تريدها ولن أناقش أو أعترض..

شعرت بالتعب لكنني استكملت:

- أكرر أنت أخي وصديقي.. وأنا آسف لما حصل ولا داعي لأن تتطور المسألة فتضرك وتضرني ونسيء الى سمعتنا وأنت رجل حزبي معروف.

ثم أضفت بسرعة:

- نحلّها بيننا أنا وأنت.

في عينيه بريق لم أفهمه حاول أن يخفيه بعقد حاجبيه وهو يتأفف:  
- لا حل سيد مارك.. درست الموضوع من كل جوانبه أنت خُنت  
زادِي وملحي وبيتي.

- وضعت دليلي على نفسي واعترفت بالخطأ وكررت على حضرتك  
إنني جاهز لكل تعويض في العرف العشائري عندكم.

قال باعتداد لا يليق به كما أتصور:

- أنت عراقي قبل أن تكون أمريكياً وأمريكيتك لا تعني أن تخرج عن  
حدودك الاجتماعية..

سكت قليلاً وهو ينظر بعيني وأضاف:

- أنت قمت بعمل بشع وعليك أن تتحمل نتائجه.

وافقته بطريقة مبدئية:

- سأتحمل كل نتيجة إن كان هذا يُرضيك ويغلق الموضوع كلياً.

- لا تنس إنك لست بعيداً عني.

أزعجني بصراحة فرددت بهدوء أيضاً:

- قد يكون هذا التلويح لا مبرر له وأنت تكرره دائماً فأنا أعرفك حق  
المعرفة.

لوّح بتهديد كنت أخافه فعلاً:

- ولا تنس إنك في بيت فيه صبيّة مثل زهور وذراعي طويلة.. ألا  
تخشى عليها!

سحبت نفساً عميقاً وتظاهرت بالهدوء الأخير:

- لدي حل أخير أرجو أن يرضيك إذا لم تقتنع بالمال أو التطبيب  
على نفقتي.

نظر بوجهي طويلاً وتلبدت سحته بألوان خفيفة فقلت له بوضوح:

- أتزوج زهور..!



## الدشاديش

لاحظت بديعة سهومي مثلما لاحظته ريحانة وأعتقد إن روني الوديع  
جداً معي لاحظ هذا أيضاً، ولكني كعادتي أبرر قلقي بشرائيني المقفلة  
وقلبي الضعيف وأنا أنظر لريحانة المتوردة أمامي، متخيلاً وحشاً بهيأة  
معمم يريد الانقضاض عليها في غفلة مني ومنها.

كان مطر الليل خفيفاً ينقر السطح والشبايك فيزيد البيت دفناً  
وحميمية وجمالاً أفقده في روعي المتشظية:

- سأذكرك بشيء هههههه كنت أنت البطل فيه

تحدث بديعة وهي تقدم لي استكان الشاي المهيل وريحانة متفرصة  
الى جانبها وأبدت استعدادي للسماع وأنا أطوي مخدة تحت ذراعي:

- للنهر حكايات كثيرة لم تغب عني ولا لحظة ولم تنسني بغداد  
القرية ولا أهلها لهذا حنيني كبير لا تتصوره يا طارق.

- إحكي لي.

- كما في كل يوم كنا نسبح في النهر أنتم عرايا كما ربي خلقتني..  
هههههه.. ونحن في الدشاديش التي لا نملك غيرها.

نضحك معاً وتواصل:

- نسبح فيها وتجف لوحدها وننام فيها وكل شيء يمضي في يومه.

تتحسر قليلاً:

- كنا فقراء لكن الحياة كانت بسيطة.. كنا متعنفين بأخلاقنا وعزة

أنفسنا وكرمنا.

وكما لو تقول حكمة:

- كنا متساوين في كل شيء.

يزداد المطر نقرأ على سطح البيت ونافذة الصلاة:

- في موسم الزرع يفيض ماء النهر ويجري بسرعة الى الشط الكبير.

تهيات لحكايتها الجديدة:

- وذات مرة جرفني فيض النهر أنا ونورية وكادت تحدث كارثة

لولاك.

انتبهت بفضول وأنا أبتسم:

- كنت أصبح طارق طارق.. فالأخ بالنسبة للأخت هو كل الدنيا..

الأخ سند الأخت وسدتها الكبيرة.. كنت أصبح طارق.. طارق.. حتى

نورية المأخوذة بفرعي كانت تناديك.. طارق.. طارق.

صممت قليلاً وهي تنظر بعيني:

- طارق هو أخ لكل بنات القرية.. الغربية أخت والقريبة أخت.. ناس

القرية تعرف بعضها حد الأنفاس.

- نعم.

- هرعت لي بشجاعة والماء يجرفنا أنا ونورية ونحن نصيح باسمك حتى كنت في وسطنا مثل صل الحية هههههه وبالرغم من حجم جسدك الصغير ذلك اليوم إلا إنك رفعتنا واحدة من اليمين والأخرى من الشمال وسبحت بنا بالرغم من تيار النهر الجارف وأنقذتنا من غرق أكيد.. هل تتذكر هذا...؟

قلت بتسليم:

- يبدو هذا صحيحاً.. لكن لا أتذكره بالتفصيل.

## العازفة

قد يكون المطر الغزير الذي هطل هذا الصباح سبباً لعدم ذهابي الى السفارة؛ لكنه ليس هو السبب في الحالات كلها فاكثفت باتصال سريع مع مستر Jeem ومن ثم شغلت نهاري بالفيس بوك وحوارات كثيرة مع أصدقاء في أميركا ودبي والصين ومع الجنرال آلن الذي اتفقنا على أن نلتقي في إسطنبول في زيارة خاصة، ومع إننا تكلمنا بالشفرات المغلقة بيننا إلا إننا أنهينا الحديث خلال دقائق بأمل أن يرسل على الايميل بعض المقترحات لتطوير عملنا المشترك في المشاريع الكثيرة المقبلة.

كان روني ينظر لي من النافذة كأى ولد عاقل وهادئ، وتأكدت من زوال عدوانيته معي في ملاطفته وهدوئه، بينما كانت بديعة تتفقدني بين لحظة ولحظة كأنني طفل صغير تغذي بالفاواكه ولم ينقطع الشاي المهيل عني حتى مجيء ريحانة المبللة بالمطر في الظهيرة الباردة من دوامها الطويل.

استعدت على نحو لا بأس به شيئاً من صحتي وامتلات نسبياً بالدفء الحميم الذي أغرقتني به بديعة وريحانة الصامته التي تنظر لي بعتاب وطفولة أكبر من تلك الطفولة التي عرفتها فيها منذ أربع سنوات يوم كانت فراشة خفيفة تطير وتحط على قلبي.

انشغلنا على نحو بسيط بالعزف على آلة القانون التي أعرف كيف  
ألاعب أوتارها من دون أن تتكلم معي وكانت تؤثر على نشاطاتي  
المتكررة وأنا أشعر بأن أصابعي يابسة وغير مرنة غير قادرة على أن  
تستخرج أي نغم.

تركت الآلة المتعبّة ونظرت إليها وهي تتفحص ناياتها المصفوفة  
وتمسكها بالتعاقب حتى وقفت على ناي من دون غيره. أبيض اللون  
ومستقيم كِتابٍ طويل وبدت لي ثقبه غير متساوية وبعضها محزوز من  
جوانبه المدوّرة.

رفعته وتأمّلته وتفحصته وظلت تنظر إليه طويلاً ولا أعرف بماذا  
هممتم لكن اتضح إنها تتكلم معه أو مع نفسها.

كانت لحظات مشوبة بالصمت خرقتها روني الذي دخل فجأة من  
الباب المفتوح يتشمم المكان وكان ينظر لي بعيون رمادية حمراء لكنه  
أعنى يقابل ريحانة ويتأملها مثلي ولسانه يتحرك خارج بوزه الطويل كما  
لو يريد أن يتحدث معها لكنه لم يستطع.

حاولت أن أقول لها شيئاً غير إنني فضّلت الصمت في الوقت الذي  
استدارت فيه الى المرأة وأعطتني ظهرها فانعكس وجهها الطفولي  
محتقناً وهي تضع الناي الأبيض ذي الثقوب غير المتساوية كما لو تريد  
أن تعزف لنفسها؛ ورأيت شفيتها تختفيان في مبسم الناي كإنه طالع من  
هناك كزائدة طويلة بيضاء لا تقوى على إخراجها من فمها.

انطلق صفيراً أول قصير وأعقبه صفير آخر وتنفست أكثر من صفير  
على التوالي حتى استرسلت الأنغام بشجن أسر أجبرتني على الإذعان،  
فأغمضت عيني متأملاً هذا التدفق الذي خرج من فمها وروحها بطريقة

سريعة حتى تحول المكان الى صوت واحد يتموج بيننا، بينما تصاعد الشجن الأسر وتضاعفت كمية الحزن الذي تبثه الثقوب غير المتساوية تصادمت الأصوات والزفير الذي يحترق بيننا.

كانت دموعها تتقاطر وتجري بخطين غير متوازيين على خديها كأنهما خرّجا من الثقوب غير المتساوية وبدا كما لو إن الدموع هي التي تصفر والنأي يتلوى بين شفيتها المطموستين حتى يتحول الى موجة حمراء ظلت تطوف في الفضاء المغلق البارد، فيما كانت الأنغام بشجنها المخيف تبكي ويبكي معها روني الذي برك على قوائمه مستسلماً للعزف المتهادي وهو يستقطر كل شيء حزين.

كان وقتاً حرجاً لي وأنا استمع لكل هذا العذاب المتجسد في وجه ريحانة ولم أستطع حبس دموعي أمام هذه القدرة الصوتية العجيبة التي حفرت في روحي وأعدت لي صوت القرية بطريقة ما، فالنأي الذي يشدني اليه الآن يُريني وجه القرية البعيدة لسبب لا أعرفه ولا أدركه في هذا الوقت، كما لو إنه لا يرتبط بالمدينة قدر ارتباطه بالقرية وطقوسها وجمالها الذي انسحبت منه منذ ثلاثين سنة، فيحلّق بي في أنغام بدأت أشم فيها ماضياً بعيداً مكتظاً بالنخل والبلابل والأعشاش وحوريات الشط والحقول والسواقي والقناطر.

تصاعد النغم كثيراً كصراخ نهر وحيد وريحانة تتموج أمام المرأة والنأي الأبيض الطويل يتلاشى في فمها وهي تتلاشى وروني يبكي وأنا أبكي معه والمرأة يغمرها الضباب، وبيننا تنتشر رائحة جارحة ومجروحة ملأت البيت.

ريحانة.. يا عاري الكبير.

## الحريق

لم أحفل بعدد من الاتصالات والرسائل التي وردتني هذا المساء سوى رسالة مستر Jeem المشفرة التي فهمتُ مضمونها، لكن روحي مشتتة ولم تهدي كثيراً فما يزال ناي ريحانة يحفر في رأسي صدىً بعيداً ودموعها تجرح بي الرجل الماشي الى ستين العمر الكثيب.

كان الليل أقل برداً وبديعة تعرض أمامي صحنين من التمر والراشي والدبس الخاثر.

كنت أنظر الى عينيها فأرى بهما جمالاً قديماً وطفولة بعيدة جداً، وكانت مهياة أن تحكي لي من جديد مصرّة على تذكيري بتلك الطفولة الريفية الجميلة:

- هل تتذكر يوم احترقت صريفة العم أبو ماجد...؟

- قلبي كل شيء.. لا أتذكر أي شيء.

كانت تتوقع مني أن أجيبها هكذا فاسترسلت:

- احترقت بسبب جاموسة داست على لاله موضوعة الى جانب

الحب فأخذت النار في القش والقصب في ليلة باردة.

شبت يدي على صدري وأخذت أنصت:

- هرعنا على أصوات الإستغاثات التي أطلقتها أم ماجد وبناتها وكان  
منظر النار مخيفاً وهي تأكل واجهة الصريفة..

فتحتُ رأسي الى تلك الحادثة المنسية بينما بديعة تواصل:

- كنتَ أنت وبعض الشباب أطفأتم النار قبل أن تحرق كل شيء  
وأنقذتم البنات كلهنّ.. هل تتذكر كيف؟

- لا

- كنتَ شاطراً وذكياً.. أخذتَ جماعتك الى خلف الصريفة وقمتم  
بانتراع شباب القصب وطرح أكثر من نصف الصريفة في النهر فخلصتم  
البنات من الموت حينما أخرجتموهنّ من ذلك المكان.. ولم تحترق من  
الصريفة الا واجهتها..

ثم عادت تعاتبني:

- كيف تنسى هذا يا أخي..؟

قلت من باب المجاملة:

- أذكر شيئاً من هذا.. حريق.. نعم.. لكنني لا أتذكر اني بطل هذه

الواقعة.. ههههه

كما لو تقول حكمة:

- الأبطال عندما يقومون بأفعال خارقة لا يفكرون انهم أبطال.

- عموماً تذكرت شيئاً من هذا.. النار تعيد الذاكرة الى حد ما.

طلبثُ من ريحانة التي كانت صامته تنصت الى واقعة الحريق أن تعدّ

لنا شاياً مهياً.



اتصل البرلماني ابو صابرين في وقت غير مناسب ولم أرد عليه فعاود الاتصال بعد دقائق فأهملته.

انطفأت الكهرباء كالعادة فنهضت على ضوء مصباح يتبعني روني الى الحديقة الأمامية لتشغيل المولدة الصغيرة، وحينما عادت الأضواء للبيت حرصت بديعة على أن تواصل ليلها بطريقتها التي صارت محببة لي:

- أتريد شيئاً آخر؟

- كنا نحن البنات تطاردنا الكلاب الغريبة التي تمر بالقرية وكنا نستنجد بك أنت من دون الأولاد وتعلق بأذيالك.

- ههههه

- سأذكرك بشيء آخر.

نظرت الى عينيها:

- كانت سليمة.. أتذكر سليمة ابنة جارنا العم خيَّون؟

- لا..

- كانت سليمة تتبعك أينما تروح.

تساءلتُ باستغراب:

- تتبعني وين..؟

تضحك بديعة بطريقة متواصلة جعلتني أضحك معها:

- في النهر والسوق والبساتين...

- لا أتذكر شيئاً من سليمة ولا النهر ولا البساتين..

كفّت عن الضحك والتفتت الى المطبخ بانتظار ريحانة التي ستجلب  
الشاي المهيل فتساءلتُ بفضول:

- ما بها؟

- الآن هي أم لسبعة أولاد أصغرهم ضابط.

- ما بها؟

- كانت تودك كثيراً.. كانت تسبح قريبة من أي مكان تكون أنت فيه..  
ودائماً تفتعل انها تغرق فتستنجد بك لتنقذها..

أيضاً بقيت أتساءل بالحاح:

- لماذا أنا..؟

- هههههههه كانت تحبك.. كانت ترتاح حينما ترفعها من النهر بين  
يديك.

استمرت بديعة تضحك وأسعدني إنها تضحك بهذه الطريقة  
المرتاحة:

- اووووه كيف لي أن أتذكر كل هذه التفاصيل القديمة..؟

نظرت لي بعينين صافيتين وجميلتين:

- هذه التفاصيل هي الحياة الجميلة التي كانت يا أخي.. بريئة وحلوة  
وصادقة.

## السر

أنستني بديعة في ليايها الطويلة الجميلة بالرغم من قلقي الذي يتفاهم كل يوم.

كانت ذاكرة قروية لا تنسى الشاردة والواردة من طفولتنا المشتركة ولها حافظة قوية لكل الأسماء التي ربما لم أسمع بها أو أتذكرها، مع إنها أعادتني كثيراً الى تلك الأجواء الحميمة وذكرتني بالكثير منها، لكنّ ضباباً كثيفاً لا لون له يحجز الكثير أيضاً مما يجب أن أتذكره في هذه الليالي التي أجبرتني أكثر من مرة أن أبقى في البيت واسهر معها، ومضطراً أن أغلق هاتفني النقال لأتفادى أبو الحارث والسيد الأربعيني وزهور والنائب أبو صابرين وآخرين تربطهم معي مصالح السفارة ومصالحهم الشخصية في مشاريع كثيرة أظن أنّ كثيراً منها وهمي وشبهي، وأنا في ساعة متأخرة من الليل محتشداً بصور القرية وأهلي وعشيرتي وأقاربي الذين بدأ بعضهم يتسلل الى ذاكرتي عنوة.

حكّاءة ظريفة بالرغم من حزنها الذي يجعل روحها وشكلها حتى لتبدو كدجاجة مريضة بالكاد تلتقط الطعام، لكنني أرى في عينيها الكثير من الجمال الذي أعرفه وأتذكره وأستعيده كل ليلة يوم كانت صبيّة لافته بين الصبيّات بقامتها وعينيها وروحها الخفيفة التي لا تثقل على أحد.

لا تمل من الحديث عن القرية لكنها تتحاشى ذكر زوجها المخطوف أو علاقتها أو زواجها به. خط أحمر تعبره بسرعة وعيناها تدمعان فتلوذ بالماضي ما قبل زوجها فتعيد الكثير من صبياناتنا وطفولاتنا المشتركة الأليفة كما لو تعبى بي ذكرياتنا بالقسر والقوة؛ لكنها بشطارة أخذت تفتح ممرات آمنة لتلك السنوات التي كنت فيها قبل أن أهرب من الحرب والخدمة العسكرية وضغط الرفاق الذي قتل الكثيرين منا.

لا تمكث ريحانة غير وقت قصير تعدّ الشاي فيه أو القهوة وأحياناً الدارسين ثم تلوذ بغرفتها ساعة أو أكثر بعدها تعود ملفوفة بعباءة وتبرك الى جانب بديعة تسمع الشيء القليل من ذكريات القرية وما تلبث أن تغادر مع يقيني انها تود أن تسمع كل شيء لكن عينيها الواسعتين لا تستطيعان احتواء وجودي في مثل هذا الليل البارد.

تقول بديعة وعلى وجهها ابتسامة أراها بصعوبة:

- هل تذكر غالية..؟

تمليت وجهها بشكل مباشر وتمكنت من اصطياذ ابتسامة مخفية بدأت تتضح لي كلما أطلت السكوت هارشاً رأساً في محاولة لأن أتذكر هذا الاسم. لكنني قلت:

- لا

توسعت الابتسامة على وجهها:

- مثلك لا ينسى غالية صبية القرية الحلوة.

- لا أتذكر.

- ألا تذكر النهر..؟

كانت عيناها صافيتين مثل صفاء ماء النهر الذي يجري في مخيلتي الآن.

- أتذكره الى حد ما.

- ويوم ارتفع المدّ على غير العادة؟

- تقريباً.

أكملت بديعة ابتسامتها بشكل واضح وقالت:

- منذ صغرك وأنت تحب الصبايا هههههه

ضحكتُ وارتبكتُ.

لم أتوقع هذا فسارعت لأن أعيد أي شكل لأية صبية في قريتنا لكنني فشلت:

- ماذا يعني المد..؟

- كان بداية الفيضان ونحن نسبح في النهر.

- شيء قديم لا أتذكره.

قالت بحيادية وقد اختفت الابتسامة من وجهها:

- نعم. شيء قديم.. لتتركه.

صمتت وحامٍ بيننا سكوت أظنه كان ملتبساً عندي في الأقل.. فعدت

اسأل:

- لم تقولي مَنْ هي غالية؟

نادت على ريحانة وطلبت منها غلق نافذة المطبخ:

- صبية حلوة كنت تطاردها في النهر.

- هههههه

- لكنك حاولت أن....ههههه... لولا حميد الذي تدارك القصة في

اللحظة المناسبة.

لم أشعر بالخجل لكنني أحسد بديعة على هذه الذاكرة الميته بداخلي:

- حميد كان أصغر منك لكنه نشمي وشاطر.

بديعة رائعة في إشعال الفضول بداخلي:

- ماذا حصل في النهر..؟

تعيد ضحكاتها المفقودة بطريقة حميمة:

- ههههههه كانت البنت عارية حينما أخرجها حميد من النهر وبالكاد

لقتها بدشداشة أحد الصبيان.. صبية صغيرة وحلوة ويبدو إنك....

كنت أنظر لعينها الماكرتين:

- أووووف سالفة قديمة يا أخي.

- لا تترددي من استذكار كل شيء بديعة.. بدأت أحب ذلك الماضي

البعيد وإن لا أتذكر الا القليل منه.

بمكر تسألني وتضحك:

- حتى سواف البنات ههههه؟

## الراعية

جلست ريحانة وتكومت قريبة من حوضن بديعة:

- هل تذكر الراعي سبهان..؟

- لا

- كان يودك كثيراً وكنت تقطع المراعي معه في أغلب الأوقات  
تصطاد البلابل وتجلبها مع اعشاشها.

- لا.. ربما أتذكر.. يمكن..

- نشط ذاكرتك.

على نحو ما تأتيني صور القرية. المراعي والبساتين المفتوحة على  
مد البصر. النخل والسواقي والأشجار والأغنام والكلاب والأبقار  
والجواميس.

قبل الحرب عرضت إحدى القنوات الأميركية فيلماً تسجيلياً عن  
قيام صدام حسين بتجفيف الأهوار وربما أعاد لي ذلك الفيلم شيئاً من  
الماضي وقتها لكنني أتذكره بلا شك.. هل كان الفيلم عن قرينتنا البعيدة؟  
لا أدري.. لكنني أتذكره الآن بقوة وأتذكر قرينتنا القريبة من رائحة الماء  
والقصب كأنها الرائحة الملتصقة بريحانة.

- سبهان.. لا أتذكره.. لكنني أتذكر أغنامه..!

- وهل خطرت على بالك أعشاش البلابل التي تجلبها من البساتين؟

- ربما.. البستان كله بلابل وطيور وبحيرات وجرانيق.

- هل تتذكر يوماً كان فيه سبهان مريضاً ومتعباً وكلفك بمرافقة ابنته

الصبيّة نعيمة لرعي الأغنام..؟

تورد وجهها من جديد ولمحت ابتسامة شيطانية على وجهها:

- ألم أقل إنك مولع بالصبايا منذ طفولتك ههههههه!

ضحكت من قلبي لكنني وددت أن أعرف ماذا حصل.

- هذه ألغاز يا بديعة ههههه ماذا حصل مع الراعية؟

- ههههه حصل الذي حصل..!

تأخرنا في الحديث طويلاً مع صبايا القرية ونباح الكلاب وخرير

النهر وصبايا القرية في ذاكرة بديعة المتوهجة.

وقبل أن تنام ريحانة ذكرتها بضرورة أن تتهيأ للسفر الى إسطنبول

وتوضّب حقيبتها.

كان وجهها حزيناً وكانت قلقة كما رأيت.

تأخر الوقت فشعرت بالإجهد ونمت في مكاني لكنني كنت أسمع

طول الليل حوافر الكلب تدور في كل مكان حولي.



## إسطنبول

أنا كتلة هائلة من الشظايا

ثم تأتي الرياح فتجمعني

بيكاسو



## السميرنوف



(1)

في الرحلة المرقمة 130 على البوينغ 744 المغادرة الى إسطنبول في الساعة 10:00 صباحاً بدت بحجابها كأنها تشبه وردة ملفوفة بقماشة بُنِّيَّة في قاعة الانتظار الأخير والى جانبها بدا الخال غير مرتاح وعيناه تتخاطفان في المكان ومكالماته لا تنتهي، متوتراً، منزعجاً، لا يهدأ كثيراً. في المقصورة - درجة أولى لم يقل شيئاً سوى بعض التلميحات

التي أوحث لها بأن كل شيء سيكون على ما يرام وإنه بالمال التركي سيعيد إليها زهرتها التي سرقها في ليلة جونية خطأ أو سكرأ وإنه سيرك الخمرة وربما يهاجر وإنه مريض بمرض لا يعرفه.. المال الكثير يجعلنا لا نتوازن، أنا اختنق بالمال والهواء أيضاً وان إسطنبول يا قوتة جميلة سترتاح في أجوائها الساحرة لاسيما مضيق البسفور الرائع المكتظ بالسياح والصيادين والمراكب ومن حوله الآثار العثمانية الإسلامية والمسيحية.

بشكل غير مألوف يسألها عن سبب تقيؤها المتكرر لكنها تبقى صامته مجللة بالحزن والغموض، مسلوبة الإرادة. ضائعة في سماء عالية لا تنتهي وفي رأسها صخب كبير وكأنها مع غريب يلهث الى جانبها.

قال إنه نبضه مضطرب ووضعه في خطر لأنه يتعامل مع هلافت السلطة من نواب ووزراء وشخصيات معروفة وغير معروفة من إسلاميين وأشباه إسلاميين ممن ركبوا موجة البلاد وقال إنه غير سعيد شاعراً بالإحباط والخوف. وربما سيعود الى أميركا مهما كانت وساختها لكنها أنظف من بغداد المتحولة بهذه الشخصيات المرية.

إشارات خاطفة متقطعة في سماء عالية عبرت الغيوم وهي صامته تتحسس أطيافاً متعددة تضعها في محنة كبيرة، والخال يغفو مدمماً كأنه يخاطب أحداً وربما أكثر كأنه يهرب من آخرين في ذاكرته.

تخلع حجابها وتطويه في حقيبتها الصغيرة فيتقاطر شعرها الطويل بالتدرج وراء ظهرها وتسدل رائحة فواحة تداهم الخال الذي يجلس الى جانبها لكنه يتعد عنها بصمت.

تستدير الى السماء عبر النافذة في إغفاءة تداهمها منسابة مع خليط من الصور المتراكمة التي تثقل عليها غفوة المجهول في سفر غامض هو أيضاً.. النزوة لبنانية والمال تركي.. يعني بالليرة قسمي الى نصفين وبالليرة سيعيد النصفين الى بعضهما.

- 1- في ليلة جونية كانت بيروت صاحبة كما هي في كل ليلة.. لم تنسها.
- 2- بيروت صبية جميلة.
- 3- البحر مفتوح مثل السماء أزرق وناصع ورقيق.
- 4- يضمها تحت ذراعه.. تعالي.
- 5- البرد لاذع وجسمك نحيف.
- 6- تدس نفسها تحت ذراعه ومعطفه وهي تتأمل الحياة الجميلة التي تجري على الكورنيش الطويل،
- 8 - وتتلقى بين لحظة وأخرى رشقات رذاذ يبعثها الموج المرتطم بالصخور فتتشي روحها الصغيرة،
- 9- وتندس أكثر تحت معطف الخال الذي يلصقها بجسده كثيراً بمبالغة لم تعد تهمها بقدر ما تريد الاستمتاع بالبحر وأجوائه الباهرة التي وجدت إنها غارقة فيها حد الذوبان.

### نايات الجسد . الناي الرابع عشر

1- سنكون كل يوم هنا.

2- أنا سعيدة.

3- سترتاحين كثيراً.

4- وماذا بعد البحر.

5- جونية.

6- شنو جونية؟

7 - مكان ملون.. موسيقى وشباب وصبايا. dance and love وخمرة لذيذة.

8 - سأحولك الى عاشقة صغيرة في جونية. أنت أنثى صغيرة وجسمك بالغ.. تمام؟

9- ممممم

يهبط الغروب فيتلون البحر بألوان كثيرة تخطف عينيها، لكن العتمة تأتي فيغرق البحر البعيد في ظلام ويبقى الموج يصطدم بالصخور ويتناثر على الكورنيش الغارق بالرذاذ والماء وألوان الأضوية الباردة.

ضغط بجسده على صدرها اكثر فشعرت بهذه الملامسة المباشرة، لكنه البرد كما يقول الخال وهو يضمها تحت معطفه.. نذهب الى جونية.. الليل هناك أجمل وأكثر رشاقة.. ليل جونية ممتع وطويل.

(2)

يشخر شخيراً خفيفاً ثم يفز بغتة كأنه خرج من كابوس ويتطلع حوله فيجدها غارقة بغفوة غير مريحة لا يستقر رأسها على زجاج النافذة المدورة كمن هي في دوامة حلمية متوترة.

ينظر اليها بإمعان ويتحاشى عطر شعرها المنسدل بعدما نزعت الحجاب في أول الرحلة فيجدها أكثر طفولة وبراعة مما كان يظن.. طفلة غافية على فضيحة سرية ارتكبتها في نزوة جونية.

ربما يلمح الآن دمعة تسقط على خدها تتبعها دمعة أخرى.

تسيل بطيئة ثم تنحدر.

لا عناوين للأنوثة..

يبتكر التبرير بلباقة وهو يحيي ليلة جونية بطريقته الخمرية الصاعدة الى أقصى الانفلات ويصنع منها لذة عظيمة مخترقاً الليل والجسد والروح بشهوة كافيار ثور مكبوت لم ير من قبل أنثى بحجم وردة ولها عطر غابة.

نايات الجسد . الناي الخامس عشر

10 - رائحة شعرك تثيرني.. فيك عطر غريب.

11 - إنه عطري الوحيد.

12 - اشربي سميرنوف فهو للصبايا. مشروب سحري يجعلك تطيرين.

13 - أخاف أطير ههههه

14 - سأطير معك.

15 - وين نروح؟

16 - للسماء السابعة.

17 - هههههههههه

تتحرك قليلاً وتسحب خدها من على سطح النافذة المدورة وتتكى على كفها وهي تهمهم بخفوت كما لو تحلم بشيء.

أتطلع اليها وهي غافية.

أشعر إنها ليست نائمة لكنّ كابوساً يضغط على روحها كما لو أراه الآن وهو يستشري فيها ويقلل من حيويتها.

(3)

أجدها ناعمة وصغيرة وبريئة.

طفلة بهيأة ريحانة الحلوة التي قبلتني خالاً لها وابتعدت مفزوعة عني حينما رأيت بي كائناً آخر ليست له مواصفات الخال الذي في بالها، وربما الخال الذي رسمته بديعة التي فقدتها ثلاثين سنة وهي في أول شبابها ولكنني عدت إليها أخاً أميركياً ومسيحياً جديداً تأمرك وتطبع على حياة اللهو والفلتان والضياح والجنس والخيانات.

يوم رأيت ريحانة وأنا أبحث عن دار بديعة بخريطة فضائية زودني بها الجنرال آلن وبعنوان طلبته من القرية عبر وسطاء بين بغداد والقرية؛ وجدتها أيقونة مزهرة بهيأة أنثى صغيرة، ويوم احتضنتها احتضنت قارورة عطر لا مثيل له ويوم طبعت اول قبلة على خدها شممت كل عطور النساء فيها ويوم رأيت فمها الصغير جداً أيقنتُ إن الجمال شفتان ناعمتان.

(4)

- 1 - تتقلب كوردة متململة.
- 2 - تحدّث نفسها بصوت لا أسمعه.
- 3 - تفتح عينيها وتغمضهما.
- 4 - تنظر لي ولا تنظر.
- 5 - غمرني احساس بالعطف.
- 6 - انا لست أباً ولم أتزوج لكنني خلّفتُ أطفالاً لم أرهم من نساء كثيرات.



- 7- ربحانة الآن تبدو مثل الابنة المفقودة مني.
- 8- ناعمة وصغيرة ورائعة بالرغم من حزنها وجرحها العميق.
- 9 - ابنة لطيفة يمكن أن ترافقني الى كل مكان وتملاً أيامي بالسعادة والجمال.
- 10 - اللعنة عليك يا مارك.
- 11 - روحك سوداء.
- 12 - أمريكا قاسية ومتوحشة.
- 13 - خانتك كاثرين فحنت نفسك.
- 14 - أفنعتك بكذبة النسب فصدقتها.

لم أتذكر قريتي الا ما ندر. ثلاثون سنة تكفي للمحو. لكن شذرات قديمة تأتيني أحياناً تكاد تستفزني لكني أجدها عقيمة وباهتة ولا معنى لها. لا أتذكر القرية على نحو واضح كما لو هناك ضباب يحجبها عني بعد هذه الغيبة القسرية الطويلة. لا أتذكر امرأة واحدة منها حتى بديعة بالكاد تذكرتها ولولا ربحانة ورائحتها لما مكثت كل هذه الفترة في بغداد.

بديعة أعادتني الى القرية بشكل من الأشكال كأنها شهرزاد المحاصرة بالليل والحكايات المتداخلة. أهلتني بالتدرج لاستعيد ذاكرتي المغلقة. حكاياتها مثيرة وجميلة أشعرني بأن الحياة البسيطة هي الحياة العظيمة، وليس المال هو من يملأ العقل إنما الحب وصلة الرحم.. حكاية ماهرة أختي بديعة.. اشتقت للقرية فعلاً. الى كل ذكرى فيها.

ربحانة الطفلة التي كبرت فجأة بين أصابعي وعلى صدري صارت

لعنتي وقساوتي وانتقامي من روحي المخزّبة. كانت تشهق معي وتنظر لي بعينين غريبتين فترى بي ما لا أراه لكنها كالمخدرة السعيدة في ليلة جونية الحمراء. طفلة تتقافز هنا وهناك بين ذراعيّ وعلى صدري فتنشر لذّة عجيبة في جسدي.

### نابات الجسد . الناي السادس عشر

- 25- الأنتى هي الأنتى ولا عناوين لها.
- 26- لكنكّ خالي.
- 27- هذا اختراع قديم انسيه يا صغيرتي.
- 28- أمي كانت تتحدث عنكّ كثيراً.
- 29- أمكّ أنجبت أنتى تشبهها.
- 30- خالي أنتّ.
- 31- تعالي يا طفلتي وارقصي في حضني.
- 32- لكنكّ..
- 33- لا يهمّ أنا رجل في آخر الأمر وأنتِ أنثاي الصغيرة.
- 34- صدري يؤلمني.
- 35- إنه ينضج.
- 36- جسدي ينزّ عرقاً.
- 37- انه ينضج كالبرتقالة.
- 38- أفخاذي ترتجف.
- 39- انهما تنضجان كالبطيخة.
- 40- لا تلمسني أنا أرتجف منكّ.

- 41- أَرْضِعِ حَلْمَتَكَ الصَّغِيرَةَ.
- 42- تَوْذِينِي كَثِيرًا.
- 43- أَشْمَكُ مِنْ أَسْفَلِ.
- 44- وَآوِ.. أَسْتَحِي.
- 45- إِنَّهُ جَمَالُكَ وَسِرْكُ.
- 46- أَخْفِيْتَهُ بَعِيدًا عَنْكَ.
- 47- أَنَهُ نَاضِجٌ كَالْمَشْمُشَةِ.
- 48- آه
- 49- أَنَا مَارِكُ الْأَمْرِيكِيِّ.
- 50- آه
- 51- أَنَهُ صَغِيرٌ وَرَائِعٌ وَمَغْرِبٌ.
- 52- آه
- 53- سَأَحْمَلُكَ إِلَى فَرَاشِي.
- 54- دَخْتُ يَا مَارِكُ الْأَمْرِيكِيِّ.
- 55- وَأَنَا دَخْتُ يَا رِيحَانَتِي الْعِرَاقِيَّةَ.
- 56- مَاذَا سَتَفْعَلُ بِهِ.
- 57- سَأَسْرِقُهُ مِنْكَ.
- 58- وَتَتْرَكْنِي بِلَا هُو؟
- 59- سَيَبْقَى مَعَكَ أَنَهُ سِحْرُكَ الْعَظِيمِ.
- 60- أَنْتَ تَشْمُهُ كَثِيرًا.
- 61- بِهِ رَائِحَتِكَ.
- 62- وَتَرْضَعُهُ كَثِيرًا.

- 63- أفقد لذة قديمة تشبه رائحة أفتقدها.
- 64- أنا خائفة.
- 65- اخلعي عنك كل شيء.
- 66- السميرنوف دوّخني يا مارك.
- 67- ليجعلك أنثى.
- 68- لكنني صغيرة يا مارك وأنت كبير.
- 69- لا عناوين للأنوثة أنت كبيرة تحتي.
- 70- ألسّت الخال طارق؟
- 71- لا أنا مارك الأمريكي المسيحي.
- 72- لا توجعني يا مارك فأنا لا أعرف هذا.. وأمي لا تقبل.
- 73- انسي أمك.
- 74- وماذا أنسى بعد؟
- 75- كل شيء يا حلوة وعيشي لحظتك الجميلة.
- 76- انت تؤلمني عندما ترضعني يا مارك.
- 77- حلمتك ناعمة كحبة الرمان.
- 78- أضعها على مهلك فإنها تكاد تنخلع.
- 79- ستكبر بين شفتي وتصبح مثل التينة.
- 80- آه آه.. لسانك ساخن يا مارك الأمريكي انزل برفق فقد تبللت وردتي الوحيدة.
- 81- لساني أولاً يا حلوة.
- 82- آه آه
- 83- طعمك لا طعم له إنه عطر لم أذقه من قبل.

- 84 - انه طعمي .  
 85 - ورائحته غريبة ومثيرة .  
 86 - انه أنا .. انه مشطي الأبيض .  
 87 - عطر السماء .  
 88 - ترفق به .. سأغمض عيني  
 89 - دختُ .. والسرير يدور بي .  
 90 - آه آه آه ما أجملك يا مارك .  
 91 - ادخل في روحي أكثر  
 92 - ما أعذبه .  
 93 - آه آه آه  
 94 - اني أطيير يا مارك الأمريكي واذوب وأتلاشى .  
 95 - أسكب فيكِ خمرتي .  
 96 - إني أغرق .. أختنق .. آه آه يا مارك العجيب .

(5)

تتحرك ويصدر منها صوت كالصرخة المكبوتة فينقبض قلبي .  
 تميل بجسدها وتطلق حسرة نائمة تنفذ في قلبي .. سأعالجك من هذا  
 المرض العظيم ولو كلفني مالي وحياتي . وصلت الى النهاية يا صغيرتي .  
 يستيقظ بي الخال طارق ابن القرية وإن بعد فوات الأوان .  
 السيد يطاردني من أجل حلمة زهور وريحانة لا أب لها يطارد  
 مغتصبها .. هذا هو الضعف البشري الموجه والى آخر درجات الوجد .

بديعة بارعة في استدراجي الى أجواء الذكريات والقرية وأهلي.  
حكاياتها عجيبة وجميلة أعادتني الى طفولتي وصبائي وجمال تلك  
السنوات التي انطوت ولن تعود.

تقول: ما تزال القرية بخير وأهلها كرام ونساؤها جميلات وعفيفات.  
تقول: النهر باقٍ كما هو والشجر والمطر والبط والزرع والبستان  
والطير والبلابل.

تنغمر عيناه بغلالة دموع تقاطرت بطيئة ثم تسارعت وملاّت قلبه.

ينظر اليها وهي متكورة كما لو تحمي نفسها من خطر آخر فيجدها  
طفلة حزينة ذاهبة معه الى شراء غشاء فقدته في جونية ذات ليلة باردة  
عاصفة بالرياح والمطر والموسيقى والرقص والسميرنوف اللذيذ الذي  
حوّلها الى عصفورة ناعمة لم تفارق صدره ولا ذراعيه، عارية مثل دمية  
حرث فيها الى الصباح بلذة متدفقة أشعلها شبقٌ قديم جعل منه فحلاً  
عملاقاً لا يهدأ وهو يهمس في شعرها ذي الرائحة الطيبة المثيرة وحلمتها  
اللينة ونهدها المدور الصغير وسرّتها التي تنفث حليماً وما بين فخذيهما  
الذي صعقه لصغره وضيقة ورائحته الفذة العميقة.

1 - لا عناوين للأثوثة.

2- الأنساب كذبة الشرع والقوانين.

3- انت حبيبي الصغيرة.

4- لستُ خالك.

5- أنا طارقك العاشق الكبير.

6- في أميركا تجاوزوا هذه العناوين.

7- كاترين علمتني هذا واتخذت صديقي جورج عشيقاً وزوجاً غيري.

8- الأنثى هي الأنثى يا ربحانة.

(6)

يتماسك وهو يديم النظر اليها ويرى أكثر من دمة تتساقط من عينيها، فيتأكد انها طفلة حقيقية تبحث عن ملاذ آمن وقد تشعر الآن بشيء مروع في داخلها مستسلمة له لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من طفولة مسحوقة داس عليها ذات ليلة مبتكراً لغة لا تفهمها في جسد يريد أن ينضج وما يزال يتشكل طعمه ولذته على مهل.

تغير من حركتها وتدير ظهرها ليتراجع شعرها الى الوراء فتداهمه الرائحة الغريبة التي فتكت به ذات ليلة راقصة مستعرة بالجمال والصحب ومفعول الفحولة ومنشطاتها الكافيارية الملهمة التي لا تعرفها، تلك التي مسحت قصة الأنساب وعناوين العشيرة وبخترتها في رأسه بطريقة مجنونة صدقها زمناً طويلاً حتى نبهه القيء ذات يوم قريب.

- شنو السميرنوف؟

- شراب الأميرات.

- يعني اذا اشربه أصير أميرة ههههه؟

تشعر به شراباً خفيفاً لا يشبه الصودا كثيرا لكنّ به طعماً حلواً.

1- تعالي نرقص.

2- أستحي.

3- أكملني شرابك وتعالي.

تنظر الى القنينة بسدادتها الحمراء وتعبّ منها رشقات أطول حتى تنتهي فيأتي النادل ويعبّ لها كأساً صغيراً لم تر مثله من قبل ويتحول الخال الى غراب طائر في المرقص ببدلته السوداء مبتسماً وضاحكاً. مالئا الصالة صخباً بين الصبايا اللواتي يدُرْنَ حوله وبين الأضواء المتعبة المتراقصة التي تغطي الصالة وتغير من شكلها كل لحظة.

تعالِي.

يناديها وابتسامة ملء وجهه تشجعها. لكنها تشير بيدها الى ضرورة إنهاء كأسها الصغيرة الجديد وهي تشعر إنها تتحرر من أشياء كثيرة في ليلة جونية العذبة.

تشير اليه من بين حشود الأضواء والصبايا شبه العاريات.. تعال.. يأتي اليها تحت ايقاع الرقصة التي أشعلت الصالة بالغناء والموسيقى. ينحني عليها فدمغه رائحة شعرها الغربية وتقول له:

- أستحي.. لا أعرف الرقص.

- لا عليكِ ستكونين في حضني.

تردد في النهوض من مكانها لكنه يرفعها كعصفورة فتجد نفسها في دائرته الصاخبة الملونة بين ذراعه وعطره الباريسي وجسده المربع وقامته التي تتحول الى فضاء راقص، ومعه تطير وتحط فلا تستطيع الإمساك بجسدها ولا حمالة صدرها ولا بنطالها اللاصق الذي أحسته يريد أن ينخلع من على جسدها، مثلما يريد أن ينخلع جسدها الصغير وهي تدور بين ذراعي الخال الذي دائما يوقف دوران نهديها الصغيرين



بقبضته القوية، فيبعث فيها نشوة سميرنوفية ولا يسمح لحمالة صدرها أن تنفلت سوى أزرار قميصها التي تقطع بعضها بالاهتزازات العنيفة والترنح الموسيقي العاصف الذي يعصف بها.

- تعبت.. لا أدري ماذا حصل.. ضاع جسمي هههه

يحملها من جديد الى مائتها بعد إن إمتص شفيتها وترك فيهما لذعة قوية وهي تعود الى شرابها برشفة سريعة لاذعة ومُرّة، متأملة الخال الذي لا يتعب والراقصات الصغيرات اللواتي يُجدن الرقص العنيف والسريع، متناسية أزرارها المقطوعة التي تكشف عن صدر صغير بض في ليلة وجدتها ساحرة وهي تعب من السميرنوف عدداً من الكؤوس الصغيرة.

دعاها ثانية فغمرها إحساس إنها فراشة او وردة أو عصفورة يمكن أن تتعلق بصدر الخال الذي لم يخلع بدلة الغراب من على جسده، وأنسها ان تكون هنا كفتاة تمارس ليلها بحرية مفتوحة، فتشجعت ونهضت راكضة اليه وضمها ورفعها الى مستوى وجهه وأطبق على فمها بشفتيه تحت الأضوية الحمراء المتحركة والراقصة.

تشبثت برقبته وهي تستسلم لهذا السحر الغريب الذي ملأ جسدها برعشة أولى، ثم رفعت ساقها بطريقة المقص كي تزيد من تشبثها بالخال الراقص الذي لم يترك شفيتها، بل مدّ لسانه بينهما فتذوقت رحيقا جديدا، مغمضة العينين؛ هو مزيج من الذكورة والويسكي والسميرنوف وأشياء أخرى لا تفهمها، فيما كان وسطها المعلق بوسطه يزداد التصاقاً وتتحرك أعضاء جسدها تبعاً لحركته الراقصة فيغمرها شعور ما وهي تحس بأصابعه تمسك مؤخرتها الممتلئة كي تبقى بهذا

الوضع في صخب المكان ويزيد وسطها التحاماً بوسطه كأنها محلقة فعلاً كعصفورة في جسد شجرة عالية.

فكّت شفيتها عن شفيتها فتقطّر منهما سائل لا تعرفه، وفتحت مقص ساقيها عن وسطه القوي، فحطت على الأرض كما لو نزلت من السماء. ثم دار ممسكاً بذراعها دورة او دورتين وهي تشعر بدوار شفاف يجتاح جسدها الصغير وشفيتها وبقيت على حرارة جسده أو حرارة جسدها وقتا طال كثيراً في الصخب واللغط ورائحة الأجساد المتعرقه مثل رائحة جسدها الذي أخذ يتعرق، لاسيما بين فخذيهما اللذين أصبحا مبللتين فخافت أن يراها الآخرون، فهرعت الى طاولتها يعترها شعور ارتبكت من تفسيره لحظتها.

في المرة الثالثة وبعد كأس سميرنوفي صغير طافت في مكانها حينما رأت الصالة حمراء بكاملها وتحول الراقصون والراقصات الى أشباح حمراء، حتى بدلة خالها السوداء تحولت الى لون أحمر، ومن دون أن يستدعيها خطت اليه وسارعت من خطواتها بين الزحام.

وجدت ذراعيه مفتوحتين فتعلقت بهما ورفعها المقص الى أعلى لتحلّق من جديد في هذا الجو الأحمر الطاغي ووجدته يبحث عن لسانها الصغير فمدته اليه وانطبقت شفاتها على لسعة حارة لها مذاق آخر وتحول وسطها الى كتلة غارقة وأحست بأصابعه تنغرز في لحمها من الخلف لترفعها اكثر وتبقي على شفيتها بين شفيتها وهو يعضغها بلذّة تنتقل اليها بسرعة مخيفة، بينما ينضغط نهداها على صدره ليستشري السميرنوف فيهما فتشد من يديها خلف رقبتة وتزيدهما احتكاكاً مثلما

يفعل الخال القوي وهو يعصر جسدها لكنه لا يفارق لسانها ولا طعم  
السميرنوف ولا رائحة جسدها التي تطوقه من كل مكان.

يحرر لسانها ويهمس:

- نذهب الى غرفة الفندق.. هناك نكمل السهرة في الغرفة.

- خذني.. آه..

يحملها على صدره وينسحب خارجاً وهي متعلقة على شجرتها  
القوية كعصفورة مقرورة ولسانها يعيد سيرة اللدعة الحارقة الذي حوّلها  
الى دوار بطعم غريب لم تألفه، حتى الفندق القريب والغرفة التي وصلها  
الخال بسرعة خارقة وهي متعلقة على جذعها مزفوفة برغبة جامحة  
بللت فخذها وأحست برطوبتهما طالعة من نسغها السري المختفي  
هناك منقادة لسحر غريب يجتاحها ويضعفها في ليلة جونية الحمراء  
ويزيدها السмирنوف رغبة جامحة بأن تكون أنثى حقيقية بلا توصيفات  
ولا عناوين.

تسترخي على الفراش متعرقه مفتوحة القميص الذي تقطعت بعض  
أزراره في صالة الديسكو وهي مغمضة العينين لاهثة وما يزال صخب  
الرقص يرقص روحها، وما يزال عطر السмирنوف يكوي لسانها وشفيتها  
الرقيقتين.

ريحانة.

ها..

أحست وكأن ظلا سميكا استلقى عليها بنفس العطر المتكاثر فيها،

ومن ثم اجتاح لسانها وشفتيها فانقطعت عن التنفس لحظات مكهربة بلا جسد ذائبة النهدين في كفين غليظتين تعصرانها بقوة جبارة.

ريحانة.

ها

أصبح جسدها كالعجينة عاريا وما تزال سخونتها ترتفع مقطوعة التنفس بين شفتين تلتهمان لسانها وشفتيها وتهبطان الى حلمتيها برضاة حارقة، لكنها نشرت روحها في كل مكان ساخن ونزل البلل الى أسفلها، فلعهقه الخال وشفط المكان كقطة عطشانة بلسان مدرب، وفتح أزراره الصعبة حينما تعرى وانقذف فيه بليونته، لكن بقوة ثور هائج فتنهدت وتأوهت وهي ترفع ساقها بفطرة وتعمل مقصا على ظهر الخال الذي اعتلاها ودخلها بقوة الكافيار الذي لا تعرفه، غير إنها اختضت كثيراً وارتعشت ثم همدت تحته كما لو ماتت تحت لذتها الأولى.

(7)

قالت شيئاً في إغفاءتها لم يتبينه لكنها تململت من جديد وأعدت قامتها وهي تعدل من جلستها وحينما فتحت عينيها وجدت عينيه غارقتين بالدموع، فتصورت إنها غشاوة عينيها اللتين غرقتا بالنوم منذ ساعة، غير إنها اعتدلت أكثر وفتحت عينيها مستدركة الحالة التي كان فيها الخال مخذولا وضعيفاً كما بدا لها وهو يديم النظر بوجهها.

كأنها جفلت وهي ترى الوجه المفتوح على وجهها فتأكدت من بعض الدموع التي ما تزال عالقة في رموشه وعيناه ترسمان أمامها لونا

جديداً لم تألفه فيه سابقاً، ولم تقدر أن تعرف طبيعة هذا اللون لكنها لمحت من بين هذا الخليط ابتسامة قلقة تريد أن تخرج من تجاعيد وجهه غير إن شيئاً ما يمنعها.. أو هكذا خمنت.. لكن صوتاً داخل الطائرة قطع تفكيرها وهو يطلب من المسافرين ربط الأحزمة تهيؤاً للوصول الى مطار اسطنبول.

## البسفور

لم يكن خالي مارك كما ثبت اسمه في إدارة الفندق بجنسيته الأمريكية على ما يرام منذ لحظة مطار بغداد.

لا أعرف ماذا في داخله لكنني أراه ليس على وضعه الذي أعرفه وبقيت أنظر له بحيادية وفي داخلي شكوك كثيرة تتزاحم مع أملي المرتقب بأن أعود ريحانة الطفلة البريئة التي لا تفهم لغة الكبار.

في الأيام الأخيرة رابط في بيتنا وكان كثير النوم نهاراً، ويستمع الى حكايات أمي وسوالفها المشتركة بينهما في طفولة القرية السعيدة.

سمعت بعضاً منها بلسان أمي وخالي منسجم كما لو كان الأمس قد ذهب قبل قليل منه، فأكثر من مرة رأيت غارق العينين وهو ينصت لحكايات أمي وذكرياتها الحلوة عن صبايا ورجال وصور كثيرة ليست بعيدة عن ذاكرتي فما يزال طعم القرية على لساني.

قبلت بفكرة إسطنبول فهي آخر سلاح أقي نفسي به في محاولة للقبض على الأمل البعيد، فما عندي شيء أخسره بعد فوافقت على أمل مخجل أن أعود ريحانة السابقة كما كنت في السابق.

حزين وكثير قلق ويكثر من المهمة مع نفسه.

مريض كما يقول وكما أرى في تبدلات سحنته وجسده.

تبدلت روحه من الفرح والشقاوة الى الكآبة القاسية كما لو يعاني من الوحدة الفظيعة.

عرفتُ الطريق من فندق الهيلتون الى مطاعم البسفور من دون الحاجة لمرافقة الخال الذي دلّاني في أول الأيام على هذا المكان المكتظ بالمياه الزرقاء والصيادين والسياح ومطاعم السمك وبائعي الأصداف البحرية. كما عمل لي اشتراكاً مفتوحاً في شريحة تركية شاملة للمكالمات الخارجية والانترنت، ومن أول لحظة الوصول الى مطار اسطنبول اشترى لي معطفاً فرنسياً من السوق الحرة بـ 600 دولار

اختره بلون رصاصي لكنني طلبت اللون الأسود فامثل لطبي.. الجو في الخارج مثلج وجسمك نحيف.

كرر عليّ أكثر من مرة منذ لحظة اسطنبول التي كنا فيها: أنا خالك طارق.. ومارك اسم عابر في بغداد. حاولي نسيانه. لكنني أجد الجملة مرتبكة لا تخرج إلا بصعوبة منه وشعرت إنه يوصل لي رسالة أخرى غير رسالة جونية والسميرنوف والرقص والأحضان والعمود الباذخة، فوجدته منكسراً ليس كما توقعت بعد ترددي المستمر للسفر معه.

ليالي جونية ما تزال تحفر في روحي ألماً من الصعب أن أنساه أو أتلافاه، لكنني اقتنعت في النهاية لترميم تلك الثغرة الفظيعة التي ستقضي عليّ لو بقيت الحال مشروخة ومجروحة كما هي.

ترافقني دموع صغيرة في شارع عثمان بي وتختلط مع قطرات

المطر المنزلة على وجهي وأنا متدثرة بمعطف السوق الحرة الأسود  
المبطن بالفرو.

أرفع قبعتي الفرائية على رأسي متطلعة الى المحلات الكثيرة  
المتراصة ويشدني منظر المطر المتكاثر المندفع مع كتلة هواء بارد  
فيضرب الأرضفة وواجهات المحلات الزجاجية.

أهرع الى الجانب الآخر بروح لا يفارقها الحزن والخوف، فالخال  
الذي يتركني وحيدة ويدليني في هذه الرحلة ويملاً حقيتي الصغيرة  
بالمال التركي هو ليس خال جونية الراقص الأحمر السكير الشيطان  
الطائر بين الصبايا، إنه كتلة خمسينية جامدة الى حد كبير يشغله هم  
ومرض واختناق وحسابات شخصية لا أعرفها.

أتصور أحياناً انها صحوة واستيقاظ ضمير فأرى روحه السوداء  
طافحة على وجهه المغبر والملبد بكل شيء أعرفه ولا أعرفه.

يقودني الشارع ومنحدراته الى البسفور ناصع الزرقة فأقف على  
رصيف قوارب مع سياح كثيرين متأملة الماء والموج والنوارس  
الكثيرة، كما تلفتني سنارات الصيادين الطويلة التي تتدلى من أعلى  
جسر قريب فتبدو كأنها جدار من عصي متلاصقة تشكل ظللاً  
منسجمة ابتلعها الماء.

لقطقتُ كثيراً من الصور وأخذت اوضاعاً مختلفة بطريقة السيلفي  
لكنتني مرة واحدة طلبت من رجل يلف جسده بمعطف طويل أن  
يصورني وأنا أفتح ذراعتي الى المطر وأبتسم بوجهه.

في المطعم أخذت زاوية مباشرة تطل على المضيق الذي تملأه



زوارق الصيد والسياحة مختلفة الحجم وطلبت وجبة سمك صغير  
تذوقته في أول يوم هنا حينما أخرجني الخال من الفندق في أول جولة  
تعريفية للبسفور.

فتحت «بيانات الهاتف» فتدفقت أكثر من رسالة.. أولها من ضابط  
المكافحة عادل.

رفّ قلبي وأنا أقرأ كلماته. قرأتها أكثر من مرة وتخيلتني كنت معه.  
أودعه مع أم عادل.. أضمه قبل أن يذهب الى الجبهة.

تحولت الى رسالة من سراب أشاعت بي القلق: نقلوني من الدائرة أنا  
والمنقبة.. أحكيك بعدين.. المنقبة استثناها الحيوان الوزير.. إسلاميون  
قذرون لا يعرفون معنى الحياة.

فوجئت وخفق قلبي وتوقفت باهتمام أعيد قراءة الرسالة مرة ومرتين  
نابضة القلب وفي رأسي تحتمد اشتعالات وتأويلات وظنون وشكوك  
ومخاوف.

فتحت صفحة أم عادل الفيسبوكية ونقرت على صندوق الرسائل:  
صباح الخير خالة أم عادل.. ما اخبار الدائرة. مشتاقة. تحياتي للجميع

لم أستطع أن أكمل صحن الأسماك الصغيرة الذي وضعه النادل  
وظلت عيناى تنتقلان بين الصحن والهاتف المطروح أمامي مثل كف  
مقطوعة.

في البسفور مراكب كثيرة وأمواج ومطر ينزل وسياح سعيدون  
بمجموعات سياحية متضامنة.

## الرؤيا

1 - كانت رؤيا غامضة سبقت صلاة الفجر، غير إنها عادت لي بما يشبه رؤيا اليقظة مع تباشير البياض الأول. وقتها كان الهواء البارد يغمر غرفتي وروحي سابحة في التسبيح والذكر من دون أن أستطيع النوم ليلازمني أرق على غير العادة.

كان قلبي مشغولاً بـ عادل وأنا أتابع أخبار المعارك مع داعش.

2 - بريد المكتب والكتب الإدارية الكثيرة التي لا تحتاج مني الى تركيز كبير منصرفه لمعالجة بعض المشاكل اليومية التي تثيرها سراب والمنقبة وغيرهما ككل يوم والرؤيا تتكرر كل يوم.

أكثر من عقدة مستعصية في العمل وأكثر من وجع رأس في دائرة نساؤها أكثر من رجالها وبطالتها أكثر من أشغالها ومكرها أكثر من حميميتها.

لم يسمح لي المدير العام بإجازة شهر.

قال أنت موظفة قديمة لا نستغني عنك كل هذه الفترة لكن يمكن أن ترتاحي يومين من دون إجازة.

3 - حدث هذا بعد قرار نقل الست سراب والمنقبة بطريقة مفاجئة من قبل

المدير العام حين وصلته إشارات صريحة على اتهامات صارخة  
وتشهيرية بينهما وصلت الى حد كسر الرقبة.

4 - سراب موظفة قديمة لكنها غير منضبطة والمنقبة موظفة جديدة  
لكنها غامضة، وربما تخفي وراءها أسراراً لا أعرفها؛ فتوظيفها على  
الملاك الدائم أمر يثير السؤال في وضع وظيفي فضائي مترهل.  
المنقبة قالت للمدير العام بطريقة وقحة إن الست سراب امرأة  
مشبوهة. بعثة ومشمولة بالاجتثاث وغير عاقلة وتتحرش بالموظفات  
وهي تشرب الخمر وتدّعي دائماً إن لديها تسجيلات فيديو «غير  
طبيعية» عن بنات شريفات ومهذبات وبنات عشائر..!

سراب التي استشاطت لم تكن متزنة كالعادة فشتت المنقبة وقالت  
إن وراء نقاب هذه المرأة شبهات فساد إداري ومالي ولديها من الأدلة ما  
يكفي على انها لصة ومزورة لكن هناك من يحميها من تيارها الإسلامي  
في الوزارة وقالت إنها تشاهد أفلاماً خلّاعية في إثناء الدوام.

وقبل أن تتسلم كتاب نقلها قالت:

- الأيام طويلة يا أم عادل وستأتيك أخبار هذه العفريته المنقبة..

القحبة!

لم أرد عليها وتميّت لها الموفقية في دائرتها الجديدة، لكن المنقبة  
التي سبقتها باستلام كتاب نقلها قالت إن سراب شاذة وسحاقية ولديها  
وكر دعارة في العمارات السكنية وتقوم بتسجيل افلام للفتيات اللواتي  
تخدعن لتبتزهن جنسياً.. وستلقنها درساً لن تنساه وربما ستقضي عليها.

5 - سراب تشغل قسم التدقيق منذ سنوات ولا يمكن أن تخطيء

في دقتها العجيبة برصد الأرقام والحسابات المختلفة من المشتريات والعقود والقروض والتسديدات الآجلة. لكنها مريضة وغير متوازنة وصعبة المعاشرة، متطفلة. كثيبة. شرسة. سمعتها زفت. ويتحدث عنها الموظفون بسوء كبير بل حتى الموظفات يتقولن عنها بأشياء غريبة.. مجنونة. عانس. سحاقية.. شيزوفرينيا..بعثية.. وقحة.. فجعلت من نفسها امرأة طاردة لا يمكن أن يخالطها أو يستسيغها أحد.

في رأسها جنّي كما تشيع الموظفات بتهمكم. لا تحب أحداً ولا يحبها أحد. متوترة وعدائية كما لو هناك امرأة أخرى في رأسها تنوب عنها في الشراسة واللخبطة.

6 - المنقبة عائمة في شعبي لا أعرف ما هو دورها سوى إنها تقضي دوامها على الحاسبة وتشرف على مطالعة حسابات الدائرة من دون أن يكون لها رأي سوى الاستشارة البسيطة، وعيناها الصغيرتان تبعثان القلق في نفوس الموظفات الصغيرات.

7 - مرة أسرتني الموظفة لقاء بأن المنقبة تشاهد أفلاماً إباحية. شاهدتها بعينها حينما دخلت عليها فجأة لأمر إداري، فاستبعدت هذا وكنت أستغفر الله.

وشككت لي موظفة أخرى بأنها مخيفة بوضعها المنقّب والبنات غير مرتاحات لوجودها في الشعبة وعيناها تبعثان الشك في الجميع.

وسخرت مديرة الإحصاء ذات مرة قائلة ربما هي رجل متنكر من الجماعة!..!

8 - سراب عانس تجاوزت الأربعين عام وخدمتها طويلة لكنها لا

تريد التقاعد. أسمعها تردد أحياناً: البلد كله بطالة.. وين أروح اذا تقاعدت..؟

9- في الرؤيا هناك مَنْ طلب مني الماء لكنه بلا ملامح.

شبح يتقدم ويتوارى، ربما بلا ساقين. يطوقه الضباب من كل مكان كما لو ثمة مَنْ يسحبه ويحول من دون الوصول لي.

كرر علي ملتحاً أن أسقيه ماءً فروحه جافة وجسده يابس.

قلت له الماء وفير عندي لكنني لا أراك.

ظل الشبح يتقدم ويتراجع بقوة خفية لا أراها وييدي طاسة فضية ممدودة الى مكان الشبح الذي كان يبتعد كلما تتقدم الطاسة اليه.

فتحت عينيّ أتمتم وأستغر الله حينما وجدت هذه رؤيا سريعة أعقبت صلاة الفجر لكنني كنت أشعر بالعطش.

طاف برأسي عادل مثلما طافت ريحانة في الوقت ذاته إلا إنني بقيت أعيد الرؤيا كل الوقت الذي استغرقتة للفظور واستبدال ثيابي تهبواً للمباشرة في اول الصباح للعمل بالدائرة.

10- في الدائرة عادت الرؤيا بشكل شذرات متقطعة أعادت صورة عادل على نحو ما لكنني استغفرت ربي كثيراً وقرأت المعوذات أكثر من مرة ثم شغلتنني الكتب الإدارية الواردة من أقسام الوزارة ومكتب المدير العام.

11- عصرت رأسي المكتظ بفوضى الدائرة والقييل والقال لكنني توقفت عند صورة ليست بعيدة حدثت قبل فترة غير بعيدة كأنها كانت ضباباً أخذ ينكشف عن شيء ما الآن..

تذكرتُ على نحو مباشر نهار الميلاد الذي ذهبت فيه ريحانة..  
وتذكرتُ ملاحقة سراب لها دائماً!!

12 - بعد يوم واحد فقط جاء استثناء للمنقبة من مكتب الوزير لتبقى في الدائرة وبوضعها السابق وهو أمر لم تستسغه الموظفين والموظفون وصار محل نكتة علنية طرقت مسامع المنقبة لكنها احتفظت بهدونها وغموضها بطريقة عجيبة.

13 - عكفتُ على فتح صفحتي الفيسبوكية وفي بالي ريحانة حينما ربطتها بصورة عادل الغائب في الجبهة.

وجدت أكثر من رسالة لها وأكثر من صورة لها على مضيق السفور بطلتها الطفولية المحببة ومع صيادي الأسماك وعلى باخرة سياحية متوسطة الحجم ولكن من دون خالها الذي لم يظهر بأية صورة.

14 - كبرت إحدى الصورة كما لو أراها لأول مرة فوجدت فيها أنوثة جميلة وشكلاً حلواً وشباباً أسمر مطحوناً بالعسل لا تخطئه العين..  
حقك عادل ههههه.. ربي يرجعك بالسلامة.

فتحتُ صندوق الرسائل وكتبت لها: حبيبي ريحانة.. مشتاقين لعودتك يا حلوة.. لا تفكري بأخبار الدائرة.. المهم صحتك وسلامتك.. عادل يسلم عليك.. أوصاني أن أبلغك تحياته وهو ذاهب الى الجبهة.. يتذكرك دائماً بحب.

لا تعرف لم خطرت في بالها سراب.

## الرنين

تكرر الاتصال بهاتفه من رقم يعرفه بدوائره المتعاقبة ولم يستجب لندائه منذ يومين وحينما ظل الرنين يلح على أعصابه المتوترة وقتاً غير قصير تمالك نفسه وظل في عدم لامبالته صافناً على صور كثيرة تتزاحم في رأسه، وما كان الرنين المتوالي يثير فيه الفضول فهو يعرف المتصل وهدفه.

تخاطرت في وحدته أشكال هذا الرجل بين العمامة والبدلة وليلة النبيذ التي استهوت صبيته الجامعية فتشكّلت في رأسها غريزة الآخر القوي الذي سيحملها على جناح الحرية الواسع ويوسع من أملها في الحياة المخنوقة في المنطقة الخضراء، مثلما وسّع في رأسه حلم الجسد الصغير الذي أراد أن يتبناه كجسد ريحانة ويبتلع ذروته الأولى قبل أن تتفتح في الهواء غير النقي.

كانت زهور حلمة نضجت بين شفثيه وتحت لسانه، لكنها لم تنضج كثيراً بعد.

قطع شروده مسج هاتفي فأدنى الشاشة الصغيرة أمام وجهه: أبو صابرين منزعج منكم.. كما إنكم لم تعلمونا بسفركم المفاجئ الى إسطنبول.

عصر ذقنه غير المحلوق منذ يومين ولم يستطع إخفاء ضجره بمط شفثيه فتجعد وجهه وارتسمت علامات القرف عليه وأخذ يُعيد صورته المتحولة بين رجل الدين الوهمي ورجل البدلة المدحوس فيها بجسده النحيل.

مرة سمع منه وكان يتحدث بجديّة في لحظة ثقة يتذكرها:

- الشاطر من يستفيد من هذه الظروف.. الوضع تعبان والجماعة يخمطون وناكوا أخت البلد.. أشياء كثيرة لا تعرفها سيد مارك.. عبّى جيوبك قبل أن يسقط السقف على الرؤوس.

أعاد قراءة الرسالة مرة أخرى وزاد امتعاضه، فكتب رداً بأصابع حاول فيه أن لا ترتعش كثيراً وهو يحاول تكثيف فكرة طرأت في رأسه: انا في رحلة علاج.. لا تلخ كثيراً أنت وصديقك البرلماني.. سأجلب هدية مناسبة لزهور.. قل لها مارك يعدك بذلك.. وستسافر معي لاحقاً الى المكان الذي تحبه لزرع حُلْمَة جديدة لها.. لكن لم تقل يا سيد هل وافقتَ على زواجي من زهور..؟

وخلال الدقائق العشر الأولى وصلته رسالة المعمم كما توقع:

«سيحصل خير إن شاء الله.. إشبع هواءً نقياً من تركيا فقد لا تجده في بغداد.. متى عودتك حتى نستقبلك في المطار..!»

أعاد قراءة الرد مرة ثانية فوجد فيه سخرية مضمرة وغموضاً لم يشأ أن يفحصه كما يجب في ساعة الضجر المحيطة به فتجاوزها ممتلئاً بالفراغ والصمت، لكن شبح الرجل ظل يحيط به من كل جانب.

قذف الهاتف الى أقرب مكان وبقي صافئاً.



## الشیطان

عدتُ من البسفور وما كانت بي رغبة أن أرى الخال المعتكف في  
غرفته لكنني أعرف إن صباح الغد هو موعدي مع العار لإستعادة ربحانة  
الأولى التي ضاعت في زحمة رائحتها.

أغلقتُ النافذة وخلعتُ معطف السوق الحرة الأسود وكان المطر  
غزيراً خارج غرفة الفندق لكنني عدتُ مخنوفة القلب وفي رأسي أكثر من  
قصة وتأويل فهرعت الى صفحتي الفيسبوكية وأنا متمددة على السرير لا  
أعرف ماذا أفعل سوى انتظاري للصباح الغامض الذي ليست لدي عنه  
أية فكرة تعيد لي طمأنيتتي المفقودة وسلامي النفسي المتخاذل.

أخلع بنطالي المبلل وأقذفه بعصبية وأخلع بلوزتي وأرميها وراءه  
وأندثر بفستان قطني ملاً جسدي بالدفء حالاً.

تحتقن عيناى بالدموع ويكاد قلبي يطفر من صدري، ففي مثل هذا  
الاحتقان أعيد في رأسي ما لا يجب أن أعيده أو أتذكره في غفلاتي  
المتكررة لنداء جسدي المسفوح على سرير الخال ذات ليلة في جونية.

هل من الضروري أن نرتكب الأخطاء الجسيمة حتى نتعلم؟

سألت نفسي وبكيت حينما وجدت الأفق مغلقاً، لكن من الأفق

وكلما أحاصر نفسي تبتثق صورة عادل بطلته العسكرية. تختفي قليلاً وتظهر كما لو أنّ هناك مَنْ يمنعها من الثبات أمامي.

أثبثت به لكنه يضمحل كمن تطارده أشباح وأصوات فأتبعه وهو يعاود الغياب بطريقة قسرية ويركض بلا أقدام ثم يتلاشى ويتلاشى ويبقى صوتي وحده في الفراغ.. ترمقني بنظرات حب كلما تأتي الى دائرتنا وتكتب لي وتقتفي أثري ورائحتي وعطري.. لكنك لا تعرف ما أنا فيه.. كان لي أبٌّ غائب وما يزال.. لكنّ غيابه الطويل أهون مما أنا فيه من عار يا عادل.. غداً يضعون لي غشاء بكارة جديداً لا أعرف كم دفع الخال من أجل أن يعيد لي شرفي الذي ابتلعه في ليلة بيروتية حمراء؟ ولا أعرف إن غشاء البكارة هو الشرف الأخير للمرأة!..

كنت غافلة لكنني سعيدة بجسدي الصغير وهو يتفتح، ولا أعرف كيف اكتشفه الخال وكيف أفنعتني بأن لا عناوين للأثوثة ومرّر لعبة الشهوة العارمة بطريقته الفذة ذات ليلة حمراء.

1- كنت صبية ومازلت لكن جسدي منذ ليلة الخال ظل يقرصني وتمشي فيه رجفة غريبة كأنّ شيطاناً سكنه والى الأبد.

2 - لا أتذكر كيف رقصت وانتشيت وطرت بين ذراعيه وأسكرني السميرنوف اللذيذ وكنت أشعر بدبيب نمل بي يؤذيني ويشيرني.

3- غداً أعود فتاة من جديد وطفلة صغيرة.

4- ياريت أعود كما كنت بلا خالي الزاني ولا سراب المريضة الحمقاء.

5- خالي الذي أسكرته أمي برائحة القرية وذكرياتها فشعر بالخطأ والندم والخوف والفضيحة حينما عرف إنني أتقياً بعد نهار الميلاد عند سراب.

6 - لا أدري إن كانت مصادفة حميدة أم عنده حسابات معقدة، لكنني واثقة من إنه شَمّ الفضيحة في عقله أو أنّ هناك شيئاً ما يجري حولي أو في خفاء روجه.

ربما تصورها أعراض حمل عندي فسارع الى رحلة إسطنبول لترقيع غشائي الذي ثلمه في ليلة جونية ودخله بحرارة فأطار صوابي وعقلي وزرع بي نشوة لم أعرفها من قبل.

عادل..

أنت شرفة واسعة أريد أطل منها لكنني مترددة وخائفة.

أحمل عاري معي أيها الضابط الهادئ وقلبي مجروح مثلما هو جسدي لكنك لا تعرف.

أريدك أن تعرف

ولا أريدك أن تعرف

وهذا ما يحيرني..!

## الحكمة

### صفيير العار. الصفيير الأول

- 1- كان أصعب يوم في حياتي.
- 2- أكثر يوم وجدت نفسي فيه ذليلة ومسكينة ویتيمة ووحيدة.
- 3- كنت أنا والعار على خط شروع واحد.. لا فرق بيني وبينه.
- 4 - البارحة أخبرني الخال بأنّ عليّ أن أستعد صباحاً لزيارة الطيبة النسائية المختصة.
- 5- كان مرتبكاً لكن كان عليه أن يخبرني بالموعد.
- 6- لم أنم طيلة الليل.
- 7- طلع الفجر وأنا يقظة أنصت للمطر وصوت أمي الوحيد.
- 8- رسالة أخرى من عادل لم أتفاعل معها كما يجب. قرأتها وحسب.
- 9- محنتي توازي محنة جونية. والخياطة المغشوشة تشبه الفتق. خياطة العار فتق ملموم أيضاً.. الترقيع خيانة نفسي.
- 10 - عادل ضوء في آخر النفق يشع كل يوم.
- 11 - لم أنسه طيلة الأيام التي مضت وكنت أدعوه بالسلامة والنجاة في الحرب.
- 12 - غداً أكون في خلق جديد وعلي أن أولد ولادة مكتملة.

13 - ربحانة الجديدة ستعود باكراً وطفلة سعيدة وترجع الى عمرها الأول.

14 - سيكون لي أب وأم وروني ووظيفة وثقاوة طفولة ونايات صافرة في قلبي وروحي.

15 - سيعود جسدي طفلاً كما كان وأعد كما أنا.. ربحانة العشرينية السعيدة قبل اختطاف والدها.

16 - أمي الحزينة تغسل ناياتي بدموعها ورنب فراشي كل يوم.

17 - وتقبض على رائحتي في كل مكان وبكي.

18 - هذا شمشاري - رائحتي يتنفسني كل لحظة.

19 - لم يكن مصادفة في حياتي بعدما نبت أسطوره القروية التي حلت بي.

20 - لكنني لست غجرية ولا نبية ولا حورية ولا عاشقة.

21 - أنا ربحانة اليتيمة المخطوفة من خال إدوج

22 - يريد أن يضع أية نهاية لي.

23 - لماذا..؟ وهو الخال المتهور المسيء الملحد الذي لا يؤمن بالنسب والشرف ويرى جميع النساء بسطرة واحدة.

24 - ما الذي غيرته..؟

### صفيير العار. الصفيير الثاني

بقي خالي خارج الصالة الصغيرة بلل المعطف؛ فقد خرجنا في صباح ماطر من دون أن نتكلم كما لو كنا تنفقين على إنجاز مشروع سريع لا يأخذ وقتاً طويلاً.

كانت ساعة حرجة ومخجلة أمام طبيبة عجوز عيناها عميقة الزرقة  
كإنهما شذرتان.

سلمها خالي رزمة ثخينة من الدولارات وهي تبسم فأشارت له  
بإبهامها إن كل شيء سيكون طبيعياً وعلى ما يرام.

أدخلتني الى غرفة جانبية صغيرة تكتنز بالروائح الطيبة والدفء  
المعقول وقلقت وراءنا الباب بهدوء، فواتاني إحساس سريع إنني لست  
في مستشفى أو عيادة طبية خاصة وهو شعور أملاه علي المكان وشكل  
العجوز وعدم وجود مراجعين، لكنني في داخلي كنت واثقة من الطرق  
التي يسلكها الخال بماله الكثير.

حدثني العجوز بلغة لا أفهمها وكان وجهي مصفراً وقلبي ينبض  
بشدة، غير إنني فهمت إن علي أن أخلع بنطالي وكنزتي وملابسي  
الداخلية وأن يكون نصفي الأسفل عارياً.

اختلفت أنفاسي وغمرني شعور فطيع بالخجل وأحسست إنني فتاة  
بلا حياء ولا شرف فعلاً، ومع أن وجه العجوز يوحى بالأمان كثيراً لكن  
كنت خائفة ومرتبكة ومغمورة بأطياف كثيرة من العار الشخصي.

خلعت بنطالي بتردد وشعرت ببرد طارئ بالرغم من دفء الغرفة  
النظيفة والمرتبة واستلقيت على سرير يغطيه شرشف أبيض ناصع  
البياض، غير أن العجوز وسعت من ابتسامتها ولمعت عيناها الزرقاوان  
وهي تشير الى لباسي الداخلي لأنزعه فكانت لحظة قاسية ومريعة  
تصورت إنني لا أتحملها بالرغم من كون العجوز لطيفة وودية، لكنني  
فعلتها ويدي ترتجفان وجسدي يزداد برودة.

كانت يداها مغطاتين بقفازين أبيضين شفافين أرى عروق يديها من ورائهما وكان وجهها مريحاً الى حد كبير وهو ما جعلني أهدأ بعض الشيء وأتجاوز جانباً من الخجل، غير أنني كنت خائفة امام عجوز لا أعرف ماذا ستفعل في اللحظات التالية وأنا نصف عارية ومشمشتي مكشوفة حاولت أن أخبرها بين فحذي، لكن العجوز أدنت من نهاية السرير مساند معدنية ورفعت ساقي قليلاً الى الجانبين وأحكمت غلق قدمي بطوق معدني لتثبيت امتداد الساقين وانفراجهما الكلي.

أصبحت نصف معلقة وانفتح كل شيء في جسدي كما لو إن العجوز هيأت أحداً ليغتصبي قسراً؛ فأغمضت عيني بقلب ازدادت نبضاته وشعور بالصراخ القوي يريد أن يجتاحني قبل أن تلمسني العجوز التي كانت ترتب بعض العقاقير وتضع المعدات الصغيرة على طبله السرير وهي ترفع من صوت مقدمة مسلسل (العشق الممنوع) المنبعث من جهاز تلفزيون صغير ورائي.

رطبت المكان بمادة زيتية أو دهنية ومررت أصابعها عليه بطريقة الصعود والنزول؛ فاجتاحني برودة فورية ولم يغادرني شعور الاغتصاب ولا لحظة واحدة وزدتُ من إغماض عيني؛ قبل أن يغيبني المخدر الذي انبعث من خرطوم ملاً وجهي مثل كف ضخمة تريد أن تخنقني؛ لأكون في ظلام مطبق وحاولت أن أنسى اللحظة المخزية التي وضعني فيها الخال بجسد عارٍ وشخصية ذليلة تتأمل النجاة على أيدي هذه العجوز.

أحسست إنها تفتحها بأصابعها وربما قربت عدسة مكبرة أدخلت جزءاً منها في المكان وعابنته بشكل تفصيلي فهممتُ وعادت تغني بصوت

المسلسل التركي وتنقلت بين صندوق يشبه الصيدلية معلق وراءها وبين المساند التي عادت لتأكد من إحكامها حول قدمي.

كنت أغيب بالتدريج وأتلاشى بالتدريج لكنني أعني أن إصبعها امتد الى الداخل أو أدخلت شيئاً مع إصبعها بدأت أحسه أو هكذا تراءى لي وجسمي ينكمش مع غرز أخذت أستشعره أو ربما أتخيله كسكاكين صغيرة تحفر أو تحرث في الداخل المستباح، لكنني كنت مستسلمة فلا مفر من الإستسلام وكانت قدمي المعلقتان محبوستين بشكل جيد وساقاي ممدودتين باستقامة، منفرجتين كعاهرة تنتظر أن يلجها أكثر من شخص.

دموعي تتقاطر من دون إرادة مني وصورة أُمي الباكية والحزينة تأتي وتروح أمامي فأبعدتها بقوة.

أُمي لا تتحمل كارثة ثانية بعد فقد والدي وريحانها الفاجرة تنتظر غشاءً تركياً يعيدها الى طفولتها العشرينية يوم كانت نقية وبيضاء كهذا الشرف الذي تستلقي عليه.

صرخت.

وربما لم اصرخ.

كنت أشعر بغثيان وألم ووخز وخيوط دم رفيعة تنز من المكان وتسيل بين فخذتي.

تشنجت بطريقة كدت أفقد فيها نفسي غير إن المساند المعدنية ألجمتني فحبست صراخي وقتاً طال وطال كثيراً وظلت موسيقى العشق الممنوع تطاردني طيلة الوقت حتى غفوت ونسيت أنني فتاة بلا بكارة.



## صفيير العار. الصفيير الثالث

فجر اسطنبول أبيض و جديد. أزاح رماد الغيوم المندفعة حينما فتحتُ  
النافذة وأكثر من دمعة في عينيّ لم تسقط منذ البارحة، فبقيت معلقة حتى  
الفجر الذي يتقدم الآن ويكشف عن بياض أول.

بقيتُ الليل كله مفتوحة الساقين أخاف أن أصفهما فقد تملكني  
شعور بأن كل شيء رقيق وغير مرئي وسيكون عرضة للتمزق مرة أخرى،  
وبالقدر الذي كنت أحس بعار شخصي كان إحساس آخر يفتح في  
داخلي من إنني تجاوزت جزءاً كبيراً من الأزمة لكنني ما أزال محبطة..  
أنا غير سعيدة تماماً.. خايفة!

منذ لحظة الطيبة العجوز في الشقة أو العيادة ومنذ أن فتحت ساقِي  
وراء باب مقفل وخال ينتظر صامتاً كان الرعب يفترسني والخجل يعصف  
بجسدي المنكمش والعجوز الماهرة التي كانت تغني طوال الساعة والتي  
أدخلت أصابعها وربما خيوطاً وإبراً؛ كنت ألهث مغمضة العينين لأبتلع  
عاري أو ناظرة للسقف من دون تحديده أو قياس مسافته سوى إنني أرى  
لطحمة رمادية تشفّ عن بياض يريد أن يخرج من عينيّ الدامعتين، ولا  
أعرف لماذا في لحظة إخفاء العار طاف وجه عادل وهو يبتسم خارجاً من  
رحم بياض السقف كما لو هبط عليّ في محنتي المخجلة.

هل البياض أحياناً رديف المأساة!

ولولا الخدر الذي غمرني في لحظة الإجهاز علي لصرخت طويلاً  
وملأت المكان صخباً وخوفاً واحتجاجاً على نفسي وعلى العالم وعلى  
خالي السافل الذي تسبب لي في كل هذا العار المرعب.

تقدم الفجر والكائن المزروع أو المرقع بين فخذي لا أستطيع تحديده  
ولا إمساكه كإنني عدت لفطرة الطفولة، ومع إن شيئاً غير ملموس دخل  
المكان بعد ساعة كنت فيها منبطحة ونصف عارية، إلا إن شعور الغش  
الفظيع يشق روعي نصفين.. أنا خائنة.. لن أغشك..؟

1- عادل.. لم بقيتُ أتذكرك من دون غيرك؟

2- وجهك يحضرني الآن.

3- في كل بياض أراه أو أتوهمه تحضر بسرعة.

4- لكنني أخافك وأخاف من نفسي وأخاف شبح التربع غير المرئي.

دخلت الحمام مرتين لكنني كنت قلقة.

أوصتني العجوز ذات العينين الزرقاوين أن أتصرف بشكل طبيعي  
(كما كنت) ولا أشغل بالي بالحكة الطفيفة التي تتاب المكان بين لحظة  
وأخرى، كما أوصتني بالمراجعة خلال يومين للتأكد من التحام الغشاء  
وأن كل شيء على ما يرام وقد عدت فتاة ولا داعي للقلق والبكاء وإن  
كثيرات يفعلن مثلي ويخرجنَ باكرات.

اختلج الصباح عن بياض اسطنبولي وأكثر من صورة اختلجت معي  
لكنها اختفت بالتدرج وأنا أستلقي على فراشي الناعم وأسحب البطانية  
على جسدي المتعب، فأغمضت عينيّ وسبحت بما يشبه ولادة فرح  
أريده أن يتكامل حتى ولو بطيف عابر.

## الهديان

- 1- لأول مرة أشعر بعطف طفولي نحوه.
- 2- لا أعرف إن كنت أعدت له نسبي أم بقيت معلقة الساقين في غرفة العجوز كآية ثمرة معطوبة، لكنني بدأت أشعر نحوه بأكثر من خال مريض أصابته كآبة وهذيان وعدم راحة بعد يومين أو ثلاثة من عودتنا للمرة الثانية من شقة العجوز وهي تفحص غشائي لتتأكد من طبيعته بإشارة ال-O.K العظيمة التي منحني حياة جديدة لن أفرط بها بعد مهما كان الثمن.
- 3- شعور طفولي زائد يستولي عليّ وأنا جالسة جنب سريره وهو يتكلم بصوت منخفض أو يهذي.
- 4- أمسكُ جبهته الساخنة فتصعقني حرارته المرتفعة.
- 5- يرفض أن أتصل بطبيب الفندق فما يزال عنده وعي بسيط في مثل هذه اللحظات الحرجة المشتركة بيننا.
- 6- تحول الى كائن آخر غير الخال الأمريكي الذي أعرفه فينتابني جزع يشعرني من إن فجيحة مقبلة ستلّم بي وبالخال الذي يتأكل تدريجياً ويهذي كثيراً وعيناه تدمعان وروحه تهذي وجسده يختض بنشيج صامت.

7- يصحو بعض الوقت ويقول لي أشياء مترابطة وغير مترابطة ثم يغفو طويلاً.

8- يتنفس ببطء مرة وأخرى بقوة لحد الشخير ثم يتململ ويصحو.

9 - يفتح عينيه وحينما يراني يبتسم كما لو يطمئنني فأمثل لابتسامته وتتغير ملامحي قليلاً أو كثيراً وأنا أرجوه بعيني أن يتماثل للشفاء حتى رجوعنا الى بغداد.

- كاثرين كانت السبب.. الأمريكيات فاتنات جداً.. لم أشبع منهنّ لثلاثين سنة.. لكن كاثرين دمرت حياتي.. جوعتني كثيراً وأهانتي كثيراً.. أنت عربي قذر.. كانت تردد أمامي هذا دائماً.

10 - أصغي اليه بانتباه موتورة جداً وقلبي يخفق بشدة.

11 - يرفع جسده قليلاً فأرفع له المخدة ليضع رأسه بوضع مستريح:

12 - الآن أشعر بأخطائي وتجاوزاتي وأوهامي وسرابي الطويل.

يغمض عينيه قليلاً ثم يفتحهما كما لو يريد أن يتذكر:

- أمريكا زرعت بي شيطاناً صغيراً منذ أقمت فيها في ساوث فيلد كمهاجر.. وهذا الشيطان كبر معي.. كان كل شيء مهياً له أن يكبر.

ترقرقت عيناه وزمّ شفّتيه وهو يكابد ألماً لا أعرف في أي موضع منه:

- يوم هاجرت الى أمريكا كنت حالماً مثل غيري أن أكون إنساناً آخر غير الإنسان الذي كنته. هربت من الحرب والبطش والرفاق.. وكنت وقتها شاباً طائشاً.. هجرت القرية التي تذكّرني بها بديعة كل يوم.

أمسك يدي الباردة وضغط عليها:

- 1- النساء الجميلات هناك أكلن من لحمي وعظمي.
- 2- لم تكن عندي وظيفة محددة.
- 3- تنقلت في أكثر من مكان
- 4- عاملاً
- 5- وخادماً
- 6- ومحاسباً
- 7- وماسحاً
- 8- جعلوني أحتاج المال.
- 9- وهذه قصة طويلة.

كنت أتنفس بصعوبة وأنا أقول له:

- ارتح يا خالي.. نم قليلاً.. الكلام يؤذيك.

ضغط على يدي من جديد كأنه يتشبث بها:

- حينما نفقد الأشياء الجميلة نهذي من أجلها كثيراً.

- ولكنك تؤذي نفسك.

يفتح عينيه قليلاً:

- كوني شجاعة بعد العملية.. سأهيك كل شيء.. فأنت وريثتي.

- لا أريد شيئاً غير سلامتك.

اشاح بوجهه عني وتلبد وجهه بالحزن:

- أخطأت..

اختض جسدي قليلاً وأنا أتابع بألم:

- لك ما تبقى وهو كثير وكثير.

أقول له بتوجس:

- المهم سلامتك.. نعود الى بغداد.. وأنا وأمي سنكون الى جانبك.

يتقلب قليلاً على سريره وعيناه غارقتان بالدموع:

- بغداد!.. لوئتها بك.

أنشج بصمت وأذهب الى الحمام وقلبي مضطرب يكاد يتوقف من  
فرط الموقف الصعب الذي كان فيه الخال وكنت فيه:

- الآن عدت ريحانة ما قبل الاحتلال.. ريحانة الصبية الحلوة أم  
الرائحة المجنونة.

أسمعه يهذي ولم يتبه لمغادرتي المكان الى الحمام وحينما أعود  
شبه منهارة يكمل:

- وضعتك في حلق العار.. أنا أحرق وجبان.. بديعة شاطرة في فتح  
دماغي ولو بعد فوات الأوان.

أفرك أصابعي وتهز جسدي قشعريرة باردة تجعلني مهياً للصراخ:

- كفى خالي أرجوك.

غمرت الدموع عينيه:

- أمريكا علمتني أن لا دين في الحياة سوى ما نعيشه للحظتنا مهما  
كانت وكيفما كانت.. أمريكا وسخة.. أنت أجمل من أمريكا.

يغمض عينيه وتتسارع أنفاسه وتتنظم تلقائياً وأنا جامدة أنظر لجسده  
الممدود ويدي تجس جبينه المعروف.

أتركه غافياً وأمشي بحذر الى غرفتي الملاصقة بكأبة حقيقية وروح  
مشوشة وخوف يتضخم كلما مضى الوقت.

عيوني تغرق بالبكاء.

أبكي كثيراً بغرفتي حتى أفقد الوعي.

## البكارة

بالرغم من المطر الغزير أحياناً إلا إنني أشعر بأن دفناً يغمرنني على مدار النهار وأنا أتجول في ساحة تقسيم وألتقط صوراً متعددة مع الجموع السياحية في المكان المكتظ الذي ألفت فيه جمالاً يشدني في كل لحظة.

غازلني رجل أجنبي لم أفهم لغته لكن قرأت في عينيه ما يمكن لي أن أفهمه فاستثمرت مراهقته وطلبت منه أن يلتقط لي أكثر من صورة تحت جداريات الساحة وتمائيلها، ووليت عنه مندسة في الشارع العريض الذي تخترقه سكة ترامواي وغبت في أحد المولات صاعدة سلمه الكهربائي وأخذت زاوية في كافتيريا صغيرة.

فتحت صفحة الفيسبوك عبر هاتفي فرنت إشارات الرسائل المتعاقبة وطلبت الصداقة وإشعارات مختلفة مألوفة.

أم عادل تطلب صوري الجديدة في إسطنبول وتقول لي أنت الآن أكثر حلاوة.. هههه.. طولتي الغيبة ريحانة.. مشتاقين حبيبي.

تخيلت أن «عادل» يطلب صوري ففتحت الاستوديو الهاتفي وأرسلت بضع صور التقطها الرجل الأجنبي المراهق قبل دقائق.

هذه آخر صوري صوّرتها قبل قليل.. طمئيني عنكم.. مشتاقه كثير



الست سراب الشاذة ترسل صورة قلب وردي.. فتجاوزتها.. وهذه هي المرة الرابعة التي لا أurd على رسائلها.

سارعت الى فتح صفحتها وبلا تردد وضعت لها Block فغمزني إحساس من إنني تحررت من عقدة لازمتني وقتاً شلّ أعصابي وسحق روحي أياماً طويلة.

استوقفتني رسالة من عادل متوشحة بعلم عراقي ثابت على ساتر ترابي:

صباح أو مساء الخير.. مشتاق الى ريحانة الحلوة.. أتذكرك كثيراً.. بصراحة أحبك.. أفكر بك كثيراً وأنا في الجبهة فتزيد محبتي لك أيتها الوطن الجميل.. ومن أجلك سأبقى حياً ويبقى أملي قائماً أن نكون معاً وأن تكوني وطني الصغير الذي أقاتل من أجله..

رفّ قلبي كثيراً وتضرج وجهي بالدماء وبكى قلبي وبكت عيناي وارتعشت أوصالي واختض جسدي.

فاجأتني هذه الكلمات المباشرة فأعدتها مراتٍ ومرات.

- 1 - لم يقل لي أحد مثل هذا من قبل.
- 2 - كلهم يركضون الى جسدي إلا أنت.
- 3 - يا إلهي.. أين كنت؟
- 4 - لماذا تأخر زمنك عن زمني وتأخرت بالوصول إلي؟
- 5 - ما أجملك وما أجمل مشاعرك أيها النقي في هذا الزمن اللانقي.
- 6 - هل هناك امرأة في الكون ترفض حبك أيها الضابط الشجاع؟

شيء فريد من الفرحة اجتاحني وأنا أقرأ الرسالة وأعيدها مرات كثيرة

والكثير من القلق والخوف والرهبة يمتزج في لحظة مفاجئة تدفقت اليّ  
من جبهة ساخنة الى برد اسطنبول ومطرها الرائع.

لكن يا عادل..!

أنا في العد العكسي للنجاة من محنة لا تصدقها لكنها نجاة عائمة  
وقلقة تنتظر عودتك أيها العاشق الشجاع لتفتح أفقها المعتم أمامك.

أنا في غشاء مرّق ومغشوش مثل العمائم المغشوشة، وأنت في  
بكاراة وطن مدنس بداعش وأشباه داعش.. أنت تدافع عن بكاراة وطن  
وأنا اخترع غشاء بكاراة تركية لأستر فضيحتي وأعود أنثى صغيرة بعمر  
خمس وعشرين سنة لم يمسهها أنسٌ ولا جان.

هناك شرف ضائع يا عادل وهناك ترقيعات موضعية تسترد الشرف  
بالمال مرة وأخرى بالدم، وأنت تعرف الفرق بين هذا الشرف وذاك..!

انهمرت دموعي غزيرة واختلطت بضباب السطور الناعمة وأنا  
أنفصل عن لحظتي وأحلق في لحظة عادل الملبدة بالحب مثلما هي  
ملبدة بالغبار والدخان.

1- ربي يحفظك يا غالي

2- شوقني لك أكثر

3- قريباً أعود

4- تحبني حقاً؟

5- هذه أنا وعليك أن تعرف ولن أغشك.

6- الذي سرق بكارتي هو من بيتي وأنا من بيته.

## الروح

رنت نعمة الناي التي أضعها للرسائل: لو كنت قريبة من الفندق  
إرجعي.. وضعي تعبان.

تركتُ ساحة تقسيم وتوجهت الى الهيلتون يراودني شعور لا أعرفه  
إزاء هذا الخال الذي صحا في وقت لا أدري إن كان مناسباً أم لا، لكنه  
يسير الى المرض منذ أن وصل الى إسطنبول.

يشحب ويتهالك جسده ويشرد رأسه ولا يرد على الكثير من  
المكالمات عندما يجمعنا مطعم الفندق أو صالته أحياناً كإنه هارب من  
شيء يخفيه عنه قبل أن يخفيه عني.

طيلة الأسابيع الثلاثة التي مضت بقي حبيس الفندق وحبيس غرفته  
ولم يخرج الا لعيادة أو شقة البكارة - الفضيحة مرتين فيما بقيت أيامه  
مرهونة بالكسل واللامبالاة بين الغرفة والمطعم والصاله يصفن كثيراً  
ويكلم نفسه كثيراً ويشيح النظر عني أحياناً.

بحس آخر تلقيت نداءه الهاتفي وهرعتُ الى الفندق والى غرفته  
مباشرة.

سلامات خالي.

كانت عيناه مبللتين كما لو كَفَّ عن البكاء قبل قليل ورأيت حزناً  
طاغياً على وجهه الشاحب أكثر مما يجب ومجموعة من الأدوية ما تزال  
معلبة في كيسها الشفاف.

- أشعر بالألم.

- وين؟

ارتفعت كفه الى لا مكان. الى رأسه وقلبه ووجهه لكنها تخاذلت  
وسقطت على صدره.

- سلامتك.

- ألم فظيع.

- وين..؟

- في كل مكان.

- لا بد من مكان واحد.

- كل مكان يؤلمني.

صعدت أصابع كفه مشيرة الى رأسه:

- تشعر بصداع..؟

- لا.

- دوخة..؟

- لا.

- استدعي طبيب الفندق..؟

زحزح جسده قليلاً ورفع كتفيه على المخدة وساعدته أن يتكئ قليلاً  
عليها فرفعتها وراء ظهره.

كانت عيناه بيضاوين وتحتهما هالة سوداء داكنة رأيتها خفيفة قبل أيام  
غير إنها الآن أكثر وضوحاً.

- روحي تؤلمني!..!

جلست على حافة السرير محرجة وقلقة لا أعرف كيف أتصرف.

- لا تقلقي.. إنها روحي التي تتعذب.

- سلامة روحك خالي.

- هذا العذاب الذي لا ينفع معه طبيب ولا جراح ولا حكيم.

فركت أصابعي مغمورة بحيرة لقت وجودي المضطرب.

- نرجع لبغداد.

- تمتعي الى آخر لحظة.. لن يموت خالك هنا.

أغلقت نافذة الغرفة فأنحجبت أصوات من الخارج وساد هدوء في

الغرفة.

هياتُ له عصيراً من الثلاجة وربتُ لحافه فوق نصف جسده وجسمي

يرتعش:

- ستعافى.. أنت زودتها شوي ههههه

- مرض الروح يقتل.

- سلامتك.. لا تفكر هكذا.

أمسكت الهاتف الأرضي:

- أستدعي طبيب الفندق ليرى حرارتك.

- لا.. حرارتي هنا.

وكان يشير الى رأسه مرة وقلبه مرة أخرى، وعيناه غارقتان بضباب أو دموع فوجدت الحالة تستدعي التعاطف الجدي.

إننا في مكان غريب وعلنيّ أن أكون أكثر شطارة في معالجة الموقف والرفق بخال كان يوماً شريراً غائباً عن الوعي والحياة التي لم يكن يراها الا بالخمرة والصبايا، لكنه يصحو أو يريد أن يصحو وعليه أن يتحمل الألم.. الألم في روعي ما يزال يفترسني.. هناك في أول الروح وآخرها.. لا ينفع معه طبيب.. ولا جراح.. ولا حكيم.

1- يعترف بفداحة ألم الروح.

2- يمكن أن أفهمه الآن أكثر من أي وقت مضى.

3- لم أستطع كبح مشاعري المتناقضة.

4- أرتعش كثيراً حينما أجده يذوب من ذلك الألم غير المحدد

5- فأهرع الى النافذة وأختفي وراء ستارتها

6- ألم الروح صعب وقاتل يا خالي.

7- معك حق.

8- كما هو ألم روعي أمس واليوم وغداً.

9- أنا فتاة بيكارة مغشوشة.

10- روحك تعذبك وروحي تعذبني.

11- وحدك تعرف الحقيقة المريرة.

12- ألم الروح يحتاج الى سماء تشفيه.

كفكفتُ دموعي وراء الستارة وكانت الغيوم المتفرقة في سماء  
اسطنبول تشي بأن الجو يصحو بالتدرج ويتفتح بشكل واضح.

وقبل أن يغفو كنت أعيد مع نفسي:

13 - عجوز العشق الممنوع أنقذتني.

14 - يكفي هذا الوقت وعلينا أن نغادر.

15 - اسطنبول جميلة لكنها مغشوشة.

16 - الوطن أحلى حتى لو كان مغشوشاً.

17 - وستنجلي غبرته ووساخته مهما يكن عذاب الروح فيه.

18 - سأجهز حقائبي ونقلّص أيام السفر.. أنت تحتاج الى راحة هناك.

## الفاسد

قللتُ من وقتي في السفر كما لو حجبت عني مطره الناعم المتساقط  
كشلالات خفيفة واستغنيت عن وجوه السياح.

أجلس كثيبة وخائفة مراقبة خالي وهذياناته المستمرة.

أفتح الفاير وأتصل بأمي وأمضي معها أكثر من نصف ساعة، أصف  
لها حالة خالي المريض بالهذيان والبكاء ثم أسألها عن روني وأبث  
اشتياقي له.

لا أريد أن أقلقها أكثر مما يجب، ففي الوقت الذي أصف حالته  
المنهارة وأنشج بالهاتف أعود لأخفف من وطأة الحالة وأقول لها إنه  
يتمائل للشفاء وإن وضعه الصحي في تحسن ونبضه عاد طبيعياً.

تنشج ويتقطع كلامها ولا شك إن الكهرباء تنطفئ عندها فأفقد  
الاتصال وأعود الى الفندق مسرعة بين الأزقة الخلفية.

يتبعني شابان يغنيان بصوت مسموع؛ كما لو بدءا يشمان رائحتي؛  
لكني أهرب منهما وألتف حول المكان أكثر من مرة بخفة وأفلت بطريقة  
صحيحة حتى أصل الى الفندق.

تخبرني موظفة الاستقبال الأنيقة وهي تفتح عينيها الخضراوين على



وسعهما إن السيد مارك استنجد بإدارة الفندق لضيق في نفسه وتم نقله الى المستشفى قبل أكثر من ساعة.

تناهني الخوف واصفرَّ وجهي غير أنَّ السيدة الأنيقة تطمئنني كثيراً وتخبرني بأنَّ إدارة الفندق على اتصال مستمر بالمستشفى كون السيد مارك يحمل جنسية أمريكية وإن سفارة بلاده بعثت موظفاً لمتابعة حالته الصحية مثلما تركت موظفة معه في المستشفى وإن الإدارة حريصة على سلامة زبائنها الأمريكيين.. ولم تنس أن تطلب لي كوب عصير برتقال منعشاً.

الساعة الأخرى التي قضيتها في الفندق تلبدت بالقلق والخوف والتفكير الذي صدع رأسي لكن الموظفة الخضراء ظلت تحنو عليّ وبين لحظة وأخرى تتصل بالموظفة المرافقة للسيد مارك وتطمئنني كثيراً إنه في طريق العودة بعدما أخذ علاجاً مفيداً وتغذى بالأوكسجين الصحي.

سألته إن كنتُ ابنته أم..!

خالي.. قلت لها بمزاج متعكر.

تنظر لي بطريقة غامضة فأرى في عينيها الخضراوين برقاً ساطعاً كأنه يكشف ما في قلبي وجسدي مرةً واحدة.

يدخل خالي بعد نصف ساعة بمرافقة موظفة الفندق وهو يسير متمهلاً متطلعاً في أرجاء الصالة المفتوحة على ثريات بضوئها الثلجي البراق.

أهرع اليه.. الحمد لله على سلامتكَ خالي.

يضع يده على كتفي ويشكر الموظفة الحسنة ونصعد الى غرفته.

- كنت قلقة كثيراً.. لماذا لم تبلغني بالهاتفون؟

بوجه منكسر ينظر لي ويضم يدي بيده ويقول:

- هذه نوبات مفاجئة.. لا داعي لتخويفك.. ما زلت أحياء.

أغير الحديث:

- أنت الآن أفضل.. يجب أن تأكل.

يمدد جسده المتهالك على السرير وأساعدته بتغطيته بلحافٍ سميك:

- روعي مخترة.

يرن هاتفه المتروك الى جانبه فينظر اليه من دون أن يجيب لكنه يقول

لي بعد إن سكنت نعمة الرنين:

- من المتصل؟

أقرأ على الشاشة: (المعمم).. فأخبره.

يمط شفته السفلى ويواصل:

- روعي زفت.. أنا فاسد مثلهم.. مثل هذا المعمم.

- مهما يكن فأنت خالي.

- أنا مارك.. لص مثلهم بشكل مترجم مع المارينز وموظف سفارة..

علموني السرقة مثلما علموني الدعارة هناك.. وحينما خرجوا من

الوطن بقيت.. بقيت مع هؤلاء الإسلاميين.. وهؤلاء لا يقلون دعارة عن

الأمريكيين.

يرفع الغطاء أكثر على جسده ويبقى وجهه محبوساً باللحاف بشكل دائري:

- أريد أن أفتح نفسي لأتحرر من الظلام الكثير فيها.. سامحيني..  
أرفع رأسه قليلاً بوضع مخدة أخرى وهو مصمم على أن يتحدث:  
- عملت ومازلت أعمل مع شركات وهمية.. مع السادة والعلمانيين..  
مع الأحزاب.. مع الوسخين فيها.. أموال كثيرة ومشاريع وهمية والكنز  
مفتوح والبلاد فيها مالٌ لا ينتهي..  
نظر عبر النافذة:

- امتلاً جيبي فجأة.. علاقاتي صارت أفضل.. لم أكن تاجراً من قبل  
لكنني تعلمتها ببساطة هنا.. لغتي ساعدتني.. وجود ضباط وقادة المارينز  
كمترجم لهم قرّبي الى هذه الثمنونات الحزبية.  
سكت قليلاً وتنفس بعمق:

- تعرفت عليهم وعرفتهم وعرفت من أين أسرق وكيف ومتى.  
أطبق أصابعه على بعضها:  
- أنا لص.. انسان غير شريف.. هذه هي الحقيقة.. خال تافه وساقط.  
التفت لي وعيناه أكثر عتمة:  
- أنا لست خالك.

كنت أنظر الى عينيه وأتذكر نباح كلبى روني:  
- أنا مثل هؤلاء.

يغمض عينيه:

- الخال وثيقة شرف.. وأنا لست كذلك للأسف يا ريحانتي الحلوة.  
شمّ رائحة في الغرفة تسللت اليه في هذه اللحظة فأحسست إن  
قميصي يلتصق بجلدي.  
رنّ الهاتف مرة ثانية وعلى الشاشة اسم (أبو الحارث).

## الخيانة

اليوم خالي مارك أفضل حالا.

كلّمني بحب وقبّلني على رأسي وضمّني اليه بحنان.

جلسنا في حديقة خضراء معشبة ومزهرة ومجنونة بالرائحة وكانت الشمس طرية وخافتة.

كنت أشعر براحة نفسية الى حد جيد واستطعت منذ يوم أمس أن أطبق فخذيّ بلا حساسية ولا ألم.

الخال يكمل لي قصة في رأسه ويبدو إنه لا يريد أن ينساها:

- كاثرين كانت السبب.. كانت زوجة عاهرة..

يصمت قليلاً كما لو يتأكد من انتباهي له:

- أيقنْتُ إنها في طريق الانفصال وستذهب الى صديقي وصديقتها جورج وكنت أعرف مسبقاً إنها أقامت معه علاقة حميمة.

يبتسم بخجل:

- غضضت النظر بسبب شقتها التي آوتني أكثر من سنة ووفرت عليّ ما يجب أن يتوفر من مصاريف ما كنت قادراً على دفعها.

ههههه.. ضحك باستخفاف:

- لذلك كان جورج ينوب عني كزوج!

يستطرد وهو يتنهد:

- كنتُ ضعيفاً.. وجورج حلّ محلي بشكل سهل لكني بقيت في

الشقة مثل القواد الصغير.. كنتُ مارك وليس طارق.

أدركت إنه يتعذب:

- كفى أرجوك.

استرخى أكثر وهو يتحدث:

- اسمع بالذين تضيع منهم خطواتهم ولا يستطيعون إرجاعها الى

سكّتها الأولى.. لكني لم أكن أعني كيف للإنسان أن تخذله خطواته ولا

يستطيع إرجاعها الى ما كانت عليه. لم أستطع أن أوازن حياتي معها..

كانت كاترين خائنة.

اضطرب نبضي وأنا أتوسل:

- يكفي هذا خالي إنه الماضي وقد راح.

- قبلت بالوضع لأنني مارك.. تخلّيت عن طارق من زمن بعيد

واصبحت مواطناً أميركياً ومسيحياً وليس لاجئنا أو مهاجرأ.

يبعد عينيه كثيراً عني:

- جورج طلب مني أن نكون أصدقاء وكأثرين تحثني على ذلك

مقابل أن أبقى في شقتها في غرفة أخرى في دور هامشي وليس كزوج.

ينقل عينيه الرطبتين في أرجاء الحديقة:

- القصة هي تعويد ومن ثم قبول ومن ثم التصرف بشكل طبيعي وهذا ما حصل.

عاد يلتفت لي وفي عينيه أسى واضح:

- أدركت إن النسب كذبة فظيعة.. وكاثرين كانت السبب.. كانت زوجتي لكنها عشقت جورج وأوته في الشقة واستبعدتني بشكل سهل. تأفف وهو يحاول أن يكون جاداً:

- لم أنظر الى جورج كعدو استليني كاثرين. قلت هذا من حقه أن يعشق زوجتي ومن حق كاثرين أن يكون لها عشيق يمضي الليل معها بالخمرة والجنس والحب فأنا أمريكي في نهاية الأمر. بدا كما لو يريد أن يختصر القصة:

- أتعبتني كثيراً ويبدو كرهتها في نهاية الأمر. تحولت الى نمره عدائية وتحولت الى رجل ليل أصطاد الفتيات والنساء متنقلاً بين شقق كثيرة مخموراً ويائساً.

عاد ينظر الى النافذة:

- أوتني لاحقاً شابة صغيرة تدرس في إحدى الجامعات أعجبت بجسدي وعضلاتي وسُمرتي وكانت تردد عليّ دائماً: أنا أحب رجال الشرق السُممر.. وكنت أقول لها أنا أميركي لكنها بقيت مصرّة على جسدي الشرقي شهوراً طويلاً.

سحب جسده قليلاً الى أعلى وساعدته على ذلك:

- كانت أميرة وصغيرة وجميلة لا أعرف شيئاً عنها إطلاقاً لكنني كنت  
يائساً من نفسي وموردي قليل وكأثرين شطبتي من حياتها.

تنهد وهو يسترخي قليلاً:

- الأميرة الصغيرة ذات الجسد الناعم المثير الشهواني.

سكت وهو يفرك بأصابعه وودت أن يسكت وينهي الكلام:

- .. كانت البداية الثانية لصغيرات أخريات وصبايا أخريات في  
الجامعة.. ولهذا قصة وقصص كثيرة.

قلت بانفعال:

- أرجوك خالي بس..!

- وجدت في الصبايا لذة لم أستطع مقاومتها.. وبدت لي كأثرين دُمية  
هرمة فأحسستُ إن الحياة مع الصبايا أكثر قوة وروعة وجمالاً.  
- سأخرج إذا لم تسكت..

صرخت به منفعله لكنه طقطق بأصابعه وهو يطيل النظر في الحديقة  
الفسيحة ويتكلم بانفعالٍ أقل:

- عندما كانت بوادر الحرب تلوح على العراق طلب الجيش  
الأمريكي مترجمين عراقيين وعرباً متجنسين ومقيمين يعملون لحساب  
البتاغون لأغراض الترجمة وكأدلاء أيضاً للمارينز الذين اقتحموا العراق  
من الكويت حتى وصلوا بغداد.



ظل يروي وهدأت قليلاً:

- كانت فرصتي العظيمة أن أتطوع بسبب الراتب الضخم الذي سيريح وضعي النفسي والاجتماعي، مثلما هي فرصة أن أزور العراق بعد غياب ثلاثين سنة وأرى أهلي ومن بقي منهم حياً.. كانت هذه هي الفكرة منذ البداية.

رن الهاتف المتروك على طاولة صغيرة الى جانب سرير الخال.

فهمت من عينيه أن أرى المتصل فتناولت الهاتف وأخبرته بأن المتصل (أبو صابرين - البرلماني) لكن الرنين صمت بعد لحظات.

التفت لي:

- والحكاية معروفة.. كثير من المترجمين خونة وأدلاء.. تقاضوا رواتب كبيرة مضاعفة لا تصدق بوصفهم جنودَ حرب وسرقوا من قصور صدام وبنوك بغداد ملايين الدولارات والتحف والهدايا التي لا تقدر بثمن وعادوا بغنائمهم الى أميركا.

ثم واصل بعدما وجدني أكثر هدوءاً:

- لكنني طلبتُ أن أبقى مرتبطاً بالسفارة ورتبت بقائي من خلال الجنرال ألن المرابط في مطار بغداد، كنت قد خدمته كثيراً وسهلت عليه أشياء كثيرة في بغداد.

- ولماذا لم ترجع معهم!..

كان سؤالاً عابراً.

ربما لتبديد صمتي وإيقاف شرودي وأنا أتذكر الحرب والصواريخ التي دكّت بغداد. كنت أصغر من هذا العمر لكنني أتذكر ليالي الفزع والقصف والموت المنتشر في العاصمة.

- امتلكت مالاً كثيراً جداً خلال وجود المارينز في بغداد.. مال كثير وجدناه في قصور صدام وبعض المقرات السرية والحزبية ودوائر الدولة وعلى دجلة وغير دجلة وفي المصارف المنتشرة في بغداد.

عدّل استقامة ظهره قليلاً:

- الجنرالات الأمريكيون وزعوا الكثير منه كهدايا على شرفنا نحن الأمريكيين والمتأمركين.. وكنت متردداً بين الانسحاب بمالي الكثير أو البقاء مع القدر العراقي الذي كان في بعض حلقاته عاصفاً ومخيفاً.. قتال واغتيالات وقصف بالهاونات. خطف وسرقة وفوضى بلاد محتلة.. جيش المهدي الذي ذاع صيته في أحياء بغداد كان يشكل عقبة كبيرة أمام القوات الأمريكية لكن رغبة عارمة كانت تجتاحني أن أبقى في بغداد بعد الغياب الطويل.

ما كان عندي شيء أقوله سوى إنني أشعر ببعض الاطمئنان والخال يعيد سيرة سريعة من حياته:

- الجنرال آلن يثق بي لسبب لا أعرفه. ربما لأنني أميركي مسيحي حالي وعراقي سابق لا تربطني بالعراق سوى ما أنا فيه الآن أثناء الاحتلال، لهذا طلبت منه البقاء مرتبطاً بالسفارة.

بدا إنه يريد أن ينهي الكلام:

- وهكذا بقيت مارك الأميركي والعراقي القديم أتجول بحذر وأسكن

المنطقة الخضراء في السفارة بعلاقات كثيرة فرضها وجودي المزدوج في المنطقة الخضراء.

- كان يمكن أن تريح حالك وتغادر الى أمريكا مع الأموال التي جنيته.

- لا.. شيء ما شدني بالبقاء الى الوطن. ما عندي شيء أخسره. لا تربطني بأميركا سوى جنسيتي. لا زوجة ولا أولاد. صبايا مخادعات أيضاً يتنقلن من جسد الى آخر.. خيانات كثيرة آذنتني هناك ومع هذا لم أشعر بعراقتي بعد سنة من وجودي هنا. بقيت مارك ذا العلاقات المتحولة في المنطقة الخضراء.. اسلاميون وخونة وجواسيس وحتالات ولصوص.. تعرفت عليهم كلهم ودخلت في مشاريعهم المليونية الوهمية عبر وجودي في السفارة وكانت لي نسبة عظيمة من كل مشروع وهمي او غير وهمي.. نعم. نسبة عظيمة لي وللجنرال آلن.

رنت نغمة الرسائل بوصول رسالة فطلب مني الخال أن أفتحها وأقرأها أنا:

«السيد مارك.. تأخرت علينا في الدفع. الجماعة لا يرغبون بالخدعة كما تعرف.. السيد»

ثم أعقبته رسالة أخرى ولم أنتظر أن يشير لي الخال بفتحها فقرأت له:  
«سيد مارك أنا زهور الفتاة التي بلا حلمة. صدري متورم وأبي ينظر لي بغضب كل يوم.. يشعر إنك خدعته.. احذر منه سيد مارك.. ولا تنس حلمتي المقضومة.. عد بسرعة»

بلا شعور مددت يدي على صدري.

## الوريثة

كنت أقل تشنجاً منذ يومين والخال يتشافى نسبياً ويغادره الهذيان، وبدأت روحه تستجيب للمكان والطبيعة والهواء النقي والمطر المتقطع. وحينما كانت أمي تتصل في كل وقت أجيبها بأن الخال طارق تحسن كثيراً وإنه عبر الأزمة إن شاء الله، ولا أنسى أن أسألها عن روني وكيف صار وهل يفتقدني.

مرة أخبرتني انه يدخل كل يوم غرفتي ويستلقي على فراشي ويدور في غرفتي ويشم خزانة ملابسي ويحملك بصوري المنتشرة في غرفتي  
هههههههه

كلمت خالي أكثر من مرة وكان يتأثر كثيراً وتدمع عيناه، لكنه يشجع ويطمئنها بأن كل شيء على ما يرام وقد عبر الحالة الحرجة.

1- أخبرها بأنه في شوق الى القرية.

2- وهذه أول مرة يكتبه الحنين للقرية ويقول بصراحة.

3- كان يحكي مع أمي وعيناه دامعتان

4- وكنت أحمّن أن والدتي تبكي الآن

5-..القرية..

6- كررها عدة مرات حتى اختنق بها.

قال لي إنه يريد أن يمشي بعض الوقت حتى البسفور.. بي حاجة  
لأتنفس الهواء أكثر.

وحينما قطعنا نصف شارع عثمان بيگ استدرنا الى اليمين ونزلنا  
منحدرأ كان يشرف على المضيق الواسع.

- بعد سنة في بغداد توصلت الى داركم عبر Google Earth ..  
أوصلت اكثر من رسالة الى أخوتي في القرية بواسطة ناشطين وسياسيين  
وتمكنت من العثور عليهم بعد جهد فأوصلوا لي عنوانكم.. قالوا  
أختك بديعة في بغداد وهي الأقرب اليك.. لم تكن رسائلهم حميمة  
كما كنت أتوقع. ربما نسوني في خضم الأحداث وطول السنوات التي  
كنت فيها بعيداً عنكم.

يطل البسفور المهيب من بعيد ومقتربات الشواهد التاريخية من  
جوامع وقصور تقترب ونقترب الى ساحات صغيرة تقود الى أبراج  
ومنارات باذخة في عمرانها القديم وخالي يسير متمهلاً محققاً بقصور  
السلطين وفيلات الباشوات العثمانيين.

يلتقط صوراً كثيرة لي ونحن نتجول بلا تعب عند قصر طولمة باعجة  
التي تمر من فوقه الغيوم عابرة الى آسيا.

صورني الخال أكثر من مرة أمام قصر جراغان وقلعة روملي وهو  
يتسم ثم ضمنني من كتفي ومشى بي الى الأسواق والبازارات المكتظة  
بالتحف الأثرية الجبسية، لكنه لا يريد أن يصور نفسه.

يقول:

- أنت شابة وأمامك ذكريات طويلة أما أنا فقد انتهيت من الذكريات.

يضيف بالم:

- يكفي كل هذا السواد في حياتي.

يضمني بحنان:

- روعي سوداء ولا ذكريات أخرى أضيفها بعد الآن.

تقطع الحديث نغمة رسالة دخلت هاتفه المختفي في جيبه وأفهم أنّ عليّ أن أقرأها له:

«السيد مارك.. ما لم تسدد ما عليك ستجد ما لا يسرك.. أبو صابرين»

أشعر بارتجاف يده على كتفي لكنني أشغل نفسي برؤية السياح الذين تحولوا الى مصورين أمام قصور السلاطين وتحفهم المعمارية الأثخانة.

نمضي الى مطعم صغير يطل على المضيق المضطرب بموجه بعدما سقطت الأمطار.

يقول خالي:

- حاولت أن أكون طارق لكنني ما استطعت.. روح مارك الأميركي

تلبستني.. أريد أن أصحو من مارك حتى ولو بعد فوات الأوان.

هوّنت عليه وأنا أشعر بالارتباك:

- إنس كل شيء.. المهم صحتك.

- يا ليتني أقدر أن أنسى.. إنه قدرتي التعيس أن لا أنسى.

يلقي بنظراته الحزينة الى النهر من وراء النافذة:

- انا فاشل وخائن.. أنا مريض.

يستولي عليّ مزيج من الغضب والخجل والعار في لحظة اعتراف  
وتوبة طالت كثيراً على أيامي الإسطنبولية القلقة لذا أصمت وجسدي  
يغلي وروحي تغلي وعينا ي تبكيان من شدة الجزع.

في لحظةٍ ما يتراءى لي الخال كأنه ليس هو خالي وإن أكلوبةً مرّت  
علينا أنا وأمي لهذا المارك الأمريكي بالرغم من إنني كنت أسمع بخالٍ  
هارب الى أوروبا ولا أحد يعرف مصيره.

أحياناً أتصور شكل خديعة أمريكية وقعنا فيها أنا وأمي مع هذا الرجل  
الذي اتخذته أباً بشعوري لفقدان لأبي، لكنه تحايل علي وأغرقتني  
بشهوته الجبارة وأيقظ جسدي الصغير وقطف رائحته بلحظة خاطفة لم  
أكن واعية لها.

تأتيني صور شتى لهذا الخال المزدوج وفي الصور كلها أنفر منه ولا  
أطيعه، وعندما أتذكر ليلة جونية الحمراء أراني طفلة صغيرة تلهو مع  
رجل كبير تحت أضوية حمراء وجسدي يفتتح مثل الزهرة بين أصابعه.

### صغير الجسد . الصغير الرابع

- 1- ما زلت أتذكر ديب الخدر في حلمتي
- 2- ولسانه المطعم بالويسكي والهيل
- 3- وهو يدخل بين شفّتي ويخرج كفاكهة عجيبة فيزيديني خدراً وشهوة.
- 4- جسدي يقصرني في أماكن مختلفة
- 5- ووردتي الأخيرة تبلبل في غرفة الفندق
- 6- وتنضح رغبة أخيرة في اشتهاات الخال الذي كنت أراه ذكراً هائلاً  
وهو يدخلني بحمّي مجنون

7 - لآتحول الى قطة صغيرة تموء تحته من اللذة والغرق الفجائي في بحره العاصف.

8- أكره مارك

9- واحب طارق الذي كنت أعرف إنه خال مسافر منذ ثلاثين سنة.

10- لم أكن قد ولدت حينما هرب أو سافر أو هاجر.

11- كنت غائبة عن الحياة لكن القدر العجيب خطف والدي وجاء بمارك

12- من دون أن يأتي بخالي طارق المزمّن في غيابه البعيد.

فرح صغير يجتاحني منذ يومين وأنا أرى الخال قد استعاد الكثير من صحته مثلما استعاد وعيه فيما يخصني، لكنني أخجل وأرتجف حينما يذكّرني بضرورة أن يكون كل شيء تمّ على ما يرام وأن أعود ريحانة الصبية التي لها رائحة الجوري والمسك والزعفران.

- اعتبريني مارك الأميركي الذي... أنا لستُ خالك يا ريحانة.. انسي موضوع الخال.. هذا مارك الأميركي النذل الذي سينتقمون منه.

ألوذ بالصمت ويجتاحني طيف من الخوف مثلما يجتاحني الكثير من العطف على رجلي يضعف كل يوم وهو يفتح سرائره بطريقة مفتوحة وواضحة.

- يلاحقونني حتى وأنا هنا.. لدي الكثير من أسرارهم وملياراتهم ومشاريعهم الوهمية.. السفارة تعرف.. والجنرال أكن يعرف.. والجميع متورطون بالخزينة التي لا حارس لها.

أصمت ويواصل:

- ليست زهور إلا قشة في هذا المسلسل المروّع..أعتقد إنها فخ ركضت اليه بقدمي ببلادة..



ثم قال بما يشبه اليقين:

- قد تقتلني تلك الحلمة.

التفت لي بعينين ذابلتين وهمس لي بوضوح:

- لأنني أريد خلاصك بأي ثمن!

لم أفهم كثيراً لكنه أكمل بنبرة حزينة:

- هرّبت الكثير من المال الى دبي وعمّان في حساباتي الشخصية

ولدي الكثير هنا. كانت عيناه منكسرتين:

- كل ما هنا أو هناك سيعود لك.. لن يرثني أحد غيرك.. أنتِ وأمك

فقط هو ما عندي في الحياة.. أنا مريض وأيامي قليلة.. سيغتالوني إن

نجوت من المرض بدعوى حُلْمَة زهور.. زهور ضحية أو نصف ضحية

فالبلد مليء بهكذا أنواع.. لكن لن أدفع لهم دولاراً واحداً.. السيد يريد

أن يبتزني لآخر نفس.. وزهور لعبة متقنة جداً.

يسكت قليلاً وهو يتأمل شيئاً ما فيه:

- زهور.. أو حلمة زهور نبهتني اليك يا ربحانة.

يعود الى السكوت ثم يستأنف:

- أفكر بآلم.. زهور لها أب يصارع من أجلها حتى اللحظة الأخيرة..

وانتِ...!

أشاح بنظره أكثر فداهمني بكاء سريع وجارف.

أجهشتُ كثيراً وجسمي يرتعش.

ومن بين اختناقاته قال:

- كلنا لصوص سفلة واللصوص يتقاتلون كما في الأفلام وينصبون  
الفخاخ لبعضهم.. وفي الواقع يجب أن يحدث هذا.

ازداد خوف غريزي بداخلي وقلت بصوت مرتجف:

- لماذا لا تعطيمهم المال من أجل سلامتك.

- لا.. ما دمنا لصوصاً ونسرق من الكثر نفسه لن أعطيهم شيئاً.

قلت وأنا أتخيل شكل زهور وصراخها بعد قضم حلمتها:

- وما ذنب تلك الصبية في صراعاتكم..؟

أكمل وهو يجزّ نفساً عميقاً:

- زهور فح وقعت فيه.. زهور بداية التصفية والنهاية اقتربت..  
وسأمضي الى بغداد حفاظاً عليك.

قلت بخوف:

- انهم أكثرية وأحزاب.

- وأنا سفارة بكاملها.. أنا أميركا.

قلت له بعناد وربما بنبوءة:

- لن تحميك أميركا.. القرية تحميك يا خالي.

ضممني بلطف واستشعرته صادقاً هذه المرة بلا عطر باريسى ولا  
رائحة سميرنوف وقال مختنقاً بعبراته كما لو يقرر أمراً:

- جهزت لك كل الشيكات لحساباتي البنكية في كل مكان بوكالة شخصية.. كل شيء وضعت باسمك. هذه أموالك حبيبتي.. كل ما أملكه لك..كوني شاطرة بعد موتي.. بغداد في خطر وأنتِ في خطر. اجمعي ثروتي بهدوء فهي لك ولبدیعة الصابرة. ثم ارجعي الى القرية حتى تتعافى بغداد من هؤلاء القتلة الأقرام.

## الشمشار

بقي لي نصف نهار إسطنبولي.

بضع ساعات أخيرة قبل أن نغادر الى بغداد.

انطبق فخذاي بشكل طبيعي بعد إن كنت حذرة وحساسة وخائفة من الكائن المدفون بينهما في عمقي الأخير، فمشيت أمس كثيراً وتأملت الحياة الآمنة تحت مطر غزير لم ينقطع ولا لحظة واحدة.

يتعافى خالي بصورة بطيئة وبقي وجهه ملبداً بالحزن والكآبة، لكنه أوصاني اليوم أن أتمتع في آخر الساعات ودرس في حقيتي رزمة من الدولارات: اشترى هدايا كثيرة لبديعة وصديقاتك في الدائرة بعد إن كان صامتاً بوجه مجعد وجسد بالكاد يحمله، فعجبت كيف للجسد العملاق الذي كان فتياً يرقص وينط ذات يوم ليس بعيداً يتخاذل بهذه السهولة، وكيف لروح فيها من الشباب أكثر مما فيها من عمر يقترب من الستينات أن تنكسر وتلبد بهذه السرعة.

تعقني رجلان وهما يتغنيان بصوت منخفض.

تبعا رائحتي وأنا أدور في ميناء بوكاز حينما قطعت بطاقة رحلة سياحية لمدة ساعتين ذهاباً وإياباً في آخر المشوار لأكون بين آسيا وأوروبا في هاتين الساعتين.

كنت على ظهر باخرة سياحية تمخر المضيق الأزرق متطلعة الى الآثار العثمانية المنتشرة على شاطئ السفور وأستمع الى شروحات كثيرة تلقيها فتاة سياحة كدليل يعرف السواح بقدم الآثار من قصور وكنائس وجوامع وشواهد عمرانية كثيرة كنت أصورها بدقة متجولة في ممرات الباخرة الخارجية.

أنا عائشة، هكذا قالت الدليل السياحي لمجموع السياح المصطفين على أطراف السفينة في لحظة انطلاقها البطيئة؛ ستتجول في رحلة قصيرة بين قارتي آسيا وأوربا، وسياخذنا مضيق السفور بين القارتين لنستطلع شيئاً من الأسطورة والتاريخ..وبدت على ملامحها سعادة قصيرة وهي تتطلع اليها.

عائشة جميلة ولبقة تتقن الإنكليزية والعربية بطلاقة. تتحدث باللغتين لوصف المكان وشواهده التاريخية بمعرفة تامة وتعرج حول الأسطورة اليونانية عن غيرة النسوان التي بسببها سُمي السفور بـ ممر الثيران وهي قصة لم أسمعها من قبل، وكنت أتصور الإله زيوس الذي بدا - بوصف عائشة - إنه يعشق النساء كثيراً فيخون زوجته هيرا الغيورة والشرسة جداً كإنه وحش جنسي يطارد الصبايا (مثل الخال مارك) ولكي يحمي حبيبته «لو» من شر هيرا خدعها بأن غطى السماء بالغيوم غير إن الزوجة بكيدها الفظيع تمكنت من كشفها فما كان منه إلا إن حوّل حبيبته الى ثور غير إن هذا لم يجد نفعاً، فقد كشفتها الزوجة الغيورة وسلطت عليها أشنع أنواع الحشرات فاضطرت «لو» أن تركض من بحر إيجة الى البحر الأسود شاقّة الأرض برعب فظهر ممر طويل أطلق الإغريق عليه اسم «البوسفور» أي ممر الثيران.

هههههه صفقنا لعائشة الجميلة وهي تستقدم الأسطورة لنجد أنفسنا في ممر الشيران ونسمع أنفاس «لو» اللاهثة والهاربة من حشرات هيرا التي حاولت أن تأكلها.

كنت أشعر بسعادة ضمنية في تلك اللحظة البسفورية الأسطورية.

تركت عادة تحشس جسدي الذي انتظم من جديد على قامتي وخرجت من الظلمات الى النور بعد عملية العري المخجلة حينما فحصتني العجوز ورفعت إبهامها بـ O.K. عظيمة لا تردد فيها وكان خالي الذي ينتظرنني يجرُّ أنفاسه البطيئة بسعادة وكان مثل سترة الإنقاذ من الغرق ووجدت سعادة عارمة في تلك اللحظة على وجهه المريض.

عائشة الجميلة ابتسمت بوجهي والتقطت لي أكثر من صورة تظهر فيها - خلفي - آثار عثمانية كثيرة من قصور وكنائس وجوامع وبيوت تراثية؛ وهذه طريقتها في جذب السياح حينما تكون لطيفة وتجيب على الأسئلة وتوضح الأمكنة شارحة بذكاء مع دفع القليل من الليرات التركية لكنها همست بأذني وهي تبتسم:

- من أين لك كل هذه الرائحة يا بنت؟

وجدت عينها زرقاوين كمياء البسفور ووجهها يتموج بأنوثة تركية محببة رأيها كثيراً في العشق الممنوع.

نهتنا عائشة وتحت جسر عملاق يربط القارتين الى أن الساعة الأولى انتهت، وكانت الباخرة تتباطأ وتستدير الى الضفة الثانية التي لا تقل فخامة وروعة، فهرعت الى مؤخرة الباخرة العريضة والتقطت

أكثر من صورة للأمواج المتداخلة التي تخلف وراءها زبداً كثيفاً وكنت خفيفة الروح والجسد والهواء البارد النقي يلامسني.

تجمع الى جانبي رجال وشباب ونساء يلتقطون بزومات كاميراتهم الحديثة وعدسات موبايلاتهم أكثر الآثار بروزاً في الضفة الجديدة، فشعرت إن أكثرهم يقترب مني كما لو يشم شيئاً غريباً وكنت أدرك هذا وأتوقعه؛ فمشطي الذي أمشط به شعري كل صباح ومساءً في حقيبي يتضوع بالرائحة السماوية والعجرية العشقية فيملاً لحظتي البسفورية بالرائحة الأثيرة المتدفقة في هذا الجو الاسطنبولي الجميل.

تحلق حولي رجال ونساء قليلون ثم كثيرون حتى امتلأت مؤخرة الباخرة بأشكال متعددة ووجوه أكثرها جاذب وجميل، وصرت في بؤرة عيونهم المتجمعة حولي فخطفت في روحي لحظات خوف وارتباك لأضع نفسي في موقع اختبار أخير، فسارعت الى فتح حقيبي المعلقة على كتفي بأصابع مرتعشة تقريباً وأخرجت شمشاري الأبيض الصغير وتأملت عروقه الخفيفة المتغيرة.

1- وضعت في باطن كفي وتأملته بوداعة

2- لا أعرف إن كنتُ حزينة أم لا

3- كان يملأ كفي الصغيرة

4- وعروقه الخضراء كما هي تسري فيه وتتحول الى موجات بيضاء بالتدرج.

5- كان أكثر من وجه ينظر لي وأكثر من رقبة سيدة تتناول لترى هذا الكائن الصغير الذي أعرضه على الجميع كما لو أعرض أمامهم محارة نادرة أو لؤلؤة ثمينة.

6- وأنا في لحظة قرار لا رجعة فيها كنت قد خطت لها مسبقاً بعد زرع غشاء البكارة.

قذفت مشطي الأبيض وسط الأمواج بطريقة حاولت أن لا أبدو فيها عصبية؛ مشطي الصغير الذي أغرقني في رائحة عجيبة طيلة سنوات رمادية جلبت لي الويلات وانتهكت عذرتي وحولتني الى كائن هس.

دفعت بمشطي الصغير الى النهر فتلقفه الموج المتلاطم بسرعة فائقة ورأته يختفي ويغرق ويتلاشى كأنه لم يكن قبل قليل كائناً عظيماً بين كائنات حقيقتي الصغيرة.

دفعته في ممر الثيران الجميل فابتلعه موج أبيض يتقلب ويتداخل ويمتزج ببعضه في لحظة واحدة ولم أستطع فيها حتى تصوير احتضاره الأخير وهو ينجذب الى القاع بعروقه الخضراء.

نظر لي كثيرون لاسيما سيدات الباخرة السائحات بدهشة واستغراب وقالوا أشياء لم أفهمها؛ بينما فتحت ذراعي كجناحين مثل الممثلة الجميلة كيت وينسليت في فيلم تاي تانك وتنفست بعمق متحررة من كل شيء في تلك اللحظة.

كان الهواء بارداً وعذباً جداً كما لو إنني أشمه للمرة الأولى.

بيروت - بغداد

2016



## الفهرس

- 5 ..... لماذا ين الناي..؟
- 7 ..... ربحانة
- 9 ..... البداية
- 9 ..... صفير النايات - الصفير الأول
- 24 ..... صفير النايات - الصفير الثاني
- 25 ..... صفير النايات - الصفير الثالث
- 26 ..... صفير النايات - الصفير الرابع
- 28 ..... صفير النايات - الصفير الخامس
- 29 ..... صفير النايات - الصفير السادس
- 32 ..... صفير النايات - الصفير السابع
- 39 ..... صفير النايات - الصفير الثامن
- 41 ..... صفير النايات - الصفير التاسع
- 43 ..... صفير الرائحة - الصفير الأول
- 44 ..... صفير الرائحة - الصفير الثاني
- 45 ..... صفير النايات - الصفير العاشر
- 47 ..... صفير الرائحة - الصفير الثالث

48	.....	صفير النيات - الصفير الحادي عشر
49	.....	النهاية
55	.....	الوحيدة
55	.....	صفير الرائحة - الصفير الرابع
58	.....	نايات الجسد - الناي الأول
61	.....	نايات الجسد - الناي الثاني
64	.....	الضحك
69	.....	السيدة
71	.....	صفير النيات - الصفير الثاني عشر
76	.....	الصددمات
79	.....	اللذة
81	.....	نايات الجسد - الناي الثالث
81	.....	نايات الجسد - الناي الرابع
82	.....	نايات الجسد - الناي الخامس
84	.....	السلالة
84	.....	صفير الرائحة - الصفير الخامس
89	.....	نايات الجسد - الناي السادس
91	.....	العانس
94	.....	صفير الجسد - الصفير الأول
97	.....	صفير الجسد - الصفير الثاني
98	.....	صفير الجسد - الصفير الثالث
100	.....	الشظايا

101	صفيـر النـايـات - الصفيـر الثـالث عـشر
107	نـايـات الجـسد - النـاي السـابع
112	المُنقَبَة
114	صفيـر الحـب - الصفيـر الأوـل
117	الرئـاحـة
117	صفيـر الرئـاحـة - الصفيـر السـادس
122	الجـسد
123	نـايـات الجـسد - النـاي الثـامن
128	الشـرف
132	الكائـن
136	الصـور
136	نـايـات الجـسد - النـاي الثـانـع
137	صفيـر الطـفـولـة - صفيـر شـخـصـي
142	الـكـلب
148	الـخـطـيـئـة
150	نـايـات الجـسد - النـاي العـاشـر
152	نـايـات الجـسد - النـاي الحـادـي عـشر
155	الصـفـعـة
160	نـايـات الجـسد - النـاي الثـانـي عـشر
162	النـيـذ
166	صفيـر خـاص - الصفيـر الأوـل
168	الانفـجـار

172	الطالبة
181	صفيير خاص - الصفيير الثاني
184	الأمريكي
188	الكابوس
192	الخيال
194	نايات الجسد - الناي الثالث عشر
196	القيء
201	قريتنا
237	الحُلْمَة
238	صفيير خاص - الصفيير الثالث
240	صفيير خاص - الصفيير الرابع
244	الضابط
249	صفيير الحب - الصفيير الثاني
251	البطريق
254	العاشق
254	صفيير الحب - الصفيير الثالث
256	المجنّس
265	الكاميرات
272	السفر
274	صفيير الحب - الصفيير الرابع
276	الذبول
279	الغريقة

284	الحل
289	الدشاديش
292	العازفة
295	الحريق
299	السر
303	الراعية
305	إسطنبول
307	السميرنوف
309	نايات الجسد - الناي الرابع عشر
311	نايات الجسد - الناي الخامس عشر
314	نايات الجسد - الناي السادس عشر
326	اليسفور
330	الرؤيا
335	الرين
337	الشيطان
340	الحكّة
340	صفيار العار - الصفيار الأول
341	صفيار العار - الصفيار الثاني
345	صفيار العار - الصفيار الثالث
347	الهذيان
352	البكاراة
355	الروح

360	الفاسد
365	الخيانة
372	الورثة
375	صغير الجسد - الصغير الرابع
380	الشمشار





تجربة سردية غريبة في الشكل الروائي العربي بمعديتها الرقمية التي اتخذت من الناي شكلها وصوتها بطريقة احترافية، مثلما أخذت ترقيمها من أحداث تجري في داخل السرد لا سيما من شخصية "الحلوة" الصبية المراهقة التي يسري عمرها الصغير بتعاقب ثقوب النايات في وحدة نغمية غاية في الحزن والإثارة والألم.

"الحلوة" هي خلاصة من خلاصات الحرب التي تعرض لها المجتمع العراقي أثناء الغزو الأمريكي له، وهي ترنيمة جنائزية فائقة التأثير لموضوعة جريئة وهي الزنا بالمحارم فكشفت الكثير من أفتنة الاحتلال بجرأة متناهية في عرض موضوعة التجاوزات الأخلاقية في ظروف الإحتلال الأمريكي للعراق والذي كشف عورات كثيرة ليس أقلها هذه الازدواجية في الشخصية العراقية المغتربة التي افتقرت عن ماضيها بطريقة غريبة فارتكبت بوجود المحتل الكثير من التجاوزات الأخلاقية في مجتمع صارم التقاليد، تمثله القرية وسننها الاجتماعية التي تنتمي إليها "الحلوة" حينما وقعت ضحية جسدها الناشئ بغياب أب خطفته الميليشيات لأسباب طائفية.

لا تقترح هذه الرواية ترميم البكارة الوطنية المستباحة ولا استعادة الشرف المنتهك بطريقة "الترقيع" ذائعة الصيت بل تقترح؛ وهي تمضي في سردياتها المثيرة؛ الى كشف القنوات المغذية لاستباحة عذرية "الحلوة" واغتصابها من داخل البيت الواحد كضحية من ضحايا الفوضى السياسية والاجتماعية. "الحلوة" .. تدور أحداثها بين بغداد وبيروت وإسطنبول ولكل مكان فيها سبب وحدث ومأساة.

"الحلوة" يمكن أن تكون لوليتا العراق بوصفها الطفولي الجمالي.



دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المنبي - مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07700492576 - 07711002790

e.mail: bal\_alame@yahoo.com

ISBN 978-1-7732219-3-9

